



الكويت كانت منزلي

زهرة ديكسون فريث

الكويت كانت منزلي

دار الكاتب العربي



صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت

الخليج العربي
١٥١٥ - ١٩١٤

لعدة سنوات خلت كانت تنقلات البدو الرحـــل لا تـكاد تنقطع ولا تعرف الاستقرار ابداً . تنتقل متحيرة من أماكنها تحير الرمال في الصحاري . وكثيراً ما كانت الظروف الاقتصاديـة والاجتماعية الطارئة ، تضطر قبيلة ما لأن تحزم أمتعتهـا وتشدّ الرحيـل ، بحثاً عن مـكان جديد تجد فيـه الماء والكلأ .

وقبل حوالي مئتين وخمسين سنة ، اتفق لاحدى تلك القبائل أن هاجرت من قطر متخـــذة من شاطىء الخليج العربي طريقاً لسيرها . ومهما كانت الظروف التي دفعت تلك القبيـلة إلى الهجرة ، فقـد قادها المسـير الى رأس ذلك الخليج حيث ينعطف الشاطىء داخل اليابسة ليشكل جوناً واسعـــاً بذاته . . وهنـا عثرت القبيلة على ميـاه وافرة للشرب ، فحطّت رحـالها وانتهى مطافها .

وهكذا أصبحت تلك القبيلة مع الأيام ، تتّخـــذ من هذه البقعة مكاناً تقضي فيه فصل الصيف ، بينما كانت تنتقـل الى الداخل في فصل الربيـع ، بحثاً عن المراعي والكلأ . ومع مرور الأيام هجر زعماء القبيلة الخيام وشيدوا لهم بيوتاً على الشاطىء وسكنوا فيها ، ثم أخذت هذه البيئة تنمو ، والقرية تتسع إلى أن غدت مدينة عرفت فيما بعد بمدينة الكويت .

هذا ، ولا نعرف الا القليل عن تاريخ الكويت القديم ، ذلك لأن معظم مصادره ومعلوماته المتوفرة تكمن في تقاليد الشعب نفسه ، وفي المشاهدات والانطباعات التي كتب عنها الرحالة الاوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنّ من الثابت أن المدينة كانت مأهولة منذ سنة ١٧١٠ تقريباً .

وقد سكنها اول من سكنها أفراد قبيلة بني عطب ، وهي قبيلة ترجع أصولها الى قبيلة العماريين ، وتعتبر بدورها فرعاً من قبيلة عنزة . وكان آل الصباح زعماء تلك القبيلة .

وبادىء ذي بدء ، استوطن آل الصباح وآل خليفة في قطر بعد نزوحهم عن أراضي نجد . ومنها هاجروا الى الكويت . ولكن آل خليفة عادوا الى قطر بعد فترة قصيرة ، ومن ثم انتقلوا الى البحرين تاركين آل الصباح شيوخاً على الكويت التي كانت تنمو وتتسع باستمرار .

وقد تكون الكويت قبل وصول شيوخ آل الصباح وابناء عشيرتهم اليها ، موطناً لجماعات قليلة من صيادي الأسماك ، ولكن من الواضح ان جميع اولئك السكان اعترفوا بسلطة شيوخ آل الصباح على الكويت حالما وصلوا إليها واستقروا فيها .

يقول الرحالة الهولندي ، كارستن نيبور ، الذي أبحر الى الخليج سنة ١٧٦٤ أن الكويت كانت تابعة يومذاك لمنطقة الاحساء . ثم يصفها بقوله : إن الكويت أو القرين كما يسمّيها الفرس والاوروبيون ، مدينة تقع على البحر ، وتبعد عن زنجبار أو البصرة القديمة مسيرة ثلاثة أيام . وكان أهلها يعيشون على صيد الأسماك واللؤلؤ ، فكانوا يستخدمون لهذه الغاية حوالي ثمانمائة مركب . وكانوا في المواسم الجميلة يهجرونها ويذهبون اما الى الصيد أو لركوب البحر في مغامرة تجارية بحيث كانت المدينة تبدو وكأنها خالية من السكان .

وكان شعب الكويت متمسكاً باستقلاله منذ ذلك الحين ، وما يفتأ يقاوم مطامع حاكم الاحساء ، وكان هذا لا يني يهاجم المدينة الصغيرة ، الأمر الذي كان يضطر شعب الكويت على التراجع الى جزيرة فيلكة والتحصن فيها . وتقع هذه الجزيرة في مدخل خليج الكويت ، مما يجعلها الملاذ الأمين الذي يأوي اليه الأهالي أيامَ المحن والاخطار .

والكويت اليوم دولة عربية مستقلة ذات سيادة ، وان كانت مرتبطة

بمعاهدة مع بريطانيا ، فمنذ أوائل القرن الحاضر كانت بريطانيا تتمتع بنفوذ قوي في هذه البقعة الاستراتيجية الهامة . كما أنها ظلت لمدة خمسين سنة خلت تتمتع ببعض الحقوق والامتيازات . وعينت فيها مقيماً سياسياً لرعاية مصالحها .

أما تاريخ الحقبة التي جرى خلالها توقيع تلك المعاهدة ما بين بريطانيا والكويت في سنة ١٨٩٩ ، فانه يعتبر بحق تاريخ حقبة تميّزت بتوسيع مصالح بريطانيا التجارية والسياسية في منطقة الخليج . ولذا فان من الاهمية بمكان تحليل تلك الاحداث التي برزت فيها بريطانيا كقوة سيطرت على منطقة الخليج خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

لقد وجهت بريطانيا اهتمامها الى منطقة الخليج شأنها شأن البرتغاليين والهولنديين من قبل ، تحدوها الرغبة في انماء وتعزيز سبل تجارتها مع الشرق . والحقيقة ، إن البرتغال كانت اول دولة أوروبية حصلت على نقطة ارتكاز لنفوذها في منطقة الخليج ، وذلك اثر توقيع المعاهدة التي مكنت البرتغال من انشاء قاعدة لها في هرمز بايران .

وتذكرنا القلاع البرتغالية التي ما تزال آثارها منتشرة هنا وهناك على طول شاطىء الخليج ، بسياسة البوكوك البرتغالي الذي كان يرمي من وراء هذه السياسة ، سياسة تشييد القلاع والحصون ، الى تأسيس محطات للتجارة ، وذلك يقيناً منه بأن مثل هذا العمل قد يرغم الحكام المحليين على الاعتراف بسيادة البرتغال عليهم .

وقد ظلت البرتغال تتمتع بسلطة لا ينازعها عليها منازع في الخليج مدة تزيد على القرن . وساعدها في بسط سيطرتها إحجام الشركة الهندية الشرقية عن ارسال سفنها التجارية الى منطقة الخليج في معرض سعيها لايجاد اسواق جديدة لمنتوجاتها حتى سنة ١٦١٦ . وكان يساعدها فيما ترمي اليه ذلك التشجيع الذي لاقته في فارس لتصريف منتوجاتها الصوفية ، مما حدا بها لمضاعفة نشاطها في تلك المنطقة .

وفي سنة ١٦١٩ منح الشاه عباس دولة البرتغال امتيازاً يخولها ان تحتكر تجارة الحرير في طول الخليج وعرضه . ومما يتردد على الالسنة ان بريطانيا لم تصبح من القوة بحيث يمكنها إدخال الرهبة في نفوس البرتغاليين ، وتهديد زعامتهم إلا سنة ١٦٢٢ . وفي هذه السنة تمكن الانـكليز من احتلال منطقة هرمز تؤازرهم فرقة من الجنود الايرانيين . ومنذ ذلك الحين بدأ نجم البرتغاليين بالأفول ، ونفوذهم بالتقلص .

إلا انه بقي هناك من ينازع بريطانيا زعامتهـا على التجارة في الخليـج . فقد كان هناك الهولنديون الذين بدأوا ينظرون بطمع الى الثروات الطائلة التي تمكن البرتغاليون من الحصول عليها ، نتيجة متاجرتهم بالتوابل والبهارات قبل أفول نجمهم هناك . وسرعان ما تفوقوا على الشركة الشرقية ، وأصبحوا سنة ١٦٣٩ القوة البحرية الوحيدة التي تسيطر على الخليج .

ولم يوفق الانـكليز في استعادة سيطرتهم على منطقة الخليج والتغلب على الهولنديين إلا بعدما استطاعوا ان يـدمروا المصنع الوحيد الذي كانوا يملكونه في جزيرة خرج ، بمؤازرة الجنود الايرانيين ، فضلاً عن الانتصارات التي سجلتها البحرية البريطانيـة في المياه الاوروبية ضد القوات البحريـة الهولندية .

ومع ذلك ، ظلت البواخر التجارية البريطانية تـكابد مشقات جمة في منطقة الخليج ، نتيجة أعمـــال القرصنة التي كانت منتشرة عـلى نطاق واسع قرب شواطىء عُمان . والواقع أن القراصنة العرب قدموا البرهان الدامغ على انهم يشكلون تهديداً خطيراً ، ويقفون حاجزاً منيعاً بوجـــه التوسع والطموح الذي كانت الشركة الشرقية تعمل بنشاط ودأب لتوطيده في منطقة الخليج .

وقد أعطانا المؤلف ج . س . باكينغهام في كتابه « رحلات في سوريـــة والمتوسط وفارس » والذي نشره سنة ١٨٣٠ ، بعض الصور المثيرة عن واحد من أعظم رؤساء القراصنة وهو رحمة بن جابر ، فقال ان ذلك الزعيم ظل

يشيع الرعب في قلوب البحارة والمسافرين في الخليج مدة أربت على عشرين سنة كاملة . والمعروف ان رحمة هذا كان مواطناً كويتيـــاً ، ولكنه كان يتخذ من قلعة الدمــــام الواقعة على شاطىء الاحساء مركز الانطلاق في غزواته ضد السفن التي كانت تعبر الخليج بغض النظر عن هويتها . ثم يتطرق المؤلف في كتابه ، الى الحديث عن العادات الشخصية التي كان يتحلى بها زعيم القراصنة فيقول :

« لقد كان ذلك الزعيم القرصان يؤثر البساطة في معيشته ولبـــاسه وعاداته . وأنـّى أراد أن يتوجه كان يرفض أن يرتدي لباساً يميزه عن سواه من مرافقيه . وعـــلى الغالب كان يغـالي في بساطته بحيث لم يكن يرتــدي سوى قميص لا يخلعـه عنه ويستبدله بغيره إلا بعـد أن يتمزق عن آخره . »

وقد توفي رحمة بن جابر سنة ١٨١٨ ، وذلك إثر حملة جردها ضـــد شيوخ البحرين ، وأدرك خلالها انه سينهزم فبادر الى نسف سفينته ، به وبجميع من كانوا يشتركون معـه في المعركة ، مؤثراً المـوت على أن يقع اسـيراً في قبضة أعدائه .

في تلك الاثناء شكـّلت الشركة الشرقية فرقاً خاصة من الجيش تدعمها قوة بحرية ، بغية الحفاظ على مصالحها التجارية . ثم وجدت أنّ عليها أن تجري محادثات سياسية مع شيوخ المنطقة . كما أنشأت لها في الخليج بعض الموانىء لإيواء مدرعاتها الحربية ، لا سيما وقد أخذت مصالحها حينذاك تنمو وتتسع في المنطقة .

ولما وجدت ان اعمال القرصنة ما زالت قائمة قررت اتخاذ بعض الاجراءات المشددة ضد القراصنة ، وذلك في سبيل الحفاظ على مصالحها . ومن تلـــك الاجراءات أنها جردت ثلاث حملات عسكرية ضـــد القراصنة انطلقت من بومباي على التوالي في سني ١٨٠٦ و ١٨٠٩ و ١٨١٩ . وما لبثت حتى ظهرت على القراصنة وتغلبت عليهم نهائياً .

وفي كانون الثاني من سنة ١٨٢٠ وقعت الشركة معاهدات للسلام مع مشايخ دبي ورأس الخيمة والبحرين وأبي ظبي .

غير ان تجارة الرقيق ظلت سائدة في المنطقة على الرغم من معاهدة تحريمه التي أبرمت سنة ١٨٢٠ ، لتعنّت تجار الرقيق بعدم التخلي عن هذه التجارة الرابحة . وكذلك فشلت جميع المعاهدات والاتفاقات التالية في وضع حد لتلك التجارة . ولم تكن هذه التجارة لتتوقف لولا تدخل الاسطول البريطاني والأوامر التي أصدرها قواده بمصادرة كل سفينة كانت تقل على ظهرها قوافل من العبيد .

ومما لا ريب فيه ان بريطانيا استطاعت ان تثبت أقدامها في منطقة الخليج ، وتمسك فيه بزمام الأمور في مستهل القرن التاسع عشر ، معتمدة على قوتها البحرية ، واتخاذها الهند قاعدة لاعمالها . ولو لم يكن كذلك لما استطاعت أن تتغلب على القراصنة ، وتتمكن من تحريم تجارة الرقيق . وأهم من ذلك ، تلك الاعمال الحربية الواسعة التي قامت بها بريطانيا في مياه الخليج وجعلتها تشعر بأهمية وضع خرائط دقيقة عن تلك المنطقة .

صحيح أنه قد جرت في السابق ، أي في سنة ١٧٢٢ ، أعمال هندسية لتحديد مواقع الخليج وتفصيلها ، تلك الأعمال التي استمرت حتى سنة ١٧٨٥ ، ووصلت خلالها السفن الهندسية في أعمالها الى شط العرب قرب البصرة ، الا ان تلك الأعمال قد توقفت بسبب النشاط الذي كان القراصنة يقومون به ، ثم استؤنفت تلك الأعمال إثر توقيع معاهدة السلم في سنة ١٨٢٠ . في تلك السنة كان الكابتن مورغان والكابتن غي على رأس أعمال الهندسة التي دامت تسع سنوات . وتمكنا خلال هذه المدة من جمع كافة المعلومات والتفاصيل التي ما زالت نقطة الارتكاز التي تقوم عليها خرائط الخليج حتى يومنا هذا .

ومنذ الوقت الذي حلّت فيه بريطانيا محل الهولنديين في منطقة الخليج ، ظلت جاهدة لتعزيز مؤسساتها السياسية كي تشمل المناطق المجاورة . ذلك

لانها كانت تنظر إلى موانىء الخليج كمحطات استطلاعية للهند . كما حرصت بعزم على تثبيت دعائم نفوذها بحيث لا يستطيع أحد أن يزعزعه في المستقبل صوناً لمستقبل ممتلكاتها في الهند . ثم بادرت إلى انشاء قنصلية لها في البصرة سنة ١٧٦٤ . كما أنها عينت موظفاً رسمياً في منطقة بوشير ليحلّ محلّ الموظف الذي كان تابعاً للشركة الشرقية ، وهكذا تطورت العلاقات ما بين بريطانيا ومنطقة الخليج من توجيهات يقوم بها رجال التجارة والاعمال ، الى توجيهات يقوم بها رجال الدولة والسياسة !

غير أن مثل هذا العمل ما كان ليروق لبعض الدول التي ألفت نفسها في موقف من يتفرّج على بريطانيا وهي تحصل لنفسها على امتيازات تجارية وسياسية واسعة النطاق في الخليج . ففي أواخر القرن الثامن عشر بدأت روسيا تمارس ضغطها على المنطقة من الشمال . الا أن هذا العمل الذي باشرته روسيا القيصرية في شمال ايران بغية توسيع نشاطها ونفوذها التجاري والسياسي ، نبّه بريطانيا على حقيقة الخطر الذي يهدد سيطرتها المتنامية على الخليج .

ومع ذلك فان روسيا لم تكف عن ممارسة ضغطها ، بل على العكس أخذت تضاعف نشاطها في المناطق الواقعة الى الشمال من الخليج طوال القرن التاسع عشر . ثم طفقت في أواخر ذلك القرن تقوم عبثاً بمناورات سياسية تهدف من ورائها إلى الحصول على امتياز يخوّلها حق بناء محطة لتموين بواخرها في المنطقة . كما أنها أخذت تعمل على دعم بعض المشاريع التي كانت تدور المباحثات بشأنها ، ولا سيّما مشروع انشاء خط حديدي يربط ما بين الكويت والبحر الابيض المتوسط .

من هنا كانت رغبة بريطانيا متركزة في السعي الدؤوب للحصول على امتيازات أثبت وأرسخ يمنحها إياها شيوخ الخليج . وبالفعل توصلت سنة ١٨٥٣ إلى إبرام معاهدة سلم دائم في المنطقة بينها وبين مشايخ ساحل عُمان ، والغيت معاهدة سنة ١٨٢٠ . ومع ذلك ظلت بريطانيا تتوق

الى وضع تلك المناطق العربية تحت حمايتها وشدها إليها بمحالفات أوثق وأثبت .

ويبدو أن بريطانيا قد حققت لنفسها النجاح في هذا السبيل عندما قيدت الدول الواقعة على ساحل عمان نفسها بمعاهدة جديدة وقعتها في آذار سنة ١٨٩٢ وتعهّدت تلك الدول بموجبها :

أولاً : الامتناع عن توقيع أية معاهدة مع غير الدولة البريطانية .

ثانياً : ألاّ تسمح لاي ممثل لدولة أجنبية بالدخول الى أراضيها إلا بموافقة الحكومة البريطانية .

ثالثاً : الا تقوم بأي تبديل في المنطقة الا بعد الحصول على موافقة الحكومة البريطانية .

وبعد أسبوع واحد من التوقيع على تلك المعاهدة – أي في ١٣ آذار (مارس) سنة ١٨٩٢ – وقعت بريطانيا معاهدة مماثلة بينها وبين البحرين .

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تمكنت تركيا من بسط نفوذها على الاراضي الواقعة شمال شاطىء الخليج ، تلك الاراضي التي تقع اليوم ضمن نطاق العراق . ولكن المعروف عن تركيا أنها ساعدت بريطانيا في تحقيق سياستها التوسعية في الخليج بدلاً من أن تعمل على عرقلتها . ذلك لأن بريطانيا كانت في ذلك الحين تحظى باحترام خاص لدى الباب العالي . كما توفرت لبريطانيا بعض الفرص المشجعة لتوسيع رقعة نفوذها في الاراضي العربية التي كانت خاضعة لحكم الاتراك . والحقيقة أن بريطانيا كانت تعتبر بلاد ما بين النهرين مجالاً حيوياً لتجارتها في الخليج ، كما جاء على لسان اللورد كرزون سنة ١٨٩٢ عندما صرح قائلاً :

« إن بغداد تقع في نطاق القائمة التي تضمّ موانىء الخليج ! »

وعلى الرغم من ان بريطانيا ظلت تتمتع باحترام الزعماء العرب ، فقد طرأ بعض التحوّل على سياسة تركيا تجاهها في أواخر القرن التاسع عشر . ومن ثم بدأت السلطات التركية تنظر إلى المانيا نظرة مفعمة بالود والصداقة .

وتبعاً لذلك أخذت المانيا تحظى ببعض النفوذ في المنطقة ، وذلك بدافع النشاط التجاري الذي كانت تمارسه في تركيا وفي البلاد العربية الواقعة تحت حكمها وسيطرتها . كما أن مؤسسة ونكهاوس الالمانية بدأت تثبت أقدامها في الخليج ، وتشدد يوماً بعد يوم حدة منافستها للشركات البريطانية التي كانت تعمل هناك .

وفي سنة ١٨٩٩ حصلت المانيا من السلطان عبد الحميد على امتياز بناء خط لسكة الحديد يمتد من القسطنطينية الى الخليج ، مما كان سيجعل الكويت بحكم موقعها الجغرافي الهام المحطة الاخيرة لهذا الخط . ولم تكن بريطانيا باديء ذي بدء لتكترث كثيراً بالنشاط الالماني التجاري الآخذ في التزايد في تركيا ، لأنها كانت منشغلة عنه بمراقبة النشاط الذي يبديه الروس ، ولكن بالنظر الى اهمية ذلك الخط من الوجهة الستراتيجية ، فضلاً عن التوسع المفاجيء الذي طرأ على الصناعات الالمانية واستيلائها على بعض الاسواق التي كانت بريطانيا تعتبرها اسواقاً تقليدية لها ، فانها تنبهت لهذا التحدي الصارخ واخذت تعد العدة لمجابهته .

ولم تكن الكويت يومذاك قد دخلت في أية معاهدة مع بريطانيا ، لأنها كانت تنظر اليها من زاوية تختلف عن الزاوية التي تنظر منها الى المشيخات الاخرى التي أبرمت معها معاهدات سنة ١٨٩٢ ، إلا ان بريطانيا لم تكن تتوقع يومئذ أن تصبح الكويت محطة لتموين السفن الروسية بالفحم الحجري ، أو أن تغدو نهاية لخط سكة الحديد الذي كانت المانيا ستمده وينتهي اليها . من هنا وجدت بريطانيا ان مثل تلك الاعتبارات تبرر تغيير وجهة نظرها السابقة الى هذا البلد ، وهكذا سعت لعقد معاهدة بينها وبين حاكم الكويت وقد ابرمت بالفعل هذه المعاهدة في ٢٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٩٩ .

وفي معاهدات لاحقة مع بريطانيا تعهد شيخ الكويت في شباط (فبراير) سنة ١٩٠٤ بألا يسمح لاحد بادارة مكاتب البريد في بلاده باستثناء الادارة التي يسمح بها نائب الملك الذي كان يقيم في الهند . كما تعهد كذلك بعدم اعطاء أية امتيازات لصيد الاسفنج أو اللؤلؤ بدون موافقة بريطانيا . وفي تشرين الأول (اكتوبر) من سنة

١٩١٣ تعهّد بألا يمنح أية امتيازات للتنقيب عن النفط في أراضيه بدون موافقة بريطانيا .

في سنة ١٩٠٣ قام اللورد كرزون بزيارة الكويت اثناء جولة زار فيها منطقة الخليج. وكان يرمي من وراء زيارته هذه في الدرجة الاولى الى القاء خطاب في مشايخ المنطقة بعد ان يتجمّعوا لاستقباله ساعة وصوله الى الشارقة في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) . والجدير بالذكر هنا ان سياسة اللورد كرزون نحو المنطقة ، كانت سياسة ودية مشفوعة بالحماية التي قبلت بريطانيا بتقديمها لحكام المنطقة مقابل السماح لها ببسط نفوذها المطلق على جميع الشؤون التجارية والسياسية . وانطلاقاً من هذه الزاوية قال اللورد كرزون في خطابه امام حكام الخليج العربي :

« لقد انقذناكم من خطر الانقراض على أيدي جيرانكم ، وفتحنا مياه الخليج امام جميع سفن العالم للابحار فيه بحرية وسلام ، وليس هدفنا أن نغتصب بلادكم ، ولا ان نقضي على استقلالكم ، ولكننا بالعكس قد حافظنا عليه ، واعلموا بأن السلام سيبقى مخيماً على هذه الربوع ، وستبقى لكم استقلالاتكم ، كما سيظل النفوذ البريطاني قائماً دون أن ينازعه أي منازع » .

وفي حزيران (يونيه) من سنة ١٩٠٤ تم الاتفاق على تعيين أول مقيم بريطاني في الكويت .

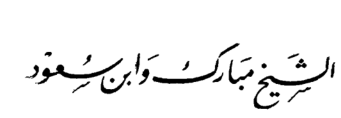
في هذه الاثناء لم يطرأ أي جديد على مشروع المانيا لمدّ خط سكة الحديد من البحر المتوسط الى الكويت . في حين ارتفعت أصوات المعارضة من بريطانيا نفسها ضد مساهمة بريطانيا في تمويل مشروع كهذا . ثم اثير هذا المشروع ثانية في سنة ١٩٠٤ . واقترح اللورد هالدين على القيصر ويلهيلم الثاني اعطاء بريطانيا الحق في انشاء وادارة القسم الذي سيمتد من بغداد الى الخليج كشرط اساسي لتتعاون بريطانيا مع المانيا في تنفيذ المشروع ، كما أبدى اللورد المذكور استعداد بلاده لاعطاء المانيا حرية التجارة في شمالي العراق مقابل ان تعطى امتيازات مماثلة في جنوبه . ثم قامت مباحثات بين تركيا وبريطانيا حول هذا

المشروع في سنة ١٩٠٩ ولكن اتفاقاً ما لم يوقّع إلا في سنة ١٩١٣ بعد ان وجدت بريطانيا نفسها مرغمة على التنازل عن الكثير من مطالبها الاساسية . وعندئذ اعترفت تركيا بمركز بريطانيا الخاص في منطقة الخليج وشرعية المعاهدات التي عقدتها مع البحرين والكويت ، بحيث تم الاعتراف بالكويت كدولة مستقلة ذات سيادة تتمتع بريطانيا فيها بمركز خاص . ومن جملة الشروط التي تم الاتفاق بشأنها أن تكون نهاية خط سكة الحديد في البصرة ، على الا يصار الى مدّه أبعد من تلك المنطقة بدون موافقة الدولة البريطانية .

ولكن لم يتم التوقيع على المعاهدة الاخيرة بسبب اندلاع نار الحرب العالمية الاولى . غير ان العلاقات البريطانية والكويتية ظلت قائمة منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا وفقاً لبنود المعاهدة المعقودة بينهما [1] .

---

١) الغيت معاهدة سنة ١٨٩٩ وملاحقها في ١٩ حزيران (يونيه) سنة ١٩٦١ ، وبذلك استكملت دولة الكويت جميع معالم السيادة والاستقلال اللذين لم تتخل عنهما حتى في الظروف التاريخية التي اضطرتها الى عقد المعاهدة المذكورة لتدرأ عنها مطامع الدولة العثمانية التي كان يغيظها ان يقف نفوذها السياسي الذي امتد الى معظم البلاد العربية ، عند حدود هذه الدولة الصغيرة فلا يستطيع النفاذ اليها — المترجم .


الشيخ مبارك وابن سعود

يمكن القول ان تاريخ الكويت الحديث بدأ منذ سنة ١٨٩٠ ، وذلك مع بداية حكم الشيخ مبارك الصباح . ذلك لان الكويت برزت في ظل حكمه الرشيد في اواخر القرن التاسع عشر كدولة ثابتة موطّدة الاركان ، ومستقلة عن جيرانها الذين كانوا يفوقونها قوة وسلطاناً .

إن الأحداث التي دفعت الشيخ مباركاً الى سدة الحكم تعطينا لمحة عن شخصية هذا الحاكم العظيم الذي ما زالت ذكراه ماثلة في الأذهان ، ولا يذكرها الكويتيون كافة الا مقرونة بالتبجيل والاحترام .

فقبل تربع الشيخ مبارك دست الحكم ، كانت شؤون الكويت الداخلية تتعثر بأذيال الفوضى والاضطراب نتيجة للعوامل السياسية الخاطئة التي كان يتبعها سلفه الشيخ محمد الصباح ، فضلاً عن عدم كفاءة هذا الاخير في مثل هذه الشؤون . ولذا وجدت القبائل في ظله الفرصة مؤاتية للاندفاع في غاراتها وغزواتها التقليدية وشن الحروب الطاحنة ، يشجعها على ذلك ما يعرف عنها من تبرم بالسلطة وعدم التزامها حدود المسؤولية . ولقد تجاهلت هذه القبائل تجاهلاً كلياً سلطة الشيخ ، مما أدى الى التطويح بحرمة القانون ، وانتشار شرعة الغاب في طول البلاد وعرضها . كما قامت قبيلتا شمر وضافر آنذاك بشن الغارات على الكويت من اراضي نجد . وفي الشمال كانت تركيا تعتدي على حدود جارتها ، الدولة الصغيرة المسالمة .

وكان الشيخ محمد الصباح يتلقى المشورة من يوسف بن عبد الله آل ابرهيم ، ويتعرّض للتأثيرات التي يفرضها عليه ، وهو غريب من البصرة ، جعلته اهواؤه وميوله المتحيزة للاتراك شخصاً غير مرغوب فيه بنظر الكويتيين الذين كانوا

يريدون البقاء مستقلين عن تركيا .

وكان من الطبيعي ان يثور الشيخ مبارك ، شقيق الحاكم الأصغر ، متمرداً على الضعف الذي كان يتردى فيه ، وسوء تصريفه شؤون الدولة الداخلية . وعبّر عن استيائه من حكم أخيه بصورة مكشوفة ، وانتقد بمرارة سياسته التي افسحت المجال للسخرية من سلطة الشيخ ونشر البلبلة والفوضى في صفوف القبائل .

وقد أيقن يوسف بن ابرهيم ان الشيخ مباركاً لا يكنّ له العداء فحسب ، بل انه قادر على تقويض نفوذه الذي يبسطه على الشيخ محمد . لذا وضع كل ثقله في الميدان لاقناع الشيخ محمد بارسال مبارك الى الصحراء ، وتكليفه بمهمة إعادة النظام واستتباب القانون بين جماعات البدو .

ويقال ان الشيخ محمداً ودّ أن يسند الى شقيقه الاصغر للقيام بمحاولة جريئة في الداخل ، بغية السيطرة على شؤون البلاد ، إلا انه وجد من هو افضل منه للقيام بهذه المهمة ، ولكن يبدو أن الشيخ محمداً تأثر من يوسف فأوكل الى الشيخ مبارك مهمة اخضاع القبائل في الصحراء وأمره بمغادرة المدينة . ولكنه لم يعط مباركاً الأموال اللازمة لتنفيذ مثل ذلك العمل الذي أوكله اليه ، مما يدل على ان تعيينه في منصب أمير البادية لم يكن سوى خديعة اراد من ورائها ابعاده عن المدينة . وهكذا ما كاد يوسف يتخلص من الشيخ مبارك حتى تمكن من ان يضع نفسه في مركز الوزير الأكبر للدولة .

في هذه الأثناء وجد الشيخ مبارك نفسه منفياً في الصحراء ، وزاد في ضائقته أنه كان يفتقر الى المال لانفاقه على أنصاره . فحاول ان يغرّر بشقيقه الحاكم عندما طلب اليه ان يمده بمبلغ عشرة الآف روبية بحجة رغبته في الزواج وشراء بيت في المدينة . ولكن الشيخ محمد رفض طلبه ، فقرر ساعتئذ أن يقوم بعمل حاسم . ولم يجد امامه محيصاً في سبيل الاستيلاء على السلطة في الكويت من أن يقضي على الشيخ محمد وشقيقه الثاني جرّاح ، وعلى يوسف بن ابرهيم .

ومن الواضح أنه لم يكن في وسع مبارك أن يحشد عدداً كافياً من الرجال



الشيخ مبارك الصباح

للقيـــام بثورة ، لا سيما وان أي هجوم مكشوف يقوم به سيجبه بتدخل الجيوش التركية الموالية للحاكم والمرابطة في العراق. ولذا وجب عليه أن يخطط هجوماً تستطيع تنفيـذه قلة من الرجال . وكان مقتنعـــاً بأن شعب الكويت عندما يجد نفسه تجـاه الامر الواقع ، فلن يبدي أية مقاومة وسيسلم بما آلت اليه الأمور .

وهكذا توجه الشيخ مبارك الى الكويت في مساءالسابع عشر من ايار (مايو) برفقة ولديه جـابر وسالم مع سبعة رجال يثق بهم وقد اختارهم من قبيلتي العجمان والرشايدة . فوصلوا الى بوابة المدينة عند منتصف الليل تقريباً ، فدخلوها تحت أستار الظلام ، وتوجهوا فوراً الى قصر الحاكم .

وكان الشيخ محمد ساعتئذ نائماً على سطح المنزل ، كم يفعل الكويتيون عـادة عندما يكون الحر خانقاً داخل البيت. وقد دلف الشيخ مبارك خلسة الى حيث يرقد الحاكم ، واقترب من سريره . وعاجلة باطلاق النـار عليه فأرداه قتيلاً بعد أن أيقظه من نومه . وكان رفاقه ينتظرون صدور هذه الاشارة منه ، فما كادوا يسمعون طلقات النار حتى تقدم جابر من غرفة جرّاح وقتله بسيفه ، بينما وقف الآخرون يصدّون الخدم عن الهرب ونقل اخبار الحادث .

وأسرع مبـــارك بعدئـذ الخطى للبحث عن يوسـف بن ابرهيم لقتـله حسب الخطـة المرسومة ، تاركاً انصـــاره يحرسون جثة شقيقه . ولكنه لم يعثر على أي أثر للوزير الداهية الذي كان قد غـــادر الكويت بعد ان وصلته شائعات تقول بأن مباركاً ينوي العودة الى المدينة .

وبالرغم من الخيبة التي شعر بها مبـارك لعدم تنفيذ مخططه بحذافيرة ، كان واثقاً من أنه أصبح الآن سيد الموقف غير المنازع . وبقي عليه أن يضمن مؤازرة بقية آل الصباح له ، حتى اذا حصل عليها ضمن تأييد الشعب .

وهكذ قضى مبارك البقية البـــاقية من الليل في قصر شقيقه ، وعند الفجر غسل وجهه وارتدى ملابسه ، وأدى الصلاة، ثم ذهب الى القاعة الكبرى حيث كان الشيخ الراحل يعقد اجتماعاته الصبـاحية ، ولم يكن نبأ مقتل الشيخ محمـد

قد تسرب الى الخارج بعد . ومع انبلاج الفجر كانت الزمرة القليلة من انصاره فقط تعرف أن الجالس على كرسي الحكم في القاعة هو الشيخ مبارك .

من البديهي انأول من كان يصل الى قاعة المجلس في الصباح أعضاء أسرة آل صباح . وعندما دخلوها وجدوا الشيخ مباركاً جالساً مكان الحاكم. وبالرغم من الخوف الذي انتابهم والذهول الذي استولى عليهم، لم يجرأوا على إظهار قلقهم، وإنما أخذ كل واحد منهم مجلسه في القاعة، وظلوا صامتين يترقبون بحذر ما ستتكشف عنه الاحداث . ثم بدأ علية القوم يصلون تباعاً الى القاعة ليأخذ كل منهم مقعده فيها ، بينما كان مبارك يراقبهم بصمت . واخيراً وعندما امتلأت القاعة بالناس، استل سيفه ووضعه على ركبتيه . ثم أعلن أمامهم ان الشيخ محمداً والشيخ جراحاً قد ماتا ، وأنه تسلّم الحكم مكانهما .

كان من الأسباب الرئيسية التي أهابت بالشيخ مبارك للاستيلاء على مقاليد السلطة كرهه الشديد للحاكم السابق بسبب ضعفه امام المطامع التركية . وما كاد يتسلم الحكم حتى اعلنها كلمة صريحة بان الكويت ستبقى دولة مستقلة، ولن تدين بالولاء لتركيا . ثم جنح نحو بريطانيا ينشد حمايتها لمواجهة التهديدات التي كانت تلوح بها تركيا لتمد سلطانها على الكويت . وفي سنة ١٨٩٩ تمّ توقيع معاهدة ما بين بريطانيا والكويت اعترفت بموجبها بريطانيا باستقلال الكويت وحمايتها لها .

وفي اثر توطيد العلاقات ما بين الكويت وبريطانيا أخذت العلاقات الكويتية – التركية في التدهور والتردّي ، مما اضطر تركيا الى ارسال مبعوث خاص الى الكويت على ظهر المركب « زحاف » وسلم المبعوث الشيخ مباركاً مذكرة تطلب منه اما الموافقة على قبول فصيلة من الجنود الأتراك في الكويت او مغادرة البلاد الى القسطنطينية حيث يعتزل حياته السياسية هناك . غير أن مباركاً رفض كلا الاقتراحين ، وانسحب المركب التركي من المياه الكويتية .

في هذه الاثناء كان يُخشى ان يلجأ الأتراك ومن ورائهم الالمان ، الى تحريض

ابن الرشيد ، حاكم نجد المعروف بقوته وبأسه ، للهجوم على الكويت من قلب الصحراء ، ولذا ابحرت قطعات من الاسطول البريطـــاني لتقديم المساعدة ، وانزلت منهـــا الى البر ثلة من الجنود عسكرت في الجهرة ، بينما رست ثلاثة طرادات قرب الشاطىء تأهباً للطوارىء ، ولكن الهجـــوم المقرر لم يقع ، ويعتقد بأن الاتراك قد صرفوا النظر عن تنفيذه .

وفي خريف سنة ١٩٠٢ وضع يوسف بن ابرهـــيم المستشار السابق الموالي لتركيا ، والذي سبق للشيخ مبـــارك ان ابدى استياءه من النفوذ الذي كان يفرضه على شقيقه ، مخططـاً لاسترداد السلطة في الكويت . وقد اتضح ذلك عندما قامت اعداد كبيرة من عرب الشريعات بقيادة اثنين من ابنـــاء الجرّاح ، بمغادرة دورة الواقعة على شط العرب ، على ظهر زوارق مسلحة ، بغية النزول على شاطىء الكويت وقلب حكم الشيخ مبارك .

ولكن انباء الحملة وصلت في تلك الاثنـــاء الى قائد الطراد الانكليزي « لابوينغ » فتوجه من فوره الى الكويت لتحذير الشيـــخ . إلا ان قائد الطراد وجد حالَ وصوله أن المدينة تقف على أهبة الاستعداد، والاهالي يحملون السلاح للذود عن استقلالهم . وبعد يومين تصدّى الطراد الانكليزي لتلك الزوارق في عرض البحر . واشترك معها في معركة حامية تمكن بعدهـــا من الاستيلاء على زورقين يقلان على ظهرهما حوالي مائة وخمسين رجلًا مسلحاً .

وكانت هذه آخر محاولة قامت لخلع الشيخ مبارك عن دست الحـــكم .

وفي اواخر القرن التاسع عشر انقسمت تلك الأراضي العربية المعروفة اليوم بالمملكة السعودية على بعضهـــا بدافع الحوادث المستحكمة بين الامر المتنافسة على الحـــكم ، والقبائل المتصارعة .

وكان الهاشميون يومئذ يحكمون الحجاز حيث تقع المدينتـــان المقدستان ، مكة والمدينة ، وذلك بحماية تركيا ، بينما يتقـــاسم مناطق نجد آل الرشيد وآل سعود . وكانت هـــاتان الامرتان تكنان لبعضهما بعضاً منذ سنوات بعيدة عداءً مريراً . وكانت نجد الشمالية امارة خاضعة لحكم ابن الرشيـــد ، ومدينة

حائل في القصيم بمثـــابة حصنه الرئيسي المنيع . بينما كانت نجد الجنوبية — والرياض هي المدينة الرئيسية فيها — امارة خاضعة لحـكم ابن سعود . كذلك كانت العلاقات حسنة بين ابن الرشيد ، والشريف حسين ، الحاكم الهـاشمي على الحجاز . بينما كان العداء مستحكماً بين هذا الاخير وآل سعود .

والمعروف أن آل سعـود ، وآل الرشيد ، أمضوا أجيـالاً طويلة وهم يتصارعون من اجـــل السيطرة على كافة بلاد نجد . فكان الواحد يفوز على خصمه ليحـكم المنطقة فترة من الزمن ثم تــدور عليه الدوائر لينهزم تاركاً الحـكم لعدوه ، وهكذا دواليك . وفي اواخر القرن التاسع عشر بدأ نجم آل سعود في الأفول ، ثم اضطر زعيمهم عبد الرحمن بن سعود للهرب الى الكويت تاركاً ابن الرشيد حاكماً مطلقاً على جميع ارجاء نجد .

وعندما لجـــأ الأمير عبد الرحمن الى الكويت كان يرافقه ابنه عبد العزيز ابن سعود ، وهو ما يزال في التـــاسعة من عمره . وهكذا شب عبد العزيز وترعرع في قصر الشيخ مبارك في الكويت . ويقال ان عبد العزيز تعلم الكثير من الحذق السياسي — هذا الحـــذق الذي اكسبه شهرة واسعة في سنواته المقبلة — على يدي الشيخ مبارك .

وكان الكويتيون يؤآزرون آل سعود في الصراع الدائر من اجل السيطرة على نجد ، مما ادى الى تدهور العلاقات بين ابن الرشيد والشيخ مبارك . كذلك ساعدت موالاة ابن الرشيـد للاتراك على ان يولي ساسة الكويت وجوههم شطر بريطانيا ، وارتباطهم معها بمعاهدة ، وبالتالي على اذكاء نار العداوة التي كانت قائمة ما بين آل الرشيد والشيخ مبارك .

وتبعاً لذلك عندما ساد الاعتقاد سنة ١٩٠١ بأن الأتراك سيضمون جيوشهم الى قوى ابن الرشيد للهجوم على الكويت ، وضع الشيـخ مبارك خطة لتجريد حملة تتجه غرباً في زحفها لمقابلة قوات الرشيد ، في حين يتجه عبد العزيز بإذن من الشيخ مبارك بناء لطلب الاول ، جنوبـاً على رأس فريق من قواته وذلك لمؤازرة القوات الكويتية الرئيسية .

غير ان الاحداث التي تتالت اظهرت بوضوح ان الغرض الرئيسي من طلب الشاب المتحمس عبد العزيز قيادة تلك المفرزة كان غير الغرض المتوخى ظاهرياً من قيادة حملة الى الرياض . فالأمير السعودي الشاب الـذي كانت نفسه مفعمة بالطموح والجرأة ، كان ينوى تنفيذ الخطوة الأولى من مخططه الرامي لاستعادة اعتباره ، وقهر ابن الرشيد ، وبالتالي استرجاع ممتلكات آل سعود .

والحقيقة التي لا مراء فيهـا ان قصة تمكن عبد العزيز على رأس قوته الصغيرة من الاستيلاء على الرياض وذبح حاكمهـا ابن الرشيد ، تعد من اعظم القصص الدراماتيكية في تاريخ الجزيرة العربية . وكانت الاعمال التي قام بها في الرابع عشر من كانون الثاني (ينـاير) سنة ١٩٠٢ من الشهرة بحيث ترددت اصداؤها في جميع انحاء الجزيرة .

اما بالنسبة الى الكويت والذين كانوا لا يزالون يذكرون قصة اغتيـال الشيخ محمد الصباح ، فانهم رأوا في الأعمال التي قام بها عبد العزيز شبهاً صارخاً لتلك الاعمال التي قام بها الشيخ مبـارك للاستيلاء على السلطة في الكويت قبل سنوات خلت .

وفي السنوات التالية كان الامير عبد العزيز يسجل الانتصار تلو الآخر على ابن الرشيد ، يدعمه في ذلك الشيخ مبارك ، وقبائل المنتفك في العراق . وبعد ان ركّز سيطرته على نجد حوّل وجهه جنوبـاً شطر الاحساء فاستولى على منطقة الهفوف في سنة ١٩٠٣ نازعاً عنها يد الاتراك .

وبذلك اصبح من الواضح ان الامير عبد العزيز ،بواقع انتصاراته المتكررة ، اصبح سيد الجزيرة العربية غير المنازع . فادركت بريطانيا ان من الفـائدة لها بمكان ان تسعى لتوطيد اواصر الصداقة بينها وبينه . وانطلاقـاً من هذا المبدأ في انشاء العلاقـات الودية عقد في اواخر سنة ١٩١٣ اجتماع بين ابن سعود والمقيمين السياسيين في الكويت والبحرين .

وكان ابن سعود يرغب كذلك في الوصول الى اتفـاق مع تركيا . وفي محاولة منه لتسوية الخلافات التي كانت قائمة بينه وبين الاتراك ، فقد اجتمع

ببعض المندوبين الأتراك بالقرب من الكويت سنة ١٩١٤ . ولكن التسوية التي توصّل اليها الطرفان أصبحت عديمة الجدوى لاندلاع نار الحرب العالمية الاولى في السنة نفسها .

وفي مستهل الحرب العالمية الاولى تعقدت الظروف كثيراً في الجزيرة العربية ، لأن الشريف حسين حاكم مكة غدا حليفاً لبريطانيا ، بينما حافظ على صداقته التقليدية تجاه ابن الرشيد الموالي لتركيا . ولكن ابن سعود ، رغماً عن كونه العدو اللدود للشريف حسين ، فقد ظل يشاركه عواطفه نحو الحلفاء واهدافهم .

وعندما غدا واضحاً سنة ١٩١٤ ان الالمان كانوا يعملون ما في وسعهم لابعاد تركيا عن بريطانيا العظمى ، ولاثارة العرب ضد الحلفاء ، قامت بريطانيا بالسعي لدى ابن سعود بواسطة الشيخ مبارك . وافهامه بأنها تعتمد على مساعدته كثيراً لحفظ السلام في الجزيرة العربية .

وفي السنة نفسها أمر السير بيرسي كوكس الكابتن و . هـ . شكسبير المقيم البريطاني في الكويت – والذي سبق له أن قابل سلطان نجد ، وقام بأسفار سابقة الى معظم انحاء الجزيرة العربية – أن يقوم برحلة الى داخل الجزيرة للاتصال بالامير ابن سعود ، وذلك للحصول على ضمانات ودية منه لمصالح الحلفاء . وفي رسالة بعث بها شكسبير في الرابع من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ قال فيها إن عواطف الامير كانت ودية كلياً تجاه الحلفاء ، وانه يرغب في الدخول بمعاهدة مع بريطانيا ، تلك المعاهدة التي قد تمكنه من اعلان موقفه بصراحة بالوقوف الى جانب الحلفاء .

ولم تكد تمضي بضعة أيام على رسالة شكسبير حتى اشتركت قوات ابن سعود في معركة ضد قوات ابن الرشيد . فما كان من الكابتن شكسبير إلا أن ساعد السعوديين في معركتهم ضد ابن الرشيد . وبصفته ضابطاً في المدفعية فقد أشرف على اطلاق القنابل من مدفع للميدان غنمته القوات السعودية ووضعته قيد الاستعمال في المعركة . وأخيراً اضطرت القوات السعودية الى

الانسحاب ، إلا ان شكسبير أصرّ على أن يبقى وراء مدفعه حتى قضى عليه رجال ابن الرشيد المندفعون الى أمام بسيوفهم . غير ان اسم الكابتن شكسبير ما يزال راسخاً في الاذهان، ويلقى التكريم من السعوديين والكويتيين على السواء . فالكويتيون يكرمونه لما ادّاه من خدمات كمقيم سياسي في الكويت ، والسعوديون يكرمونه لموته في سبيل الهدف الذي كانوا يحاربون من أجله .

والواقع ان مركز ابن سعود قد ضعف اثر معركة جرّاب ، وفي السنة التالية ، ارغم ابن سعود على تركيز كافة جهوده واهتمامه لقمع ثورة قامت بها قبيلة بني عجمان . وكان الشيخ مبارك يشدّ أزره ويساعده في نضاله لاخماد تلك الثورة . وعندما أوشك ابن سعود على الهزيمة في حربه مع قبيلة عجمان ، ووجد ان جيوشه مطوّقة في الحفوف ، أنفذ الشيخ مبارك ابنه سليم وحفيده أحمد – الذي أصبح فيما بعد حاكماً على الكويت – على رأس جيش لفكّ الحصار المضروب حول جيوش ابن سعود . فكان ذلك تعبيراً عملياً لما يكنّه الحليف لحليفه من مودة صادقة .

ومما هو قمين بالذكر ان جيش الكويت قد نجح في فك الحصار ، وضرب محتشدات رجال عجمان قرب القطيف . ولكن بعد هذا الانتصار الذي احرزه الكويتيون ، وافق قوّاد جيشهم رغم معارضة ابن سعود ، ان يمنحوا رجال عجمان المنهزمين حق اللجوء في بلادهم .

وقد ظلّت أوثق الروابط الأخوية قائمة ما بين الكويت ونجد ، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى الصداقة الشخصية العميقة ما بين مبارك الصباح وابن سعود . غير ان التسامح الذي أبداه قواد جيش الكويت نحو الثوار أفضى الى العداء المرير ما بين الامير عبد العزيز وشيخ الكويت فترة طويلة مما يقلب وجه الصداقة والتعاون اللذين كانا قائمين بينهما من قبل .

وَالواقع ان الشيخ مبارك لو بقي على قيد الحياة لكان للنجاح الذي احرزه جيشه بفك الحصار عن جيش ابن سعود اثراً أعمق ، ولما حدث ما يعكّر

صفو العلاقات بينه وبين ابن سعود ، وذلك لأنه بينما كان جيش الكويت على وشك أن يطأ أرض بلاده ، وصلت الأنباء معلنة نعي الشيخ مبارك ، وان جابراً ابنه الأكبر ، قد خلفه في الحكم على الكويت . لقد حدث ذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٩١٥ ، وبعد سنتين تقريباً ، أي في شباط (فبراير) سنة ١٩١٧ ، توفي الشيخ جابر ، وخلفه أخوه سالم .

ومما يذكر أن سالماً هو الذي قاد جيش الكويت ، والذي وعد قبيلة العجمان بمنحها حق اللجوء الى الكويت سنة ١٩١٥ ، الأمر الذي أغاظ ابن سعود وكان من نتائجه تعكير جو العلاقات بين البلدين الأخوين .

وفي سنة ١٩١٨ خيل الى بريطانيا ان الامدادات كانت تصل الى الاتراك في دمشق عن طريق الكويت ، فبادرت الى ضرب حصار بحري حولها . وبنتيجة ذلك ، ولاعتقاد الشيخ سالم بأن الحصار كان بوحي ابن سعود ، اتسعت شقة الخلاف أكثر فأكثر ما بين الحاكمين حتى انفصمت عرى العلاقات بين البلدين في سنة ١٩٢٠ ، عندما فرض ابن سعود الحصار على التجارة بين مملكته وحكومة الكويت ، موجهاً بذلك ضربة قاضية لاقتصاد الدولة الفتية ، لأن التجارة مع المناطق الداخلية كانت احد العوامل الرئيسية لازدهار الكويت .

وكان حصيلة ذلك ان ظلت الكويت لمدة عشرين سنة تواجه الحصار الذي فرضته عليها السعودية مما يشكل تهديداً صارخاً لاقتصادياتها ، وصحيح ان بعض التجار السعوديين كانوا يقومون بمحاولات لشراء البضائع من الكويت وتهريبها الى الداخل . ولكن هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل بسبب العقوبات الصارمة التي كان ابن سعود ينزلها بأولئك الذين يقبض عليهم بجرم مخالفة إرادته .

ولم يفكّ ذلك الحصار الا سنة ١٩٤٠ إثر مفاوضات طويلة بين شيخ الكويت والمقيم السياسي فيها من جهة ، وابن سعود من جهة اخرى .

ويسعدني أن أذكر أن والدي الكولونيل ديكسون هو الذي مهّد الطريق لاعادة العلاقات الودية بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، ولعب دوراً رئيسياً في تحقيق هذا الهدف خلال السنوات التي كان فيها مقيماً سياسياً في الكويت من سنة ١٩٢٩ حتى سنة ١٩٣٦ . وكان خير معوان له في مهمته هذه صداقته الشخصية لابن سعود ، بحيث أمكنه ان يفعل الشيء الكثير لوضع الترتيبات النهائية لرفع قيود ذلك الحصار .

كذلك أثيرت قضية الحدود بين الكويت ونجد خلال الفترة التي تصدعت فيها العلاقات بين الكويت والسعودية في ظلّ حكم الشيخ سالم . وفي نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ انزلت قوة سعودية الخسائر بالقبائل الكويتية في معركة جرت في حمدة قرب جرية داخل حدود نجد . وفي تشرين الأول (اكتوبر) من السنة نفسها ألحق الكويتيون الهزيمة بقوات نجد التي حاولت التوغّل الى الجهرة .

وفي كانون الثاني (يناير) قام شيخ المحمرّة بارسال ابنه مع الشيخ أحمد الجابر الصباح لزيارة ابن سعود في محاولة للوصول الى عقد اتفاقية للهدنة . وقد قابلا الملك عبد العزيز آل سعود في خفص شمالي مدينة الرياض ، وذلك في الثاني من آذار (مارس) سنة ١٩٣١ . وبعد يومين وصلت الأنباء تحمل نعي الشيخ سالم في الثالث والعشرين من شباط (فبراير) . عندئذ صرّح الملك ابن سعود بأنه ليس هناك من خلاف بينه وبين الكويت ، وألا حاجة لتخطيط حدود رسمية بين الدولتين . ثم دعا الشيخ احمد الجابر الصباح للاسراع بالعودة حالاً الى الكويت لأنه انتخب خلفاً للشيخ سالم ، بعد أن حمّله تمنياته ووعوده لايجاد أطيب العلاقات بين البلدين في المستقبل .

ومع ذلك فقد رؤي بأن من الضرورة الوصول الى اتفاق رسمي ونهائي بالنسبة إلى موضوع الحدود بين الكويت والسعودية . وفي كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٢٢ عقد مؤتمر في عقير بين الملك عبد العزيز والسير بيرسي كوكس



الشيخ سالم الصباح

والمقيم البريطاني في الكويت ممثلاً عن الشيخ . وقد اسفر هذا المؤتمر عن التوقيع على معاهدة عقير ، تلك المعاهدة التي حدّدت مواقع الحدود بين الكويت ونجد ، مع إيجاد منطقة محايدة بين حدود الكويت الجنوبية وحدود الاحساء الشمالية ، وهذه الأخيرة منطقة تابعة لحكم ابن سعود ، وتقع على شاطىء الخليج العربي . وحدود الكويت اليوم ما تزال ثابتة كما حدّدتها تلك المعاهدة .

النفط في الخليج

إذا كان للولايات المتحدة مصالح واسعة في شؤون النفط اليوم في المملكة السعودية، والخليج فان مردّ ذلك يعود الى الجهود الجبارة التي بذلتها، والمباحثات الدبلوماسية المستمرة التي قامت بها، حتى استطاعت المساهمة في تطوير مصادر النفط في الشرق الأوسط.

فمع انحلال الامبراطورية العثمانية السابقة إثر الحرب العالمية الاولى، حصلت الشركات الانكليزية والفرنسية والهولندية على امتيازات للتنقيب عن النفط في الاراضي الواقعة تحت الانتداب من العالم العربي. وكانت بريطانية توّاقة للاحتفاظ بالمناطق التي لم يكن ينازعها أحد فيها على نفوذها قبل نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤.

أما الولايات المتحدة فقد أخذت تعمل على توسيع آفاق مصالحها التجارية الخارجية إثر الحرب العالمية الأولى، ووجهت أنظارها شطر الشرق الأوسط باعتباره المنطقة التي تتوفر فيها الامكانات الواسعة في حقلي التطوير والاستثمار. لكن بريطانيا احتجت بأن الولايات المتحدة لم تشترك في التوقيع على معاهدة فرساي، وبالنظر إلى كونها لم تكن عضواً في عصبة الأمم فلا يحق لها ان تطلب الاسهام في تطوير التجارة في مثل تلك المناطق كالعراق الذي كان يقع تحت الانتداب. وقدَ وجهت الولايات المتحدة في ذلك الحين صارخ احتجاجاتها على مثل هذه السياسة التي اسمتها سياسة الحرمان.

ثم جاءت اتفاقية سان ريمو سنة ١٩٢٠، وبموجبها أعطت بريطانيا لفرنسا حق الاسهام في استغلال زيت العراق. فأثارت هذه الاتفاقية شكوك الاميركيين، وأدّت بهم الى تسليم اللورد كرزون الذي كان وزيراً للخارجية

آنذاك احتجاجاً عنيف اللهجة على السياسة التي تتبعها بريطانيا في العراق . وكانت تلك المذكرة فاتحة لرسائل دبلوماسية كثيرة كان الاميركيون يطلبون فيها عقد جلسة لبحث الامتيازات في العراق ، ويزعمون لأنفسهم الحق في الاسهام بمثل تلك الامتيازات .

وهكذا ظلت وزارة الخارجية الاميركية تمارس سياسة الضغط في سبيل انتزاعها الاعتراف بحقوق متساوية لشركات النفط الاميركية في الأراضي الواقعة تحت الانتداب ، وفي سنة ١٩٢٧ أعطيت الشركات الاميركية سهماً في شركة بترول العراق يعادل ٢٣٫٧٥ بالمائة .

ومن ثم أصدرت وزارة الخارجية الاميركية دعوة مفتوحة للشركات الاميركية بغية أن تشترك في مؤسسة تطوير الشرق الأدنى ، تلك المؤسسة التي تمثل الشراكة الاميركية في شركة نفط العراق . وكانت هناك خمس شركات تشكل تلك المؤسسة الاصلية ، ولكن انسحبت منها ثلاث شركات فيما بعد ، وبقيت شركتا سوكوني فاكوم وستاندرد أويل أوف نيو جرسي .

وكان ذلك أول انتصار أحرزته شركات الزيت الاميركية في الشرق الاوسط بمساندة وزارة الخارجية الاميركية لها . كما كان ذلك بداية دخول الرأسمال الاميركي الى البلدان العربية ، ومنذ ذلك الحين أخذت نسبة المصالح التجارية الاميركية المستثمرة في البلدان العربية ، وخاصة في المملكة العربية السعودية تزداد شيئاً فشيئاً ، حتى غدت اميركا في مركز مماثل للمركز الذي كانت تتمتع به بريطانيا بصفتها الدولة الغربية السائدة تجارياً في منطقة الشرق الاوسط .

كذلك أبدت اميركا اهتمامها بالبحرين اثر الاتفاقية التي تمّ الوصول اليها بشأن العراق . ولكن المعاهدات المبرمة ما بين بريطانيا ودول الخليج ، تلك المعاهدات – التي كانت بريطانيا تدير بموجبها دفة السياسة الخارجية لتلك البلدان ، وتنفرد بمنح الامتيازات – كانت تحول دون

تحقيق أمنية اميركا .

وفي سنة ١٩٢٥ ، حصلت شركة بريطانية تدعى الوكالة الشرقية العامة ، والتي أسسها الميجور فرانك هولمز رائد التنقيب عن النفط في الخليج، على امتياز في البحرين. ومن الواضح ان اميركا كانت تتوق لتثبيت أقدامها في هذه المنطقة ، لكن النفوذ البريطاني كان وطيداً فيها ، ووضعت عراقيل عدة في وجه الشركات الاجنبية التي حاولت تحطيم القيود البريطانية .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢٧ حصلت الشركة الشرقية لنفط الخليج ، وهي شركة اميركية ، من الوكالة الشرقية العامة ، على تعاقدين اختياريين يتعلق أحدهما بامتياز البحرين ، والثاني بامتياز لم يحدد في الكويت . أما العقد الخاص بالبحرين فقد جرى تحويله إلى شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٨ . وما شركة بترول البحرين التي تعمل اليوم وفقاً للامتيازات الممنوحة في هذا البلد سوى تلك الشركة التي اسستها شركتا ستاندر أويل اوف كاليفورنيا وتكساس اويل . وقد قامت الشركتان بغية الحصول على تنازل عن ذلك الامتياز ، بتسجيل الشركة ذاتها كشركة بريطانية خاضعة للقوانين المرعية الاجراء في كندا .

غير أن حصول اميركا على موطىء قدم في البحرين أثار اهتمام الحكومة البريطانية التي لجأت الى وضع العراقيل ، وهدّدت بالغاء عملية الامتياز المتعلقة بالبحرين . بينما ظلت وزارة الخارجية الاميركية تدعم الشركات التجارية الاميركية بكل قواها . وفي آذار سنة ١٩٢٩ طلبت أميركا من الحكومة البريطانية أن تصدر بياناً عن سياستها المتعلقة بالامتيازات في المشيخات الواقعة على الخليج العربي . وفي الوقت نفسه أعلنت وزارة الخارجية البريطانية بكل صراحة بأنها قد تسمح للشركات الاميركية بالمساهمة في مثل تلك الامتيازات ما دامت راضية ومقتنعة ببعض الشروط المتعلقة بكيفية استعمال رؤوس الاموال الاميركية . وهكذا انتهت المباحثات بنجاح بين المسؤولين الاميركان ومكتب الشركة الهندية .

ولما حققت شركة نفط الخليج الشرقيـــة اهدافها في البحرين حوّلت اهتمامها الى الكويت . ومع ذلك فقد كانت بريطانيا مصممـة على الا تفسح المجال امـام اميركا بالحصول على امتيـاز تام في الكويت ، كما حدث في البحرين . وتمسكت بالمبدأ المتعلق بالجنسية كما تنص المعاهدة المبرمة بينها وبين الكويت ، تلك المعاهدة التي تحرّم عـــلى أية شركة – باستثناء الشركات البريطانية – الحصول على امتياز للتنقيب عن النفط . وفي تشرين الثـاني (نوفمبر) سنة ١٩٣١ لفتت شركة نفط الخليج الشرقية نظر وزارة الخارجية الاميركيـة إلى واقـع الموقف الذي تقفـه بريطانيا من موضوع امتيـاز الكويت .

وفي هذه الاثناء شرعت شركة زيت انكلو – ايران التي ظلّت تعرب عن عدم رغبتها في استثمار موارد النفط في الكويت ، تقوم بمباحثات مع شيخ الكويت بغية الحصول على امتياز .

وفي كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣١ طلبت الولايات المتحدة من الحكومة البريطانية أن تُعامل الشركات الاميركية في الكويت على قـدم المساواة مع غيرها من الشركات . غير أن اثر المضاربات التي قامت بها الشركات البريطانية والاميركية على السواء ، أدّى الى التوصل لتسوية حاسمة في الموضوع . وفي الثالث والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٤ منح شيخ الكويت «شركة نفط الكويت » امتيازاً لمدة خمس وسبعـين سنة ، هذه الشركة التي تمثلت فيها شركة زيت انكلو – ايران ، وشركة نفط الخليج للتنقيب عن النفط التي انبثقت عن شركة نفط الخليج الشرقية .

واثر التوقيـع على امتياز الكويت بدأت عمليات الحفر الاولى سنـــة ١٩٣٦ ، وذلـك في البحرة الواقعة على الشاطىء الشمالي لخليج الكويت . ولكن أعمال الحفر هناك اخفقت لانـــه لم يتم العثور على النفط ، فاختارت الشركة بعد ذلك منطقة أخرى لاجراء حفريات قريبة من تلال برقان التي تبعد مسافة سبعـة وعشرين ميلاً الى جنوب الكويت ، وتقع على مســافة

اربعة عشر ميلاً في الداخل . واليوم نرى برقان ذلك المركز الرئيسي لاستخراج النفط في الكويت . ثم تم اكتشاف مائة وتسعة وستين بئراً للزيت في المنطقة نفسها .

كان من المتوقع أن يباشر باستخراج الزيت الكويتي في مستهل عام ١٩٤٠ لولا أن اندلعت نيران الحرب في أوروبا فتأخر استخراجه . ومنذ بداية الحرب توقفت جميع عمليات الحفر وتم اغلاق الابار المكتشفة ، ولم يبقَ من موظفي الشركة في الكويت غير حفنة قليلة تقوم ببعض الاعمال الرتيبة . ولكن ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى عادت الشركة تمارس حمى نشاطها ، وطوّرت برامجها بشكل يمكّنها من الانتاج السريع .

وفي سنة ١٩٤٥ جرى مدّ أول أنبوب للنفط من مركز تجمّع آبار الزيت المنتجة إلى الخزّانات التي تمّ بناؤها في أعلى نقطة من مرتفع الظهر ، بحيث يمكن من هناك نقل الزيت الى المصب لشحنه بوساطة السفن الراسية هناك . وفي حزيران (يونيه) سنة ١٩٤٦ أقيمت حفلة تدشينية رسمية قام خلالها سمو الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت ، بفتح صمام للزيت نقله من خزانات النفط الى أول شاحنة رست في ميناء الاحمدي لتحمله الى العالم .

ومنذ ذلك الحين بدأت عمليات انشاء أكبر ميناء لنقل النفط في الاحمدي تسير بخطى جبّارة ، وكانت بحق من أعظم عمليات التطور التي شهدتها الكويت خلال السنوات القليلة الماضية . وقد تمّ بناء هذا الميناء سنة ١٩٤٩ بحيث يمتد الى مسافة ٤١٠٠ قدم في البحر . وقد جهّز بثماني محطات لتعبئة البواخر بالنفط ، بحيث تستطيع ثماني ناقلات ان ترسو فيه .

هذا وقد بلغت صادرات الكويت من النفط بعد ثماني سنوات من بداية الانتاج حداً كبيراً جعلها تحتل المرتبة الثالثة بين الدول المنتجة للزيت في

العالم الحر ، اذ بلغ انتـاج سنة ١٩٥٢ : ٨٩٥ و ٤٣٢ و ٢٧٣ برميلا . بينما احتلت الولايات المتحدة المرتبة الاولى وفنزويـلا المرتبة الثانية . وتستورد بريطانيا وحدها اليوم حوالي ٥٨ بالمئـة من مجموع الزيت المستخرج من آبار نفط الكويت .

كذلك انشئت محطة لتكرير النفط في الميناء تعمل بطاقة ٣٠ الف برميل في اليوم الواحد ، وتموّن الشركة بما تحتاجه من المحروقـات فضلاً عن احتياجات السوق المحلية ، وتزويد البواخر بالمحروقات .

كان الموظفون الانكليز والاميركان الذين كانوا يعملون في حقل برقـان في بداية أعمال الشركة يعيشون موقتـاً في مساكن اقيمت لهم في المقوع الواقعة في منتصف الطريق مـا بين مدينة الكويت وحقول النفط . ولكن فيما كانت الشركة تنمو وتزدهر بشكل مضطرد ، اتخذت لهـا مكاناً ملائما في الصحراء ، فبنت فيه مكاتبها الدائمة ومدينة لسكنى موظفيها . وهذا الموقع المختـار يقع فوق مرتفعات الضهر الى الشمال من المصفاة . وهنا تم انشاء مدينة حديثة للشركة أطلق عليها اسم مدينة الأحمدي تكريماً للشيخ الراحل أحمد الجـابر الصباح . والجدير بالذكر ان هذه المدينة الحديثة كانت تضم الف موظف ما بين بريطـاني واميركي ، منهم ٣٣٠ شخصاً يعيشون مع اسرهم فضلاً عن المدارس والكنائس وملاعب الرياضة والنوادي ودار للسينما وغير ذلك من المنـافع الضرورية لحياة الموظفين .

ومما تجدر الاشارة اليه بنوع خاص هو ذلك العمل الهـام الذي قامت به الشركة عندما انشأت مدرسة للتدريب في المقوع ، تلك المـدرسة التي جهزت بوسائل تكفي لتدريب اكثر من ١٥٠ كويتياً في كل دورة دراسية للتدريب على مختلف المهن الفنية وشبه الفنية .

ان العقبات التي تحتم على « شركة نفط الكويت » ان تتخطاها في معرض تطويرها موارد النفط قـد جعلت الانجازات التي قامت بهـا في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بالغة الأهمية . فقد اقتضى الواقـع ان تعمل في



الشيخ جابر الاحمد الصباح

بلد غير صناعي ينقصه الرجال المدربون على الاعمال التقنيـــة . حتى ان الكويت كانت آنذاك تفتقر الى بعض المعدات اللازمة ، ووسائل النقـل الثقيلة لنقل المعدات والادوات الى مراكز العمل بعد تفريغهـــا من السفن . أضف الى ذلك قسوة الطبيعة ، اذ كان حر الصيف يضع أمامهـــا ما لا يحصى من العقبات مما يعرقل سير الأعمال في مناخ لا يطــاق ، وجو انعدمت فيه وسائل الترفيه ، بخلاف ما غدت عليه الحال الآن . والحقيقة أنه عندما استطاعت الشركة أن ترفع انتاجها الى سبعة أضعاف ما كان عليه في بداية العمـل أعتبرت بذلك عن حق كمن يصنع التاريخ .

لقد اتسمت مساهمة شركات النفط الاميركية في التنقيب عن النفط وتطوير انتاجه في الكويت عندما منح الشيخ سنة ١٩٤٨ امتيــازاً يغطي نصف حصة البلاد في المنطقة المحايدة لشركة الزيت المستقلة الاميركية . بينما منحت المملكة العربية السعودية امتيازاً مماثلاً يشمل حصتها في المنطقة المحايدة لشركة أميركية ثانية هي « شركة زيت الباسفيك الغربية » . هذا وقد اتفقت الشركتان على أن تقوم « شركة آمن أويل » باعمال التنقيب واستخراج النفط على أساس تبادل المنــافع .

لقدقامت «شركة آمن أويل» بحفر خمس آبار قبل ان تعثر على النفط في البئر السادسة في آذار (مارس) من سنة ١٩٥٣،هذه البئر التي تقع في الوفرة . ومنذ ذلك الحين تابعت الشركة أعمال حفرياتها في منطقة الوفرة حيث تم اكتشاف أربع عشرة بئراً منتجة للزيت لغاية ١٩٥٤ .

وتنقل «شركة آمن اويل » النفط بواسطة أنبوب طوله ميل واحد وقطره ٣٢ بوصة ونصف البوصة ، وذلك من حقل الآبار الى مصبها الجديد في ميناء عبد الله الواقع ضمن حدود الكويت . والجدير بالذكر أن أول شحنة تم نقلها من هذا الميناء الى طوكيو كانت في الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٤ ، ومنذ ذلك الحين كانت تصـــل الى ميناء عبد الله سفينة واحدة في الاسبوع لا تقل حمولتها عن ١٥ ألف طن . وتقوم في الوقت الحاضر « شركة

باسفيك » فضلاً عن « شركة آمن أويل » ، بشحن الزيت من ميناء عبد الله .
ولكن « شركة باسفيك » تعتزم أن تنشىء لها ميناء خاصاً بها تنقل منه نفطها في المنطقة المحايدة .

هذا وتتمتع «شركة امن اويل» بامتياز ثان منحها اياه شيخ الكويت . ففي ايلول سنة ١٩٤٩ منحت «شركة آمن اويل» حقاً مطلقاً في التنقيب عن النفط ، واستغلال واستخراج موارده في جزر كبّر ، وقاروه ، وام المرادم ، الواقعة في مياه الخليج بمواجهة ساحل الكويت والمنطقة المحايدة ، حيث انهت الشركة اعمالها الهندسية المتعلقة باعمال التنقيب عن النفط .

الكويت سنة ١٩٥٦

قبل اختراع وسائل الطيران البعيد المدى كانت الكويت ما تزال تشق الطرق البسيطة التي لا تصلح الا لعابري السبيل أو العربات التي تسير عليها . وكانت القلة من الاجانب فيها تتعاطى بعض الاعمال الادارية أو التبشيرية حتى اكتشف النفط ، وحينئذ شرع بعض اولئك الاجانب يقومون بأعمال التنقيب عن الزيت .

ومع أن الكويت كانت تمتاز بأهمية استراتيجية منذ قدوم الانكليز الى منطقة الخليج ، فقد اكتسبت هذه الدولة الصغيرة شهرة بارزة في السنوات القليلة المنصرمة جعلت اسمها ينتشر في شتى انحاء المعمورة ، كمنطقة من أغنى المناطق المنتجة للبترول في الشرق الاوسط .

هذا ، ويحد دولة الكويت – التي تبلغ مساحتها حوالي ستة آلاف ميل مربع – العراق من الشمال والشمال الغربي . والمملكة العربية السعودية من ناحيتي الجنوب والجنوب الغربي . ومن الشرق الخليج العربي . وتقع الى الجنوب منها منطقة صغيرة اطلق عليها اسم المنطقة المحايدة التي انشئت سنة ١٩٢٢ بموجب معاهدة عقير ما بين بريطانيا وابن سعود وشيخ الكويت ، بحيث يتمتع الكويتيون والسعوديون هناك بحقوق متساوية .

وتقع المدينة البحرية التي تعتبر ميناء الكويت ، والتي تحمل اسم الدولة – اي مدينة الكويت ، في رأس جغرافي يشكل الجانب الجنوبي لجون واسع مأمون . والجدير بالذكر أن الكويت كانت قبل اكتشاف النفط فيها أكبر ميناء بحري في الخليج ، واكثر مدن شبه الجزيرة العربية كثافة بالسكان . ففي سنة ١٩٣٠ كان عدد سكان المدينة حوالي ٦٠ الفاً ، فارتفع الى مئة الف نسمة

قبل بدء انتاج الزيت . وما إن هلّ عام ١٩٤٥ حتى ارتفع هذا الرقم الى ثلاثة أضعافه وذلك نتيجة للتطور السريع الذي طرأ على استخراج النفط ، والى برامج الاشغال العامة الواسعة التي شرعت الحكومة الكويتية تقوم بها .

كان الشعب الذي يعيش في المدينة خليطاً من السكان المحليين وبعض العناصر الاجنبية ، ومعروف ان شعب الكويت مسلم سني ، والسنة كما هو معروف مذهب السواد في شبه الجزيرة العربية . ولكن يعيش في المدينة فئة من الشيعة ، ويؤلف الايرانيون معظم أفراد تلك الفئة التي قضت ردحاً طويلاً من الزمن تعيش في الكويت . ولكن بعض الايرانيين ما يزالون يحافظون على لغتهم ، ويعيشون معاً في مناطق معينة من المدينة ، ولا يتزاوجون عادة مع العرب . ومع ذلك فيعتبرون من رعايا الكويت ، ويخضعون للقوانين المرعية الاجراء فيها . وفضلاً عن هؤلاء الايرانيين المستوطنين في الكويت منذ القدم ، فقد هاجرت إليها فئة كبيرة قدمت من عبدان بحثاً عن العمل نتيجة للتوسّع الدائب في الكويت ، وكثرة فرص العمل الموجودة فيها . كذلك هاجرت الى الكويت فئة من العراقيين ومعظمهم من الشيعة ، وكان هؤلاء يعبرون الحدود باعداد كبيره بحثاً عن الرزق . واذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المهاجرين الى الكويت من ايرانيين وعراقيين ، يضاف إليهم فئة كبيرة من السوريين واللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين ، أدركنا ولا شك ان المهاجرين كانوا السبب الرئيسي في ارتفاع عدد سكان الكويت ما بين سنوات ١٩٤٥ — ١٩٥٣ .

وكذلك وفدت الى الكويت جالية من الهنود والباكستانيين في السنوات القليلة الماضية . وفي الايام الخوالي كان بعض الهنود يعيشون في الكويت ، ولكنهم كانوا قلّة يمتهن معظمها التجارة أو الخياطة أو تنظيف الملابس . لكن وضع الهنود اليوم يختلف عما كان عليه بالأمس . وقد غدا كثير منهم يشتغلون بالأعمال الكتابية والمهن المختلفة ، كما يعمل قسم كبير منهم بشركة

نفط الكويت في مدينة الأحمدي . وفضلاً عن اولئك الأجانب الذين يعيشون في الكويت لا بدّ من الاعتراف بوجود بعض الزنوج الوافدين من افريقيا ، والذين يعود عهد وفودهم الى الكويت منذ زمن طويل أيام كانت تجارة الرق ما تزال منتشرة في الخليج . أما اليوم فقد تحرّر هؤلاء باستثناء قلة ضئيلة ما تزال تعمل كخدم في بيوت بعض الاسر الثرية .

ويحكم الكويت اليوم شيوخ آل الصباح ، هذه الاسرة التي ما يزال أفرادها يحكمون دولة الكويت منذ سنة ١٧١٠ تقريباً [١] . هذا وتعود أصول آل صباح إلى قبيلة عنزة ، وهي نفس القبيلة التي ينحدر منها آل سعود حكام المملكة العربية السعودية . والحاكم الحالي هو سمو الشيخ عبد الله السالم الصباح ، وقد تسلم دفة الحكم في شباط سنة ١٩٥٠ خلفاً لابن عمه الراحل الشيخ أحمد الجابر الصباح . كما أن بعض افراد اسرة الصباح يعاونون الحاكم في ادارة شؤون الدولة .

وتعتبر الكويت بحكم موقعها الجغرافي المرفأ الطبيعي لأراضي نجد ، وبذلك تؤلف مركزاً تجارياً ينعم بالازدهار والتقدم . والكويت ليست مرفأ لتفريغ وتخزين وشحن البضائع التي تصل اليها من البلدان الاجنبية برسم اعادة شحنها الى المدن الداخلية في شرقي شبه الجزيرة العربية فحسب ، بل انها تزوّد البدو الساكنين في الصحراء بمختلف البضائع التي ينتجها أصحاب المهن الحرّة فيها .

والكويتيون يعتمدون على الاسواق الخارجية للحصول على المواد الغذائية ،

---

١) كان اول الاعمال التي قامت بها الحكومة الكويتية بعد الغاء معاهدة سنة ١٨٩٩ ، انها دعت المواطنين الى انتخابات نيابية عامة انبثق عنها مجلس تأسيسي وضع للبلاد دستوراً يعد من ارقى الدساتير العربية واكثرها ضماناً للحريات الديمقراطية وتأميناً للعدل الاجتماعي ، وقد تحولت البلاد بموجبه الى امارة دستورية يعين الدستور فيها جميع الحقوق والواجبات وينظم العلاقات بين الحاكمين والمواطنين — المترجم .

فهم يستوردون التمور من العراق ، والارز والقمح والسكر من ايران والهند والشرق الاقصى. وتكاد انتكون المواد الغذائية الوحيدةالتي تنتج محلياً محصورة في لحوم الغنم والسمك . أما المادة الرئيسية التي تصدّر منها الكويت كميات هائلة فهي النفط فضلاً عن كميات ضئيلة من الجلود والصوف واللؤلؤ .

وبالرغم عن ضيق رقعة الكويت فان الحكام قد أخذوا في الآونة الأخيرة يقدرون أهمية دولتهم ، والمركز الحساس الذي تحتله في العالم العربي . كما أخذ الحكام يتحسسون هذه الأهمية منذ أن أخذت عائدات النفط تتدفق الى خزينتهم بعد سنة ١٩٤٥ . ومن نافل القول ان الكويت بدأت منذ ذلك الحين تسجل تقدماً ملحوظاً في المجالات التربوية والصحيـة ، فقد انتشرت فيها المدارس والمستشفيات درجاً في سبيل تنظيم الخدمات الاجتماعية الحديثة ، واخذاً بأسباب النهضة في معالم الحياة العامة . وتبلغ عائدات الكويت من النفط اليوم حوالي ٦٠ مليون جنيه استرليني في السنـة يجهد الشيخ عبد الله السالم أن يستعمل معظمها في إعادة بناء الدولة على أسس حديثة من التنظيم ، مما يجعل مشاريع تلك الدولة من أبرز المشاريع التقدميـة البناءة التي نهضت بأعبائها اية دولة في العالم في السنوات القليلة الماضية . وتقدر نفقات تلك المشاريع للسنوات العشر الأولى بحوالي ١٠٠ مليون جنيه استرليني .

ويلاحظ ان الحاكم سمو الشيخ عبد الله السالم هو الذي يولي عنايتـه بحماسة بالغة لتنفيذ كافة تلك المشاريع التطويرية حرصاً منـه على أن يتمتع جميـع السكان بفائدة عائدات النفط . كما ان الحاكم حريص على أن ينفذ جميع المشاريع التي يتوسم فيها الخير والمنفعة العامـة للبلاد . ولذا نراه يستدعي الخبراء والمستشارين لوضع المخططات الجبـارة لبناء دولته الجديدة . هذا وتقوم الآن الشركات الاجنبيه والعربية بالعمل جنباً الى جنب مع الشركات الكويتية لتنفيذ برنامج البناء والانشاء .

وقبل خمس عشرة سنة مضت لم تكن هناك مدارس اذا استثنينـا تلك الكتاتيب التي يتلقن فيها الصبيان مبادىء القرآن الكريم. ولم تكن هناك مدارس

للبنات البتة . ولكن منذ ذلك الحين سجّلت الكويت تقدماً ملحوظاً في مجال التربية والثقافة ، وفي السنة الدراسية لعـــام ١٩٥١ – ١٩٥٢ كانت مدارس الكويت تضم اكثر من ١٠,٨٧٣ طالباً وطالبة يتلقون علومهم في شتى المعارف في برامج اخذت عن المناهج التعليمية الحديثة . ويتنـــاول طلاب وطالبات المدارس مجاناً وجبات الطعام ، والالبسة ، والادوات المدرسية ، كما يتطببون مجاناً ، بالاضافة الى ان التدريس مجاني في جميع مراحله [١].

ومنذ فكرت حكومة الكويت بانشاء المدارس الحديثة اتجهت شطر مصر تطلب منها ان تمدها بجهاز من المعلمين ، مما أدخل الطمـأنينة إلى نفوس اولياء الطلاب الى أن اولادهم لن يتعرضوا لتسرّب أية مبادىء تتغـاير وروح الدين ، وتقاليد الأمة العربية وتاريخها .

واليوم يرى زائر الكويت اينما جال ببصره ، المـدارس الحديثة التي تشاد هنا وهناك لمختلف مراحل التعليم ، تلك المدارس التي وضع تصاميمها مهندسون اكفاء ايفاء للأغراض التي ستنشأ من اجلها وملائمتها مع مناخ البلاد . وفي منطقة الشويخ وحدهـا يستطيع الانسان أن يشهد مجموعة من المدارس الجديدة أقيمت هناك ، وأهمها ثانوية الشويـخ التي تضم فيما تضمه مسجداً خاصاً بها ومساكن المعلمين والطلبة . والحقيقة التي لا مراء فيها ان ثانوية الشويخ تعتبر مدينة ثقافية بحد ذاتها . وفي مكان آخر من الشويخ يجري بناء كلية صناعية جديدة يؤمل أن تجذب الطلاب من المناطق العربية المجاورة للكويت بحيث تصبح مركزاً للتعليم الثانوي والفني في الشرق الاوسط .

هذا من جهة المدارس ، أما المستشفيات فقد تمّ بنـــاء أربعة مستشفيات كبيرة منذ سنة ١٩٤٧ ، اثنان للصحة العامة ، واثنان لداء السلّ . وتضم هذه

---

١) لا حاجة الى القول ان عدد المدارس والمعاهد قد زاد خلال السنوات الاخيرة كثيراً عما كان عليه يوم وضعت المؤلفة كتابها ، وقد ادهشت الكويت بنهضتهـا الطبية الواثبة جميع الزائرين – المترجم .

المستشفيات جهازاً رفيعاً من الاطباء والاختصاصيين والممرضات والمرضين. فهناك ستة اطباء انكليز ومناظرة يعملون في وزارة الصحة العامة، بالاضافة الى العديد من الاطباء العرب: مصريين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين.

ان السمعة العاطرة التي اشتهرت بها مستشفيات الكويت من حيث مستوى الطبابة والعناية الفائقة بالمرضى، وتقديم المعالجة المجانية لكل من هو في حاجة إليها، جعل الكثيرين من غير سكان الكويت يقصدون هذه المستشفيات بغية المعالجة. واليوم نجد الكثيرين من سكان الاراضي الايرانية الجنوبية وسكان الاراضي السعودية القريبة من حدود الكويت يقصدون تلك المستشفيات كذلك للمعالجة [1].

بيد ان أعظم مشروع تم انشاؤه في الكويت، والذي ينعم جميع السكان بعميم فوائده هو معمل تكرير مياه الشرب الذي كان له الفضل الاكبر في حل مشكلة الكويت الكبرى، ألا وهي ايجاد كميات كافية من مياه الشرب لسد حاجات السكان. ويكرّر هذا المعمل حوالي مليون غالون في اليوم، ويتوقع أن يضاعف انتاجه في وقت قريب جداً. وهناك بعض المشاريع الأخرى الهامة وأعني بها محطات توليد الطاقة الكهربائية. فضلاً عن شق الطرق والشوارع الحديثة وهدم جميع البيوت القديمة لتشاد مكانها بيوت جديدة حديثة.

والجدير بالذكر أن مجلس الإعمار والانشاء الكويتي لم ينس ان يعد للمستقبل عدّته، اذا ما نضبت ينابيع النفط يوماً ما، او حلت الطاقة الذرية محل النفط، لذا فقد وضعت الخطط اللازمة لبناء منطقة صناعية في ضواحي مدينة الكويت ليشاد عليها بعض المؤسسات للصناعة الخفيفة التي قد تساعد على توفير العمل للسكان.

---

١) انشئت في الكويت منذ سنة ١٩٥٦ عدة مستشفيات حكومية جديدة كان آخرها مستشفى الصباح الذي يعد اكبر وارقى مستشفى في الشرق الاوسط، وتولي الحكومة اهتماماً خاصاً للعناية بصحة المواطنين، مستعينة بالخبراء والاختصاصيين من جميع البلاد العربية. — المترجم

كذلك يدخل ضمن الانجازات الرائعة التي حققتها دولة الكويت انشاء جيش قوي، وقوة للشرطة جهزت بأحدث الآلات العلمية التي تساعدها بمهامها .

هذه بعض النواحي التي شملها التطور القائم على قدم وساق في الكويت ، وما هي الا حلقة في سلسلة مشاريع هامة ومفيدة لازدهار الدولة ومنفعة السكان جميعاً دون استثناء .

في سنة ١٩٢٩ عندما اصيبت تجارة الكويت مع المناطق الداخلية بنكسة نتيجة للحصار الذي فرضه ابن سعود عُيّن والدي في منصب المقيم السياسي البريطاني في الكويت .

في تلك الأيام كان عدد الاجانب في الكويت لا يزيد على احد عشر شخصاً يضاف اليهم المقيم السياسي وطبيب المقيم وأفراد اسرتيهما وعدد ضئيل من المبشرين الاميركيين .

يومذاك كان سكان الكويت العرب لا يعرفون شيئاً عن العادات الغربية ، وكانوا سعداء قانعين بواقعهم دون ان تكدّره الافكار المستوردة من الغرب . وكانت الحياة تسير على نفس الطراز والنمط السائدين منذ القدم . وكان بناءو السفن يبنون سفنهم بشكل مماثل لسفن الفينيقيين التي كانت تمخر مياه الخليج منذ الفي سنة خلت . وكانوا يبحرون بسفنهم للتجارة مع افريقيا والهند ليعودوا بها الى الكويت محمّلة بالمواد الغذائية والخشب والاقمشة لبيعها في السوق المحلية . كما كان البدو يفدون الى المدينة حيث يستريحون ويبيعون مواشيهم وأصوافهم ، ثم ليشتروا بأثمانها المواد الغذائية والرز والتمور والقهوة والشاي وغيرها من الحاجيات الضرورية ثم يعودون الى خيامهم .

●

تلك كانت الكويت التي عرفتها وخبرت الحياة فيها ايام الطفولة : أرض الضيافة والكرم والراحة حيث كانت تمر الايام دون ان يحسب لها ادنى حساب . وعرفت في طفولتي كذلك شعب الكويت ، الشعب العربي الأصيل ، الشعب المضياف الكريم الذي تسري في عروقه حرارة الكرم والضيافة

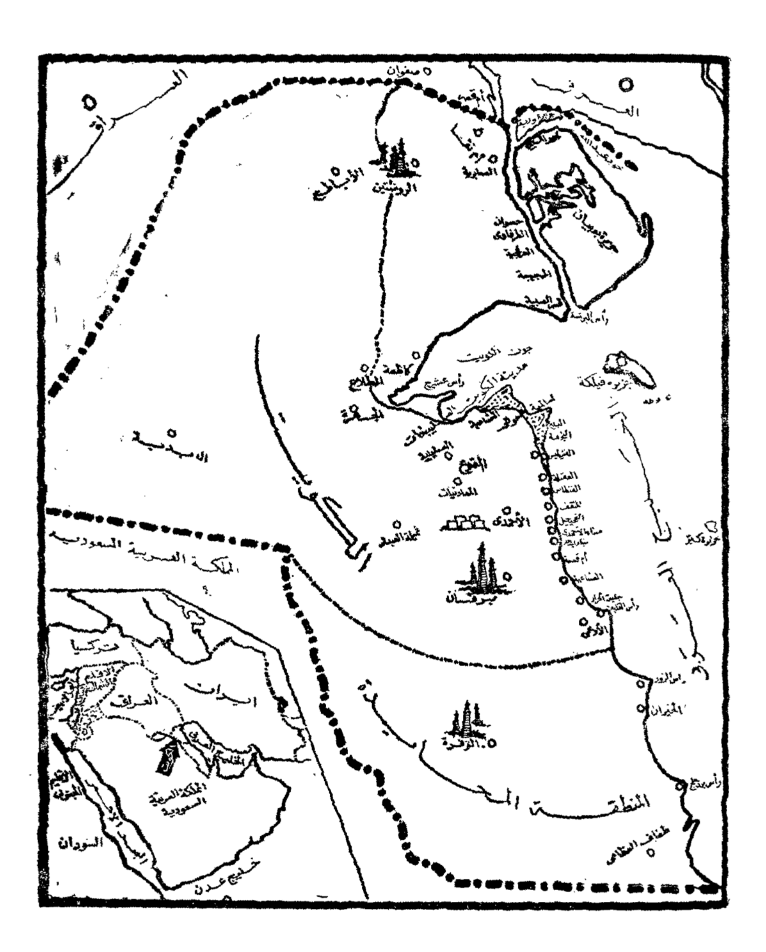
والتواضع الطبيعي الذي يضفي على التقاليد العربية كل جمال .

غير ان ذلك كان قبل ان يكتشف النفط في الكويت ليثير اهتمام الغرب ، ذلك الاهتمام الذي نقل معه الى هذا البلد حشوداً هائلة من اصحاب الصناعات الحديثة .

وهكذا وجدت نفسي وجهاً لوجه امام التغيير الهائل في الكويت عندما عدت اليها سنة ١٩٤٦ إثر غياب استغرق عشر سنوات غدت خلالها شركة نفط الكويت عنصراً حيوياً هاماً في تكييف حياة البلاد الاقتصادية . في ذلك الحين لم تكن ثمة مشاريع جبارة في تلك المدينة العربية الهادئة ، لأنه لم يكن قد مضى بعد على استخراج النفط سوى بضعة أشهر . وكل ما لحظته يومئذ من آثار التطور يكاد ينحصر في برجين للاسلكي ، وطريق واحدة معبدة حسب الطراز الغربي .

ولكنني اكتشفت فيما بعد تبدلاً وان لم يكن ملحوظاً ، يطغى على كل ما عداه من التغيير من حيث الأهمية ، وأعني بذلك التغيير الذي طرأ على تفكير الكويتيين ، وقد لاحظت ذلك من خلال احاديثي معهم . وغدا اهتمامهم اوسع مدى وأرحب افقاً ، كما غدت معرفتهم بالشؤون العامة أبعد بكثير من محيط بلدهم الصغير ، إذ أثارت الحرب في أوروبا والشرق الاقصى اهتمام المثقفين منهم ، حتى غدوا يعنون بالسياسة الخارجية والاقتصاد والنفط وأهميته بالنسبة الى الدول العظمى ، وكان من الواضح الجليّ لهم أن النفط المكتشف في بلادهم قد أضفى على دولتهم أهمية كبرى في محور سياسة الشرق الأوسط ، وفي النطاق العالمي من حيث انتاج النفط وتصريفه .

وكان الناس يشعرون بأن ثمة مفاجآت ستطرأ بعد اكتشاف النفط ، مفاجآت توحي للتجار ورجال الأعمال بأن بلادهم تقف على عتبة حقبة تبشر بالخير والازدهار ، وعميم المنافع العظيمة ، واذا بالشباب الذين كانوا الى أيام قليلة خلت يعصرون ثمرة جهودهم وعافيتهم وهم يغوصون على اللآلىء لضمان معيشتهم ومعيشة أسرهم ، أصبح بوسعهم أن يحصلوا على عمل ما في شركة


العراق
صفوان
الروضتين
بوبيان
جون الكويت
مدينة الكويت
رأس عشيرج
جزيرة فيلكة
الجهرة
المطلاع
الشويخ
الأحمدي
برقان
الوفرة
المنطقة المحايدة
جزيرة كبر
الخيران
رأس الزور
المملكة العربية السعودية
تركيا
ايران
العراق
الكويت
المملكة العربية السعودية
السودان
خليج عدن

النفط بأجور محترمة .

والواقع كانت سنة ١٩٤٦ سنة التنبؤ بالتغييرات الجمة التي ستحدث، ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا إن تلك السنة كانت آخر سنة يرى الاجنبي من خلالها ماضي الكويت ، لأنه منذ ذلك الحين أخذ التغيير يتناول كل شيء ، والى حد لا يمكن تصديقه ، اذ كانت تزال معالم وآثار البيوت والشوارع والاحياء بين عشية وضحاها، ولا يمكن للمرء بعدها ان يرى المعالم القديمة اذ تشيد فوقها البيوت الحديثة او تشق الطرقات والشوارع المعبدة . وبعد سبع سنوات من التعمير والانشاء زالت معالم وآثار جميع تلك المناظر التي كانت تستهوي الأجانب ، وشيدت مكانها مدينة الكويت الحديثة .

كذلك قام العمل على قدم وساق في بناء العديد من البيوت الحديثة في ضواحي المدينة . تلك البيوت المخصصة للموظفين الذين يعملون في دائرة الانشاءات ، وأصبحت البيوت التي شيدت في الأراضي الصحراوية الخاوية حول المدينة مرتبطة بالبيوت التي بناها الكويتيون في المدينة نفسها .

لقد كانت مظاهر مدنية الكويت في السنوات التي سبقت سنة ١٩٤٦ أشبه ما تكون بمظاهر مدنية القرون الوسطى شكلاً ونمطاً . وكانت جميع مظاهر المدينة سواء ذلك فيما يتعلق بطراز البيوت أو ألبسة السكان أو الأسواق وأحواض السفن تصبغ المدينة بصبغة عربية أصيلة تضفي عليها هالة من الروعة والاثارة . أما اليوم فقد تبدلت جميع هذه المظاهر وأصبحت تصطبغ بالطابع العالمي بعد ادخال اساليب البناء الاوروبية ، واقدام العمال العرب على تبديل ثيابهم التقليدية ، وأهمها الدشداشة ، بثياب اوروبية . كما أخذت المخازن الحديثة بواجهاتها الزجاجية الانيقة تزين الشوارع وتحل محل الدكاكين القديمة .

ولكن بالرغم من جميع التغييرات التي شقت طريقها في الكويت لا يزال الانسان يرى هناك بعض ملامح الحياة القديمة تسير جنباً الى جنب مع الحياة الجديدة المستحدثة. ولا يستبعد ان يرى الانسان في زوايا بعض الشوارع القريبة

من الشاطىء بعـــض صانعي السفن والاشرعة يجلسون القرفصاء حول شراع مثلث الشكل يجهزونه لليوم الذي يحين فيه السفر الى الهند أو الى أبعد من ذلك. كما يلاحظ الانسان عمال النجـــارة وهم يعملون قرب الشاطىء في قطع بعض الألواح الخشبية الكبيرة . ويلاحـــظ المرء كذلك أولئك النسوة عائدات من السوق وهن يحملن على رؤوسهن السلال المثقلة بالخضار والفاكهة ، أو يرى بعض النسوة جالسات في ناحية من الشارع يبعن الفستق او بذر البطيخ المملّح .

ومن معالم الكويت القديمة التي شملها الهدم سور الكويت القديم الذي كان يحيط بالمدينة من جميع جهاتها . لقد بنى ذلك السور سنة ١٩١٩ عندما قامت ثورة الاخوان الوهابيين في قلب الجزيرة العربية فشعرت الكويت بمـــا يهدد سلامتها من جراء تلك الثورة . والمدهش هو ان جميع سكان الكويت يومئذ ، الاثرياء منهم والفقراء ، قد ساهموا في بناء ذلك السور حتى انتهوا من بنائه في غضون ثلاثة أشهر فقط ، رغم حر الصيف وشمسه المحرقة . وكان للسور أربع بوابات يقوم بحراسة كل منها حارس خـــاص من حرس الامير ، فاذا ما جن الليل أغلقت منهـــا ثلاث بوابات وبقيت بوابة واحدة مفتوحة للداخلين والخــارجين .

وكان موقع بيتنا بالقرب من بوابة تدعى بوابـة البريعصي ، فكنا غالباً ما نخرج منها اذا ما أردنا التنزّه خـــارج المدينة القديمة . وقد توطّدت يومئذ أواصر الصداقة بيننا نحن معشر الصغار وبين حارس البوابة الحـــاج عبد الله . فكان اذا ما خرجنا من البوابة بادر الى تحيتنا ببشاشة وسرور وهو يقول : « السلام عليكم » ثم يعرض علينـــا ان نشرب عنده القهوة . وكثيرون من الانكليز الذين ما زالوا يعيشون في الكويت الى اليوم يذكرون ولا شك الحفاوة والترحاب اللذين كان الحاج عبدالله يقابلنا بهما ، ونحن على وشك الخروج من تلك البوابة ، حيث كان يقف باسمـــاً وهو يحمل بيده ابريق القهوة ليقدم لنا منه بعضها .

وكان الحـــاج عبدالله يعيش في بيت قديم بالقرب من تلك البوابة ، ذلك

البيت الذي شمله الهدم لتنفيذ مشاريع الانشاء والتطوير. غير ان الدولة عوضت عليه بمبلغ محترم من المـــال - كما عوضت بمثل ذلك على جميع الذين هدمت بيوتهم - فصرف قسماً من هذا المـــال في تشييد بيت واسع حديث يعيش به الآن في بحر من البحبوحة والرخاء وسعة العيش .

وكان المرء في تلك الأيام يرى بالقرب من بوابة البريعصي فسحة واسعة من الأرض كان الاولاد الكويتيون ينصبون فيهـا شراكهم لصيد الصقور التي تمر في أجواء الكويت ، وهم يحاولون اغواءها لحملها على الهبوط الى الأرض ملوّحين لها ببعض الطيور الحيّةالتي يحتفظون بها داخل الاقفاص. ولكن شبان الكويت اليوم قد تخلوا عن هذه الرياضة الشيقة ، وباتوا يقومون ببعض الالعاب الرياضية الحديثة . كما ان اولئك الفتيـــة الذين علموني فيما مضى كيف أنصب شركاً لاقتناص الصقور ، باتوا يمارسون لعبة كرة القدم على نفس الصعيد الذي كان آباؤهم ينصبون فيه مثل تلك الشراك في الماضي . والأرض التي كانت أشبه مـا تكون بساحة فوق الصخور الرملية قد تحولت اليوم الى شارع حديث واسع تمر من فوقه ارتال السيارات باطراد لا ينقطع سيله .

وقبـل ان يمهد الشارع العـام الذي يصـل ما بين رصيف المينـــاء التابع لدائرة الجمارك وساحة السوق العام ، كان يتوجب على العربات ان تسير على طريق حادة فوق تلة مرتفعة قبل ان تصل الى السوق الضيق . في الايام الخوالي كانت جميع البضائع الواردة إلى الكويت تفرغ من السفن الى رصيف الجمرك وتنقل من هنـــاك بوساطة عربات اليد أو الخيل او الحمالين الذين يحملون الصناديق الى السوق مـارين بتلك الطريق الضيقة قبل وصولهم الى الســوق . وكان يبدو في تلك الأيام ان الايرانيين يحتكرون عمليات نقل البضـــائع من ساحة الجمرك الى السوق . أمـا اليوم فان مثل تلك البضائع يجري تفريغها من السفن على رصيف المينـــاء الجديد الذي انشيء في الشويخ بوساطة رافعات آلية ، ثم يجري نقلهـــا إلى المخازن والمستودعات بالسيارات والشاحنات الميكانيكية .

اما وقد تطورت الحياة في الكويت اليوم هـذا التطور فان الزائر يلاحظ اشتات البضائع الاوروبية معروضة للبيع في واجهات مخازن حديثة ومنسقة . واذا ما وصل الزائر الى سوق الصاغة وجد كيف يقوم الصاغة بأعمالهم بكل دقة واتقان . كذلك فانه يشاهد تجار اللؤلؤ وهم يصقلون اللآليء التي استخرجها الكويتيون من قاع الخليج وفقاً للشكل والحجم اللذين يرغب بها المشتري .

والمدهش حقاً ان سوق اصحاب المهن في الكويت كان يشبه دكاكين أصحاب الحرف الغربيين في القرون الوسطى . وهنا ايضاً، كما في اوروبا القرون الوسطى، يرى الزائر السوق مقسمة الى مناطق تقع في احداها مخازن وورش عمال الجلود الذين يصنعون الاحزمة للخرطوش والاقنعة للصقور والصنادل للأرجل . بينما يرى في ناحية اخرى ورش السمكرية ، وفي الناحية الثالثة دكاكين الصاغة . ثم يصل منها الى سوق السجاد حيث يرى جميع اصناف السجـاد الايراني معروضة على رصيف الشارع لاغراء الزبائن .

وعلى مسافة قصيرة من الشوارع الواسعة التي انشئت حديثاً في الكويت ، كان يقع سوق او بالأحرى « بازار » البدو حيث تمتلىء المخـازن والدكاكين بأصناف البضائع التي تروق لرجـل الصحراء . وفي هذه الدكاكين كان البدوي يجد الكوفيات والدشداشات ، كما انه يجد فيها الخيام وغير ذلك .

ولكن سوق واجف كان يعتبر بحق اكثر الاسواق لذة ومتعـة للمشاهدة والفرجة . ولم يكن البيع يجري في هذه السوق في الدكاكين أو المخـازن ، بل على سلسلة طويلة من الارصفة عرضت فوقهـا مختلف الادوات والبضائع الرخيصة . حيث كان الفقير يجد كل ما يحتاج اليه من اغراض والعاب وهدايا لأطفاله .

اصدقاء كويتيون

في ذات يوم من أيام سنة ١٩٤٦ رأينا ان نتناول طعام الافطـار في شرفة بيتنا الأمامية ، فوضعنا المائدة هناك في الظل . وكان ذلك في اليوم التالي لعودتي الى منزل اهلي في الكويت ، وكان هـادئاً لا تعكر صفوه وانصقال صفحة البحر فيه نسمة واحدة من الرياح . وكانت حرارة الشمس شديدة جداً مع ان الوقت لم يتجاوز الساعة السادسة صباحاً .

وخرجت الى الشرفة حيث وقفت اتأمل في المناظر المنبسطة امامي ، تلك المناظر التي لم يطرأ عليها اي تغيير منذ أيام طفولتي . كان البحر جزْراً والسفن الخشبية والزوارق عالقه بالرمال قرب الشاطىء .

اخذت اميّز انواع تلك السفن والزوارق كما تعلمتها منذ أن كنت طفلة ، فرأيت هنا وهناك سفناً كبيرة تستعمل لشحن البضائع وزواق صغيرة تستعمل لصيد الاسماك والغوص على اللؤلؤ .

في هذه الاثناء كان الصدى يردد صوت المطارق التي كان عمـال احواض بناء السفن يستخدمونهـا في الاحواض القريبه من الشاطىء . بينما كان بعض العمال والبحارة يتفحصون هياكل السفن العالقة بالرمـال فيعملون في قلفطتها وتصليحها بعد ان رأوا في الجزْر فرصة مناسبة لذلك . كما كان آخرون يعملون في بناء زورق أو سفينة جديدة بعيداً عن حدود المد والجزر من الشاطىء .

والجدير بالذكر أن انغام المطارق كانت تبلغ آذاننا طوال فصل الخريف ، لا سيا وانه الفصل المناسب الذي يقوم خلاله البحارة باخراج سفنهم أو زوارقهم الى الشاطىء لتصليحها وتجهيزها قبل ان يحل فصل الشتاء وتحين مواسم السفر .

وبعد لحظات أثار اهتمامي مشهد عدد من الحمير البيض وقفت تنهق وتضرب

الأرض بحوافرها . وقد وضعت على ظهورها اوعية يتم نقل الماء بها الى البيوت . كان ذلك قبل ان يبنى معمل تكرير المياه ، وعندما كان ماء الشرب المحمول من العراق فيحفظ ليصار الى توزيعه بعد ذلك على السكان . فكنت أرى الفينة بعد الفينة حماراً يخرج من ساحة صغيرة فيها خزان للمياه وهو يحمل على ظهره بعض الأوعية المليئة بالماء. ثم يسير في طريقه حسبما يوجهه صاحبه. وكان يرافق كل ذلك رنين اجراس لا تنقطع دندنتهـا أبداً ، لأن كل حمار من تلك الحمير كان يحمل في عنقه بعض الأجراس. وبعد لحظات قليلة تعود بعض الحمير ليذهب غيرها بعد ان يملأ صاحبها الأوعية المشدودة الى ظهورها من المـاء ... وهكذا دواليك كنت أرى الحمير تروح وتجيء وكأنهـا تمثل امامي الحركة الدائمة . ولكن الذى أثار دهشتي ان بعض الحمير كانت ظهورها مزينة بنقوش برتقالية اللون بالاضافة الى الاجراس التي كانت معلقة في رقابها . فأسررت يومئذ في نفسي : ترى ، هل يكون ذلك أثراً من آثار تعبير أصحاب الحمير عن العطف والحنان نحو حيواناتهم التي يملكونها ؟ ولكن مضت أيام قبل أن أعرف إن مردّ صبغ ظهور الحمير بالحناء اغراء للأولاد لركوبها في العيد .

وبعد بضعة أيام من عودتي الى الكويت شهدت العديد من الزوار يؤمون بيتنا لتحيتي والترحيب بي تمشياً والعادة المتبعة كلما عـاد صديق من رحلة طويلة قضاها في الخارج . وكان اصدقاؤنا يصلون الى البيت تباعـاً لتقديم تهانيهم وهم يردّدون التحية التقليدية : « الحمد لله على وصولك بالسلامة » ، وكان الذين عرفوني طفلة يحيونني فأرد لهم التحية ، بينما كنت أراعي قواعد الاستقبـال اثناء قدوم الآخرين ، فأظل جالسة في احدى زوايا البيت صامتة مراعاة مني للتقاليد التي تحرم على الفتاة أن تجالس الرجال الغرباء .

وكم كنت أشعر بالدهشة لتمكني من الاصغـاء ومراقبة الزوار بصمت ، بعد ان عرفت بأن عدم الاختلاط لا يعني مطلقاً سوء تصرف مني . وقد كان أول من جاء للسلام عليّ أفراد الاسر الغنية وطبقة التجـار . وكانوا يرتدون اللباس الشرقي الفاخر ويداعبون بأناملهم حبّات السبحات ، فيما كانوا يتحدثون

مع والدي . ولا بد للنـاظر الى هؤلاء من ان يشعر بالدهشة من مرأى البستهم الناصعة البياض ، والمصنوعة من الحرير المزركش الناعم ، وقد حلّوها بشرائط ملونة ، وزينوا أكمامها بمرصّعـــات ذهبية . وكم كانوا يتلهفون لسماع انباء العالم الخارجي ، فكانوا يوجهون لوالدي اشتات الاسئلة التي تدور حول الشؤون الجارية في اوروبا واميركا ، والعلاقات القـائمة بين بريطانيا واميركا والدول العربيـة .

ثم بدأت طلائع رجال الصحراء تفد الى بيتنـــا ، البدو أصدقاء والدي ، وما كان اكثرهم . ولكن اهتمام هؤلاء بشؤون العالم كان أضيق نطاقاً . فكانوا يسألون والدي عما اذا كانت السماء قد أمطرت في بريطانيا . وما اذا كانت هناك مراع خصبة للمواشي ، لان تلك الامور كانت أهم مـــا يود البدو معرفته من شؤون الدنيا . وكنت ارى والدي يرد على تلك الاسئلة بلطف وبشاشة ، وينقل اليهم بكل صدق أن المطر في بريطانيـــا ظل يهطل طوال شهري تموز وآب ، وان الحقول كانت يانعـــة الزهور تموج بالأعشاب . وكانت مثل تلك الأخبار مثيرة فعلاً لأولئك الذين لا يرون السماء تمطر الا مرة واحـــدة فقط في الحول الواحـد ان لم يكن في الحولين . فكان بعضهم يعلق على كلام والدي بقوله : « حقاً ان الله لعظيم في ملكه ، وان بريطانيا لمحظوظة ... ولا شك في ان المواشي سمينة في انكلترا وشعبها ينعم بالبحبوحة والرخاء » .

ان رجل البداوة الأصيل لا يعرف من البلدان الا بـلده ، ولا حياة سوى تلك الحياة التي يقضيها في الصحراء يتجول فيها متنقلاً وهو ينشد الماء والكلأ . ولذلك فانه يحكم على كافة الظروف وفقاً لاختباراته المحدودة . وقد يكون من المعقم بمكان ان يشرح له والدي كيف ان الحيـاة في انكلترا تنهض على اسس وقواعد هي أبعد بكثير من أن تكون محصورة في توفر ميـاه المطر والكلأ . ومن نافل القول ان فكرة الحضارة الصناعية الحديثة هي أبعـد ما تكون عن مداركه الفكرية .

في صبيحة اليوم التالي حضر الى دارنا احد افراد قبيلة بني مرّة ، تلك القبيلة

التي تعتبر من أكثر القبـــائل خشونة وتستوطن اقصى الجنوب . وكان شكله يعكس صورة ارستقراطية الصحراء بأجلى مظاهرها، فهو يختال في مشيته ويخطر بعزة شبيهة كل الشبه بعزة الامراء ، ولكنه عندما دعي الى الجلوس في الصالون الذي كان من طراز الصالونات في انكلترا ، بدا عليه التململ والانزعـــاج ، كما اتضح بأن حضوري في الصالون زاد من حدّة انزعاجه وتبرّمه ، ذلك لان تقاليد قبيلته كانت تحظر على النساء مجالسة الرجـــال وتفرض عليهن الانزواء في غرفهن .

وكان ذلك البدوي واحداً من أولئك الذين كانوا لا يعرفون شيئـــاً عن عجائب العالم الخارجي . ومع ذلك فقد عزم والدي ، بعد ان غمزني بطرف عينه ان يقصّ عليه اشياء بعيدة كل البعد عن محيط الصحراء وحيـاة الريف . فحدثه عن القطـار الحديدي الذي يجري تحت الارض في لندن ، بينما جلس البدوي يصغي اليه وقد حملق بعينيه كأنه يحـاول ان يستوعب الفكرة الكامنة وراء مـــا كان والدي يحدثه به . وكان بين اللحظة والاخرى يعلـّق بشيء أو بآخر على حديث والدي ويدمدم بعجب مقرون بالدهشة .

واخيراً قال لوالدي :

— ولكن كيف يفعلون كل ذلك ؟ وكيف تستطيع العربات المليئة بالبشر ان تسير تحت الأرض ؟

فرمقه والدي لحظات ، وهو يبحث عن تعابير يستطيع بواسطتها ان يجسّم له من المعارف ما لا يدرك عنه شيئاً سواء في ذلك علم الميكانيك أو فن الهندسة، ثم أجابه مرسلاً القول على سبيل التشبيه :

— ان تلك القطارات تشبه يربوع الصحراء. فكما يحفر نافقاءُ اليربوع بمخالبه في الأرض ثم يركض إلى أمام والى خلف عبر النفق الذي شقه لنفسه كذلك هي الحال بالنسبة الى تلك القطارات .

وقد سر الاعرابي كثيراً من هذه الايضاحات ، لانه كان يفهم مثـــل تلك الكلمات ، وهو الذي لا يعرف سوى ما يتعلق بالمخلوقـات التي تعيش في

الصحراء والسبل التي تسلكها وتتبعها في حياتها .

وكثيراً ما كان والدي يتحدث عن شركة النفط في معرض احاديثه مع رجال البدو الذين كانوا يزورونه ، ففي تلك الايام كان بعض رجال البدو يخامرهم الشك من نيّات الشركة بينما كان البعض الآخر ينظر اليها كدعامة للخير والازدهار . ومهما يكن الأمر فقد كان الجميع يشعرون بالدهشة ، كيف تكون هذه الصحراء التي سار عليها آباؤهم واجدادهم مئات السنين معيناً ثراً من الثروة الطبيعية يدفع الاجانب ثمناً لها مبالغ تكاد تكون خيالية . وقال واحد من أولئك البدو ببساطته المعهودة : لو كان البدو يعرفون بأن الزيت كان في جوف الارض التي تطأ عليها أقدامهم لعملوا في سبيل استخراجه من الأرض .

وكان بين الزوار الذين هرعوا للسلام عليّ لدى عودتي الى الكويت السيد عبد الوهاب القطامي ، وهو ثري يملك بعض السفن في الكويت ، وغالباً ما كان يبحر الى جنوب الجزيرة العربية وشرقي افريقيا على احدى سفنه العظيمة . وقد أخبرنا أثناء زيارته بأن زوجته تنوي الحج الى مكة المكرمة ، ولم يبقَ لها سوى أيام معدودات لتبدأ سفرها . فعندما سمعت والدتي ذلك وعدته بأن تقوم بزيارتها لتقدم لها صندوقاً صغيراً يحتوي على بعض العقاقير الطبية لاستعمالها في الطريق اذا ما طرأ عليها طارىء لا سمح الله .

وبعد بضعة أيام ذهبنا الى بيت القطامي لتسليم الهدية التي وعدت والدتي بأن تقدمها لزوجته . وقبل أن ندخل الى شقة الحريم ، مررنا بجانب حوض السفن الواقع على شاطىء البحر لأنني كنت جد توّاقة لرؤية المكان الذي يقوم فيه عبد الوهاب وبحارته وابناؤه ببناء سفنهم وخزن لوازمها . ولقد شاهدنا في الحوض ستة من البحارة الذين يعملون على ظهر سفن القطامي وهم يعدّون العدّة تمهيداً للانطلاق برحلة في وقت قريب . ذلك لأن الحاج عبد الوهاب نفسه مزمع على القيام برحلة الى المحيط الهندي أثناء وجود زوجته في الديار المقدسة .

في تلك الايام كان الربّان ينقد بحّارته مقدماً بعض المبالغ كدفعات اولى من رواتبهم قبل أن تبحر السفينة من الكويت ، ثم يقوم الربان بشراء مختلف البضائع التي يقصد الاتجار بها في الموانىء التي سيتوجه اليها ، فضلاً عن البضائع التي كان الربان يملأ سفينته بها لبيعها في الموانيء الاجنبية . وكان البحارة يمارسون نفس العملية ولكن على نطاق ضيق ، اذ كانوا يملأون صناديق حوائجهم ببعض الاشياء التي يبغون الاتجّار بها .

ووقفنا هنيهة نتبادل الحديث مع البحارة ، وهنـــا هرع إلينا يوسف أحد أبناء القطامي ، وقادنا الى شقة الحريم . وبعد لحظات وصلنا الى ساحة ظليلة تقوم على جوانبها غرف الحريم ، تلك الغرف التي كانت مشرعـــة النوافذ . أما البيت بحد ذاته فقـد كان يتألف من طابقـين اثنين ، أرضي وعلوي ، وعندمـا دخلنا الى الطابق الارضي شاهـدنا النسوة منهمكات في أشغال المنزل ، بينما كانت بعض الفتيات الخادمات يفصلن الزوان عن الارز في إحدى زوايا البيت ، وقد اسرعت الخادمات باحضار الكراسي الينا لدى أول اشارة من يوسف ووضعها لنا في الهواء الطلق . ثم نادت احدى الخادمات السيدة القطامي التي كانت في الطابق العلوي فهبطت في الحال وبادرت الى تحيتنا ثم دعتنا لتناول فنجان من الحليب . عندئذ قدمت لها والدتي صندوق الادوية ، وشرحت لها طريقة استعمال كل دواء منها ، بينما كان يوسف يكتب تفسير المشروحات بالعربية على كل علبة من علب الدواء بمفردها .

وكم كانت دهشتنا بالغة عندما علمنا ان زوجة السيـــد القطامي ، هذه السيدة التي كانت تعيش عيشة مفعمة بالنعيم والرخاء ، قد ارتضت لنفسها أن تقوم برحلتها الى مكة المكرمة ، تلك الرحلة التي تمتد اكثر من ألف ميل ، على ظهر الجمل بدلاً من السيارة ، وكأنها ارادت بذلك أن تثبت عقيـدتها وتمسكها بانـكار الذات عسى ان يحسـن الله إثابتها على تحمـل هذه المشاق .

لم يكن الحظ ليسمح الا نادراً للجنود الانكليز الذين خـدموا في الشرق

الاوسط ابان الحروب العالمية الاخيرة ان يقابلوا الرجل العربي الاصيـــل في بيته . والكثير من اولئك الجنود لم يعاشروا من العرب سوى سكان المدن الكبيرة ، ولذلك كانت آراؤهم التي كونوها عن العرب أبعد ما تكون عن واقع العربي الاصيل ، وقد تسنّى لبعض اولئك الجنود الذين عايشوا أبنـاء المدن عندما ذهبوا إلى الكويت ، أن يجدوا في أبناء هذه البقعة العربية رجالاً جُبلوا من طينة تختلف اختلافاً عن طينة الرجال الذين عاشروهم من قبل . وكل ما استطيع قوله اليوم ، والاسف يحزُ في نفسي ، أنه أصبح من العسير على الاجنبي ان يميز بسهولة المواطن الكويتي الاصيـــل من الاغراب الذين يعيشون في الكويت . ولكنه اذا وفق في معاشرتـــه ، فانه ولا شك ، سيشعر بالدهشة والاعجاب لما يتحلى به الكويتي من عزة نفس وأمانة واستقامة وسمو بالاخلاق التي ترتكز على ايمان مخلص بدينه ودنياه . وعلى الرغم من اختلاف اللغة التي تشكل حاجزاً ما بين العربي والانكليزي ، فالفرد العربي المخلص على استعداد لمعاملة الاجنبي الذي يحسن معاملة الشعوب التي يعيش بـين ظهرانيها ويقدّر شعورها الوطني ويحترم تقـــاليدها القومية ، معاملة الصديق للصديق ، معاملة مفعمة بالودّ والاحترام .

لقد واتاني الحـــظ في الكويت اذ توفرت لي فرص كثيرة للاجتماع بالكويتيين والتحـدث إليهم بشكل لا يتوفّر عادة لغـيري من الانكليز ، ذلك لان والدي قضى قرابة ست وعشرين سنة في الكويت تمكن خلالها من كسب ثقة ومودّة شعب لا يعامـل الاجانب الا بحـذر ، ولا يقيم بسهولة أواصر الصداقة ما بينه وبين الاجانب . وقد ساعده في ذلك اتقانه اللغـة العربية وما كان يظهره نحوهم من مودة واحترام وحسن كياسة ، ويبادلهم عواطفهم ومشاعرهم .

وكان والدي بصفته مقيماً سياسياً في الكويت في مركز يمكّنه من اجراء اتصالات وثيقة بالموظفين العرب ، وكبار رجال القبائل . ولكن اهتمامه الشخصي كان منصرفاً الى الاطـلاع على المزيد من أحوال القبائل التي قلّما

ألمّ بها الاجانب من خلال مظاهر تلك الحياة الخارجية ، وهذا ما دفعه للمسارعة الى خيامهم في الصحراء وتلوين خيمته بلون خيامهم والعيش بينهم كصديق مساوٍ لهم في الحقوق والواجبات .

كذلك ساعدته والدته على معرفة تقاليد البدو القديمة وعقليتهم ، والوقوف على اساطيرهم وطبيعة حياتهم اليومية،فتمكن من التغلب على حذرهم ومخاوفهم وتبديد شكوكهم باحترامه معتقداتهم وعاداتهم وحسن معاملته لهم .

وكان من عادة والدي ان يقوم برحلة في المساء الى الصحراء حيث يحتسي القهوة مع احد البدو في خيمته . وبهذه الطريقة استطعنا ان نتعرف الى اسرة فقيرة من تلك الاسر التي كان يعمل افرادها في رعي الماشية . فكان افراد تلك الاسرة يشعرون بالامتنان للهدايا البسيطة المؤلفة من القهوة والارز التي كنا نحملها إليهم من حين إلى آخر . وقد وجدنا في سليم المزّين ، رأس تلك الاسرة وزوجته عمشة زوجين لطيفين متواضعين . وكانت لهما ابنة هي وحيدتهما التي بقيت على قيد الحياة من سبعة أولاد توفّوا وهم أطفال . وكان يعيش معهم في الخيمة المجاورة منيرة شقيقة سليم وابنها وولدان آخران من الزنوج كانت عمشاء تعنى بهما وتحدب عليهما حدب الام الحنون .

وكانت اسرة سليم المزين تضرب خيامها بالقرب من آبار الشامية في أيام الصيف بينما تنتقل إلى قلب الصحراء اذا ما حلّ الشتاء سعياً وراء المرعى لمواشيها .

في تلك الاثناء كنا نذهب الى حيث كان سليم ينصب خيامه ، وننصب خيمتنا بجانبها ، ونقضي مع افراد تلك الاسرة في الصحراء يوماً او يومين . وسرعان ما رغب والدي في ان تكون له خيمته العربية الخاصة لكي يتمكن من استضافة البدو والترفيه عن رجال القبائل ممّن كانوا يعيشون بجوارنا ، والذين كانوا يسرعون لزيارته وفقاً لتقاليد الصحراء .

وهكذا تخلّينا عن خيمتنا المعهودة التي كانت من اللون الابيض وتعهدت

محشة ومثيرة بحياكة خيمة لنا من شعر الماعز الاسود ، تلك الخيمة التي تجلّت بها مهارة البدو وبراعتهم بفن الحياكة ، وكانت القطعة الواسعة التي تشكل سقف الخيمة مصنوعة من شعر الماعز الاسود الخالص ، بينما حيكت جوانبها من عدة ألوان برّاقة .

أما أرض الخيمة فقد حيكت من خيوط سُداها اللون الاحمر ولحمتها من اللون البني ، يضاف الى ذلك وسادات من نفس اللونين ، وقد زركشت جميعها بشعارات تقليدية للبدو بالالوان السوداء والحمراء والبيضاء .

والجدير بالملاحظة أن فصل الصيف هو الفترة التي تنصرف خلالها نساء البدو الى العمل في الحياكة . وذلك لان المرأة تستطيع خلال هذا الفصل ان تدق اوتاد الحياكة في الرمال ، وتكب على النسيج تاركة اشغالها في العراء طوال هذا الفصل دون ان تخشى عليها من البلل لانعدام المطر .

ولا بدّ لي في هذا المجال من اعطاء القارىء فكرة خاطفة عن كيفية صنع الخيام : تقوم المرأة ، باديء ذي بدء ، بحياكة ست قطع من الصوف من احجام متساوية ، ثم تضمها بعضها الى بعض لتجعل منها قطعة واسعة ، وبذلك تكون قد انهت حياكة سقف الخيمة . وهذا السقف يكون واقياً من المياه ويبقى كذلك بضع سنوات يكون خلالها قد تعرّض لاشعة الشمس وهبوب الرياح ، وتساقط الامطار ، فتبلى طبقة الصوف السميكة ، فتفقد ميزتها الواقية لماء المطر ، وقد تمزقها الريح اذا ما هبّت عليها بقوة . ولكن الميسورين من البدو يجددون على الدوام سقوف خيامهم كي تبقى صالحة لمقاومة المطر والريح واشعة الشمس ، فيبدّلون منها قطعتين كل سنة ، مستعيضين عنها بقطعتين جديدتين . وهكذا دواليك .

وكان منظر الخيام التي يضربها سليم المزين في قلب الصحراء من المناظر التي رسخت في ذهني منذ ايام طفولتي ، وقد ظلت تعيش في مخيلتي طوال الفترة التي قضيتها في انكلترة بعيدة عن الكويت . وكثيرة هي المرات

التي كنت خلالها اشعر برغبة جامحة للعودة الى الكويت كي أعيش تلك الذكريات المؤنسة . وكنت أذكر بنوع خاص امسيات الشتاء عندما كان الرجال يبنون جدراناً واقية من الاعشاب حول مدخل الخيمة اتقاءً للريح الباردة التي تهبّ من الصحراء. ثم كانوا يجمعون العيدان والاعشاب فيشعلونها ناراً ، ويجلسون حولها يقصّون القصص الممتعة عن أبطالهم والاحداث الغريبة التي تقع في الصحراء . بينما كانوا يوثقون الابل والجمال في الخارج فيمتزج هديرها بحداء الرعاة وأصوات المحدثين .

وقد رأى والدي آنذاك ان يخصص لسليم راتباً شهرياً مقابل ما كان يقوم به من الاعتناء بخيمتنا ، ومنذ ذلك الحين أصبح يعتبر نفسه كفرد من أتباعنا . وهكذا ظلّت علاقاتنا بسليم أوثق وأمتن من أية علاقة أخرى أقمناها مع غيره من البدو طوال ردح من الزمن امتد اكثر من عشرين عاماً . فكان سليم ينقل خيمتنا كلما انتقل بمواشيه في فصل الربيع من مرعى الى غيره ، ثم يبعث إلينا برسول ينبئنا بالمكان الذي حط فيه الرحال ، كي نتمكن من لقياه عندما نذهب إلى الصحراء في المرة القادمة .

وقد وفّر الراتب الضئيل الذي كان والدي يدفعه لسليم ضمانة جديدة قلّما عرفها من قبل ، اذ أخذت هذه الاسرة الرقيقة الحال تملك شيئاً فشيئاً المزيد من الغنم والجمال .

وعندما عدت الى الكويت سنة ١٩٤٧ وجدت سليماً ينعم برخاء وسعادة لم يكن هو نفسه يحلم بهما ، اذ اشترى قطعة أرض قريبة من مجموعة آبار المياه التي تبعد مسافة سبعة أميال عن الكويت ، وبنى لنفسه بيتاً كان يقضي فيه فصل الصيف . وهكذا أخذ سليم يتجه باستثمار أمواله الى امتلاك البيوت بدلاً من شراء الجمال كما كان يفعل غيره من أفراد قبيلة الشريف عندما يتوفر لديهم المال . ثم غدا يعتبر نفسه متقدماً من الناحية الاجتماعية نتيجة تملكه قطعة الارض والبيت ، ولم يعد يسرّه العيش في الصحراء كما يشعر البدوي الاصيل ، وبات يفضّل استخدام من يرعى له مواشيه وينطلق

بها الى المراعي ، وذلك تخلصاً من حياة البداوة الى الابد ، تلك الحياة التي أخذ بحسب ذاته ارفع منها مستوى وقد تخطاها بمراحل ، وان كان ما زال يكسب المال بطبيعة عمله معنا كحارس لخيمتنا ، ولم يكن بوسعه ان يتخلى عن عادته القديمة وهي الانتقال في فصل الربيع الى مواطن الماء والكلأ الا إذا أراد ان يتخلى عن الدخل الذي جلب له الرفاهية والسعادة . وهكذا كانت خيمتنا لا تزال حتى عام ١٩٤٧ تنتصب بجانب خيام سليم المزين للسنة السابعة عشرة .

وكان لسليم ابنةتدعى حصّة، فكنت واياها نلعب معاً لاننا في عمر واحد . ولكنني لما عدت الى الكويت وجدت حصّة قد غدت زوجـة لابن عمها محمد وانجبت له ولدين ، وكان محمد في مكة يؤدي فريضة الحج عندما ذهبت لزيارة العائلة فور عودتي الى الكويت . وبعد أسابيـع قليلة قمت بزيارة ثانية الى بيت حصّة فوجدت الاسرة تحتفل بمناسبة عودته من الحج . وبعد تبادل التحيات معه اقتربت عمشة زوجة سليم مني وهمست في اذني بأن محمد حمل لي معه هدية من الحج ، ثم غـــادرت حصة الغرفة وخرجت الى ساحة البيت لتعود وفي يدها شيء ما . ثم دنت مني وبسطت أمامي كفهـا الذي كانت تقبض به على رزمة صغيرة ، وقالت لي بخجل وحياء : « ها كي هدية زوجي التي حملهـــا اليك من بيت الله . » وكانت هدية محمد تتألف من قرطين وخاتم ذهب ومكحلة .

عندما كنا نقيم في خيمتنا القائمة بجانب خيام المزين كانت النساء تعدّ لنـا الطعام العربي . حتى اذا انتهين من اعداده بادر ولدان من أولاده إلى حمل الصينية التي وضع فوقها الخروف المحمّر والرز وقدماها الينا .

وبعد ان ننتهي من تناول الطعام كان سليم يحمل الينـا القهوة واخيراً يجلس الى جانب والدي يتحدثان عن شؤون المشايخ ورؤساء القبـــائل والثروة التي تجنيها الكويت من واردات النفط . وغالباً ما كان سليم يطلب من والدي أن ينبئه ببعض الاخبار المتعلقة بالعالم الخارجي لقلة خبرته بهـا . وذات مرة سأل سليم والدي عما اذا كانت الحرب المضرمـــة الاوار ما بين بريطانيا والمانيا قد

وضعت أوزارها ، مع العلم انه نادراً ما يجمع شيئاً عن اخبارها . ولكنه كان يعلم بأن شخصاً ما يدعى هتلر قد تولى قيادة الحرب ضد بريطانيـا . ثم سأله : « ما دام الانكليز قد هزموا المانيا فماذا فعلوا « بهترل ؟» وعندما اخبره والدي أن هتلر انتحر ليقينه من الهزيمة رفع سليم يديه نحو السماء قـائلاً : « انه لقمين بالعدالة ان تثأر من أعداء الانسانية يا الله ! »

وفيما كان سليم يتحدّث مع والدي . كانت زوجته عمشة تدخل الى الغرفة بكل هدوء وتجلس بجانب والدتي وتضع ابنتها لطيفة البـالغة من العمر ثماني سنوات في حضنها . ومن المعروف ان المرأة البدوية تغطي جسمها بالثياب من من قمة رأسها الى اخمص قدميهـا . ولذا كان من الصعب جداً تقدير عمرها بالنظر الى يديها ، ولا يمكن الركون في تقرير ذلك الا من صوتها وعينيهـا البارزتين من وراء الحجاب .

وأجمل مشهد رأيته كان منظر الطفلة لطيفة وهي جالسة القرفصاء معنا في الخيمة وتظلّ تتطلع بلهفة الى والدي ،حتى يمدّ يده الى جيبه ليخرج منها بعض قطع الشوكولاته ويعطيها إياها . وأدهشني من ذلك انها كانت لا تملّ الانتظار حتى يناولها والدي قطعة الشوكولاته . وقد كنت أجدهـا تجلس الساعات الطوال وهي صامتة جامدة .

وغالباً ما كنا نغريها لكي ترقص امامنـا رقصة عربية ، فكانت تنهض من مكانها لتقف في وسط الخيمة وتسدل خصلات شعرهـا الطويل على كتفيها ثم تأخذ بالرقص على أنغام التصفيق التي كانت والدتها تقوم به .

وكان كلب سليم يلبث منتظراً عند باب الخيمة وهو يعلّل النفس أملاً في الحصول على بقايا الطعـام ، وكان كبقية كلاب البدو ، مصلوم الاذنين ، لانهم يعتقدون بأن أذني الكلب تجعلانه يشعر بالخوف لشدة ارهافهما ، فاذا ما صُلمتا لا يعود الكلب يشعر بالخوف من الاشتباك في معركة مع الذئاب والكلاب .

ولا بد لكل اسرة في الصحراء من اقتنـاء كلب ، لان وجوده في الخيمة ضرورة قصوى للقيام بحراسة الماشية من ذئاب الليل ، والتنبيه باقتراب الغرباء

من الخيام .

والى جانب سليم المزين وأفراد اسرته ، كان لنـــا شرف التعارف ببعض الاسر الاخرى والتمتع بجودها في الصحراء . وتحضرني في هذه المناسبة ذكرى واحدة ظلت وستظل آثارها عـالقة بذهني ماثلة في خاطري ما حييت ، وهي ذكرى أمسية قضيناها عند محمد بن وثير وهو أحد رؤساء القبائل في المملكة العربية السعودية، وقد حضر الى الكويت لشراء بعض المواد الغذائية والبضائع.

واتفق ان قـــام محمد بزيارة والدي في المدينة وألح عليه بأن نتنــــاول طعام الغداء في خيمته ما دام يقوم بزيارة قصيرة الى الكويت . واتفقنا على ان نلبي دعوته . ونذهب لتناول طعام العشاء عنده في احدى الامسيات .

وعندما ذهبنا الى المكان الذي ضرب فيــــه خيامه دهشنا غاية الدهشة إذ لم نجد مضيفنا قد أجرى اية ترتيبات لزيارتنا . وعلـّل محمد ذلك بأنه لم يكن واثقاً من مجيئنا ، وعليه عزم على الا ينحر الذبيحة الا ساعة وصولنا . وهكذا كان ، اذ سرعان ما دبّت الحركة في المخيم . وبادر بعض الخدم الى تحضير مكان لجلوسنا . بينما ذهب آخرون بعيداً عن الخيام حيث ذبحوا شاة هناك .

ذلك أن البدو لا يكترثون للوقت... وقلما يحدد البدوي مواعيده وزياراته بالساعة ، لان نهاره يبدأ مع انبلاج الفجر وينتهي مع غروب الشمس . واذا ما أراد ان يصلي تكفيه نظرة الى الشمس ليعرف موعـد الصلاة . ثم انه لا يدرك قيمة الوقت بالمعنى الشائع في البلاد الاوروبية . لا سيما وانه يقضي معظم أوقاته متنقلاً في الصحراء تكتنفه العزلة والوحدة ، يضبط سير اعماله وفقاً لما تقتضيه ظروف حياته العائلية ومواشيه . وجلّ ما توحي اليه فكرة ملء الفراغ أن يجالس اصدقاءه قرب النــــار التي يضرمونها في الخيمة . وهذه هي الطريقة التي يفهمها البدوي في الصحراء لتزجية الوقت . أما إذا كانت لديه بعض الأعمـــال فلن يألو جهداً لتأجيلها الى الغد .

ولذا فليس من المستهجن اذا ما طالب البدوي زائره بالجلوس فترة ساعتين أو اكثر . بينما يكون قد جهّز الطعـــام . وكل اعتراض على ذلك قد يعتبره

البدوي تبرّماً وتململا من زواره لن يقابلها بالاستحسان .

ولا بد لي في هذا المجال من التكلم قليلاً عن مضيفنا الشيـخ محمد ، فقد كان من قبيلة عجمان التي تدين بالوهابية ، وكان ملتزماً حدود مذهبه بدليل أنه كان يرتدي العباءة البيضاء التي ترمز إلى الاخوان الوهـــابيين ، كذلك كانت ملامحه تدل على أنه ينتمي الى قبيلة عريقة المحتد ، كريمة النماء ، وقد أرخى لحية متوسطة الحجم والطول . وفي الايام الخوالي عنـــدما قام الوهابيون بثورتهم عام ١٩٢٩ ، حارب الشيخ محمـد الملك عبد العزيز الراحل حتى انه تزعّم حملة تصدت لقافلة الامير عبد العزيز وهي في طريقها الى الحفوف . وأخيراً لجأ الى العراق بعد ان طلب من الملك فيصل الاول الحماية وحق اللجوء السيـــاسي ، لكنه عاد وعقد صلحاً مع اسياد الجزيرة العربية ، وهـا هو اليوم يعيش بسلام في ارض آبائه واجداده .

نعود الآن الى الخيمة ... فقد جلسنا خارج تلك الخيمة على سجـادة فرشت بجانبها ، ثم أضرمت النار ، تلك النار التي وفـّرت لنا غرضين: الدفء والنور . ومرّت الساعات الطوال حتى حان وقت الغروب ، فـاذا بالشيخ محمد بن وثير ينهض من مكانه ويدعو رجاله لتأدية فريضة الصلاة حتى اذا انتهوا منها عادوا الى الجلوس ليشنفوا مسامعنا بقصص عن الحروب والغزوات التي قـامت بها القبائل في ايام خلت . وفي هذه الاثناء خيم الظلام على جميع ارجـاء المخيم ، ما عدا خيوط قليلة من النور كانت تنبعث من النـــار المتأججة لتلقي بعض الضوء على الجالسين بصمت يصغون الى المحدثين . وكانت السماء تتألق بالنجوم ، وخيل الينا أننا نسبح وحدنا في فضاء اللانهاية .

وهكذا مرت الساعات تتلوها الساعات حتى تناهى الى أسماعنـا صوت امرأة تقول بأن الطعـام أصبح جاهزاً ، عندئذ نهض بعض الرجال ، وما هي الا لحظات حتى عادوا يحملون صينية كدّس فوقهـــا الرز واللحم ووضعوها أمامنا ، ثم القوا ببعض الاعشاب اليـابسة في النار وألهبوا سعيرها كي نتمكن من رؤية الطعام .

وان أنسَ فلن انسى ذكرى تلك الليلة والخبرة التي اكتسبتها من مشاركة البدو حياتهم في الصحراء بكل مـا تنطوي عليه من بساطة وجمال . فهؤلاء كانوا بدواً حقيقيين يعيشون حياة في منتهى الغلظة والخشونة ، حتى لتنقصها نعمه التمتع بمصباح يضيء خيامهم وقت حلول الظلام . وقد دفعهم كرمهم الفطري الى أن يجهزوا لنا وجبة طعام يبخلون بها على أنفسهم ، ومردّ ذلك ، ولا خلاف، الى تلك العادة العميقة الجذور في نفوسهم ، والتي تقتضيهم أن يقدموا الطعام ، ويوفروا الملجأ للزائرين سواء كانوا من الاصدقاء او من الغرباء . والمدهش حقاً أن اهل الصحراء يتمسكون بهذه التقاليد العربية بشدة لانها تنبع من من صميم رغبة الانسان لابداء المساعدة لاخيه الانسان تمشياً مع ظروف الحياة القاسية التي يعيشها في الصحراء .

بذلك تكون حياة البدو أقرب الى الطبيعة منها الى التكلف ، هذه الحياة التي تعتمد في الاساس على الظروف الملائمة للطبيعة والمناخ والتفكير بامكان التعرض للمرض وخطر المجاعة كل لحظة . وخلاصة القول : إن قسوة الحياة المقرونة بالفقر في مجـاهل الصحراء الواسعة الموحشة قد كونت ميّزة البدو كشعب يقدس تحرير الروح والشعور بالشرف والامانة والولاء للقبيلة ، والايمان الراسخ بالله ، وتلك هي المميزات الاساسية التي يتصف بها عرب الصحراء.




البدو



توفر الاراضي الصحراوية الواقعة خلف اسوار مدينة الكويت مراعي خصبة لاعداد كبيرة من الغنم والجمال [1] ، هذه الغنم والجمال التي ظلت قروناً طويلة، المصدر الوحيد للثروة والحياة لدى البدو الرحّل الذين يتنقلون باستمرار هنا وهناك في طول البلاد وعرضها .

وبالرغم من كثافة سكان البادية فانه لمن الصعوبة بمكان تقدير عدد أولئك البدو الذين يقطنون في الكويت ، نظراً لتنقلهم المستمر عبر حدود الكويت والمملكة العربية السعودية .

غير أن البدو يتوقفون عن التنقل في الصيف إذ تفرض عليهم الحياة في الشهور البالغة الحرارة ان يظلوا على مقربة من اماكن المياه . وتعيش جماعات كبيرة من البدو في الاماكن التي تكثر فيها الآبار في الصحراء . وبالرغم من قلة وجود المياه العذبة ضمن منطقة مدينة الكويت ، فهناك العديد من الآبار في الضواحي ، ومياه الكثير منها صالحة للشرب . ومع ان معظم تلك المياه تخالطها الملوحة فان البدو الرحّل يشربون منها مع مواشيهم .

وانّى وجدت المياه الصالحة للشرب في الصحراء ، قامت بجانبها القرى واتسعت، وراح سكانها يعملون في زراعة الخضار والنخيل. وتقع سلسلة من مثل هذه القرى بمحاذاة الشاطيء الجنوبي للكويت . والى الغرب تقع قرية الجهرة التي تبعد حوالي عشرين ميلاً عن مدينة الكويت ، وتعتبر مثلاً مشابهاً للاماكن الجنوبية التي استوطن فيها البدو .

---

[1] لقد هدم الآن هذا السور بعد ان قامت مدينة الكويت الحديثة - المترجم .

وبالرغم من أن معظم الاراضي الواقعة ضمن دولة الكويت صحراوية خلوٌ من التضاريس ، فـان الموقع الذي تقع فيه حقول النفط على بعد ثلاثين ميلاً إلى جنوب مدينة الكويت يتخلله موقعان بارزان هما برقان والوفرة .

أما برقان، فهي مجموعة من التلال القليلة الارتفاع المحيطة بواد منبسط ، بينما يشكل موقع الوفرة الكائن الى الجهة الشمالية الغربية من المدينة تلة واحـــدة مخروطية الشكل تتوّج فسحة واسعة من الاراضي الصحراوية المنبسطة. وهناك اراضي مشبعة بالمياه تقع تحتها طبقة ارضية فحمية ضمن سلسلة تلال برقان حيث عثر على آثار بشرية قديمة ، مما يدل على ان الارض التي تحيط بهـا تلك التلال كانت مأهولة. واليوم، فان الاراضي الواقعة حول تلال برقان وتلة الوفرة مغطاة بادوات وآلات ومنشآت التنقيب عن النفط واستخراجه وتخزينه .

وبالاضافة الى تلك المناطق المميزة من طوبوغرافية الكويت ، توجد سلسلة اخرى من التلال شمال غربي المدينة ويمكن مشاهدة مرتفعاتها البارزة المنحرفة الى الجنوب من جميع جوانب جون مدينة الكويت .

وما تبقى من الأرض فقطعة من الصحراء ، حـتى ان الاراضي القريبة من سور المدينة الذي هدّم لاغراض توسيعها وتنسيقها وفقاً للمخطط الجديد الذي وضع لانشاء مدينة حديثة ، كانت قاحلة اذا استثنينا بعض الاعشاب التي كانت تنبت في الشتاء ، فيبادر الاهالي الى قطعها وجمعها أن لم ترعها الماشية .

ولكن في المواقع القريبة من التلال والواقعة خلف السور ووراء حدود هذا الحزام المجدب ، كانت الارض تنبت عـدة ضروب من الاعشاب الصحراوية . وفي بعض المناطق كانت هذه الاعشاب تغطيها فتزينهـــا بلون اخضر جميل . وكثير هم رجال البدو الذين كانوا يجمعون مثل هذه الاعشاب ويبيعونها لاستعمالها في اشعال النار في البيوت للتدفئة . وكان البدو يعملون يوميـــاً في جمع هذه الاعشاب وحملها على ظهور الحمير او الجمال ثم ينطلقون بها الى السوق لبيعها .

ومنذ زمن مغرق في القدم ظل البدو في الصحراء منقسمين الى قبـائل ، نذكر منها القبائل الكريمة المحتد التي كانت تعيش في المملكة العربية السعودية

كقبيلة عجمان ومطـــير وعنزة وشمّر التي ظلت قروناً طويلة تتمتع بالسلطة والكلمة النافذة ، ذلك لأن أفرادها يعتبرون من انقى البدو دمـاً وأكرمهم ارومة ، فضلاً عن كون شيوخها من أعرق الاسر العربية وانبلهـا ، ثم الثروة الحيوانية الواسعة التي تمتلكها من الجمال والمواشي .

وهناك بعض القبائل الاخرى التي تلي بتصنيفها تلك القبـائل كقبيلتي الرشايدة والعوازم، كما أن هناك غيرهامن القبائل التي تسكن العراق وتصنف في ادنى التسلسل الاجتماعي القبلي حتى لينفر منهـا البدوي الاصيل ويتردد في التعامل معها .

كانت بعض تلك القبـــائل تعيش ضمن اراضي الكويت بصورة مستقرة مستمرة وتدين بالولاء لشيخ الكويت ، ونذكر منهـا على سبيل المثال قبيلة الرشايدة التي تعتبر من القبـائل الاصيلة في الكويت ، والتي يؤلف افرادها معظم حرس الشيخ الخاص ، ولكن لمـا كانت الحياة في الصحراء تقتضي على الدوام ان ينتجع البدوي مواطن الخصب ، كان الكثير من القبائل السعودية في نجد والاحساءتنتقل الى اراضي الكويت عندماتكون مراعيها أخصب من مراعي بلادهم ، كذلك كانت قبيلة المنتفك تؤم الكويت قادمة اليها من العراق حيث يجد الرعاة المراعي متوفرة لمواشيهم كما يجدون سوقاً رائجة لأغنامهم وسمنهم .

والمدهش حقاً ان جميع هذه التنقلات تتم بموجب اتفـاق غير مدون بين حكومات الكويت والعراق والمملكة العربية السعودية ، وبموجبه قد اعطيت القبائل الحرية لعبور الحدود ، متى ارادت وبدون أية معاملات رسمية .

ورغماً عن ان البدو كانوا بالاصل يسيطرون على مدينة الكويت فسكانها اليوم وإن ظلوا يحتفظون بنقاوة دمائهم العربية الاصيلة ، ولم يختلطوا بالعناصر الغريبة التي وفدت الى الكويت ، منذ أخذت تتسع وتنمو لتغدو مرفأ بحرياً هاماً ، فقد غدوا يختلفون عن اسلافهم وبدّلوا كثيراً من عاداتهم ومظاهرهم .

واليوم ، يشعر العربي المثقف بالاعتزاز بأسلافه البدو ، ويكنّ كل احترام وتقدير لرجال القبائل العريقة فيبداوتها،غير انه أخذ يضفي على احترامه ضرباً

من التواضع بدليل أنه بات يعتبر نفسه متفوقاً على أولئك الرجـــال بثقافته الواسعة ، ومعرفته بالشؤون العالمية ، وتفكيره الذي تلقّح بالافكار الغربية . كابات يعتبر نجاحه في ميادين التجارة يضفي عليه احتراماً اكثر وأرفع من ذلك الاحترام الذي يسبغه عليه أسلافـه مهما كانت درجة عراقتهم في نظر العالم الخارجي .

الا أن الملاحظات التي أبداها « نيبور » عن الفـــارق بين عرب الصحراء وعرب المدن هي على النقيض من ذلك . فقد كتب يقول :

« إن العرب الذين استوطنوا المدن ، وخاصة المدن البحرية ، فقدوا الكثير من مزاياهم وعاداتهم الاصلية لاختلاطهم بالاجانب ، ولكن البدو الذين يعيشون تحت الخيام كقبائل مستقلة بذاتها ما زالوا يحتفظون بتقاليد أسلافهم وأخلاقهم ، فمثل هؤلاء يصح القول بأنهم عرب أقحاح يتمتعون بجميع تلك المزايا المتأصلة في نفوس جميع أفراد قبائلهم . » .

ونحن حينما نرى العرب الأقحاح من سكان المـــدن والصحراء على السواء يكنّـون المودّة والاحترام المتبادلين بعضهم لبعض ، نجد الطبقات الدنيا من سكان المدن تنفر من جميع رجال البدو ، كما ينفر هؤلاء منها بدورهم . والى بضع سنوات خلت كان البدوي الأصيل يعتبر حياته المستقلة في الصحراء بمثابـــة الوجود الشريف الوحيد لرجل القبيلة الذي يعتز بتقاليد آبائـــه وأجداده . ومع ذلك كان هنـــاك كثير من البدو ممن دفعهم فقرهم وبؤسهم للبحث عن عمل ما يقومون به في المدينة . غير أن البدوي الأصيل يعتبر ذلك مذلّةً ومهانة ما دام بمستطاعه الابتعاد عن الانغماس ببعض الاعمال التي تحرمهـا التقاليد والعادات . فانه — مثلاً — لا يقوم بدباغـة الجلود او توريد اللحوم التي تباع في المدينة ، أو بطلي البيوت بالـكلس ، لا لشيء الا لأن مثل هذه الاعمال توسّخ يديه ، وهو يتركها عـــادة لاولئك البدو الذين هم أدنى منه طبقة .

ويحكى عن الشيخ مبارك جد الحاكم الحالي والمعروف بعدله وحكمته ،

أنه فيا كان ذات مرة يحاول عبور احدى البوابات الى المدينة ، شاهد أحد البدو يسوق حماراً أثقل ظهره بحمل من الجص فاستوقفه ، وبعد أن تأمله قليلاً قال له :

– ألست من قبيلة بني عجمان ؟

فرد عليه البدوي المسكين الذي لم تكن ثيابه الرثة تدل على أنه ينتمي الى عشيرة عريقة في بداوتها ، بالايجاب وهو يشعر بالخجل .

عندئذٍ قال له الشيخ مبارك :

– يجب أن تعرف بأن عمل إذابة الجص يلحق العار برجل من طرازك .

فقال البدوي بخجل :

– أعرف ذلك يا طويل العمر ، ولكن ما حيلتي وقد ألفيت نفسي على أبواب الجوع ، ولم أعثر على غير هذا العمل كي أستطيع أن أعيل نفسي وأفراد عائلتي .

غير أن الشيخ أبى أن يصغي لمثل هذه الاعذار الواهية ، فالتفت الى البدوي وقال له بصرامة :

– لكنك قد حقرت نفسك في نظر الله وفي نظر أبناء عشيرتك ... لذا آمرك بالتخلي عن هذا العمل القذر ، وإلا طردتك من بلادي ولن أسمح لك مطلقاً بالعودة إليها .

والحقيقة لقد مرت حقبة طويلة من الزمن قبل ان تنمو الكويت وتتطور ، لتوفر العديد من فرص العمل . ولم يكن البدو الذين يتحدرون من عشائر عريقة ، خلال تلك الفترة ، يفكرون بأن يشتغلوا كعمال ، وخلال تلك الايام ، بينما كان البدو الرحل يتدفقون على المدن للسكنى فيها ، كان هؤلاء البدو العريقون بعروبتهم يقصدون الشيوخ ليعرضوا عليهم خدماتهم ، ذلك لأن افراد الاسرة الحاكمة يدركون جيداً مدى الاعتزاز الطبيعي الذي يشعر به البدو ، فيبدون استعدادهم لتوظيفهم في خدمتهم « كفدائية » أو كحراس مسلحين يحرسون بيوتهم وممتلكاتهم ، ومثل هذه الاعمال تناسب

البدوي كل المناسبة لانها تمنحه ميزة ، خاصة ولا تكلفه من الاعمال إلا الجلوس والدفاع عن سيده في حالة حدوث أي طارىء .

أما اليوم فقد كثر عدد البدو على اختلاف درجاتهم ومنزلة قبائلهم ممن يشتغلون كعمال في شركات النفط أو مع الملتزمين الذين يتعاقدون مع الدولة لتنفيذ برنامج ما من براجها التطويرية . ومع ذلك فليس بعيداً أن يفضّل البدوي ان يعمل كحارس او سائق أو فنيّ ما دامت هذه الاعمال لا تتطلب منه ان يرهق جسمه وأعصابه الا اذا استطاع أن يحصل على وظيفة كهذه . ولا يشتغل كعامل إلا اذا كانت الاجور مغرية ، عندئذٍ يضع اعتزازه بقبيلته جانباً .

أما بنو قبيلتي الرشايدة والسنا فلم يتوانوا في يوم من الايام عن الاستيطان في المدينة إذا ما تيسّر لهم عمل هناك ، وإلى سنوات قليلة خلت كانت ناحية كاملة من المدينة يسكنها ابناء تلك القبائل ، غير ان مشاريع التطوير والانشاء حملت معظم هؤلاء على هجر بيوتهم والانتقال للسكنى في غيرها . وقد عُوّض عن الذين وقعت بيوتهم ضمن منطقة الهدم التي خصصت لبرنامج الانشاء الجديد بأراضي غيرها بالمجان في ناحية الدوغا التي تقع على مسافة عشرة أميال الى الجنوب من الشويخ لينشئوا عليها بيوتاً جديدة .

والجدير بالذكر ، أن معظم هؤلاء البدو كانوا في الماضي يكسبون رزقهم من صيد اللؤلؤ ، أما اليوم فليس بينهم من يمارس تلك المهنة الشاقة .

وكما ان عدد البدو الذين ينزحون من الصحراء الى المدينة بدافع الامل للعثور على العمل كان بازدياد مضطرد فكذلك كان يرتفع عدد البدو الذين يطلّقون حياة الصحراء .

وحتى البدو الذين ينتمون إلى القبائل العريقة أخذوا يستوطنون في بيوت ثابتة قريبة من الاماكن التي يعملون فيها ، وهكذا تسنّى لكثيرين مُن هؤلاء بعد قضاء عدة أشهر في اعمال تدر عليهم اجوراً محترمة ان يقتنوا

لأنفسهم وسائل النقل الآلي التي حلّت شيئاً فشيئاً محل الجمل في حياة البدو من سكان المدن .

وهكذا نرى انه متى امتلك البدوي سيارة ركاب او شحن استعاد نفسه وأصبح بوسعه ان يجني الربح الوفير بواسطة تسيير سيارة نقل بين الكويت والقرى المجاورة ينقل بها المواشي او الامتعة لبيعها في المناطق الداخلية ، او يؤجر سيارته للمتعهدين والمقاولين كي ينقلوا عليها عمّالهم من مناطق البناء والانشاء .

والبدوي الذي يبني لنفسه بيتاً في المدينة ويسكن فيه يبقى بمظهره أقرب الى البداوة منه الى الحضارة ، في حين يبدو بتفكيره اقرب الى سكان المدن ، كما انه يحتفظ بلباسه التقليدي ، ذلك اللباس الذي يميز رجال القبائل ونساءهم من سكان المدينة . والبدوي كما هو معلوم لا يخرج من بيت او خيمة قبل ان يضع عليه عباءته ، بينما نجد البسطاء منهم ممن سكن المدينة قد تخلى عن ارتداء العباءة ، في حين ظل الاثرياء منهم او افراد الاسر العريقة محافظين على ارتدائها عندما يسيرون في الشوارع . كذلك يمكن بسهولة تمييز المرأة البدوية من زميلتها قاطنة المدينة ، لانها ما زالت محافظة على ستر وجهها بحجاب كثيف من القماش الاسود ولا يبدو منه سوى عينيها ، بينما تسدل ساكنة المدينة على وجهها حجاباً شفافاً من حرير الموسلين .

ومن جهة المياه ، نجد أن هناك مجموعة آبار من المياه العذبة تتدفق على مدار السنة ، وتقع في الطرف الغربي لمدينة الكويت تماماً ، خلف سور المدينة القديم . ولقد عرف المواطنون القدماء بوجود المياه هناك ، تلك المياه التي جعلتهم يختارون الاقامة في المناطق القريبة من الشاطىء والمعروفة اليوم بمنطقة الشامية .

واليوم تشكل المنطقة الواقعة حول تلك الآبار ضاحية عامرة من أحياء الكويت قام عليها العديد من ورش تصليح السيارات حيث يعمل القيّمون عليها بتصليح الاعداد المتزايدة من السيارات التي هي بحوزة البدو .

وقبل ان تتوسع مدينة الكويت بفضـــل الثروة النفطية وما تلا ذلك التوسع من اعمال البناء والانشاء حتى لم تبقَ اية بقعة الا وشملتهـــا تلك الاعمال ، كانت الشامية منطقة يسكنها البدو . وفي تلك الايام كان سوادهم يعيشون في الخيام او في الاكواخ المصنوعة من الطين او الحُصُر او غير ذلك . وكان البدو خليطاً من قبائل شتى جاؤوا الى الكويت تحت ضغط الحاجة التي جمعت بينهم . ولقـد سكنوا منطقة الشامية انتجاعاً للرزق في المدينة بعد أن فقدوا كافة مواشيهم وجمالهم . وكانت النسوة العازبات منهن يقـدمن المأكل والمشرب للمسافرين القادمـــين من الصحراء ويضعن الخيام تحت تصرفهن ليأووا فيها .

اما اليوم ، فقد غدت الشامية منطقة عامرة بالبيوت وورشات تصليح السيارات ، ويملك معظمها اولئك الاوائل من البدو الذين تحسّنت احوالهم نتيجة لما يربحون ، سواء في ذلك الراتب الضخم الذي يحصلون عليه من الدولة او من شركات النفط .

وعلى مسافة قصيرة من حيّ الشامية ، تقع مجموعة ثانية من الخيـــام والاكواخ ، تسكنها افراد من قبيلة الصلبا ، وهم جماعة من الفجر لا تربطهم اي وشيجة بالقبائل العربية العريقة من حيث العرق او الدم . وقد افرد لهم مكان خاص يسكنون فيه لأنهم لا يرضون الاختلاط بغيرهم . ويُعتقد ان كلمة الصلبا تمت بصلة لـكلمة « صليب » مما دفع البعض الى الاعتقاد بأنهم من بقايا الصليبيين الذين تخلّفـــوا في الشرق وتزاوجوا مع بعض السكان المحليين ، ومما يزيد في صحـة هذا الاعتقـاد أنهم عندما يحيون حفـلاتهم الراقصـــة يقيمون في الارض القريبة من حلبة الرقص وتدْين على شكل صليب هو شعارهم الخاص مما يعزز الصلة بتسمية قبيلتهم باسمه .

غير ان قبيلة الصلبا تتكلم العربية السليمة وان كانت عاداتهم وتقاليدهم تختلف عن عادات العرب الاقحاح . ونساء قبيلة الصلبا لا يضربن بخُمُرهن على وجوههن وانما تضعنها عندما يسرن في الشوارع احتراماً للتقاليد العامة ومسايرة

لها . وعندما تقيم قبيلة الصلبا حفلات عامة للرقص ترقص نسوتهن بغير حجاب جنباً الى جنب مع الرجال ، الامر الذي ينفر منه البدو الاقحاح الذين لا يسمحون لزوجاتهم بمراقصة الرجال البتة ، ولذا يعتبر العرب افراد قبيلة الصلبا خارجين عن صراط التقاليد والاخلاق المألوفة .

وكان بعض رجال قبيلة الصلبا في الايام الغابرة يعيشون على صيد الاسماك ، وكان البعض الآخر يمارس تلك الاعمال التي لا يقوم بها افراد القبائل القريبة ، بينما كانت نساؤهم تذهبن يومياً الى المدينة يستجدين الطعام وبعض الدريهات من ارباب وربات البيوت .

وانني لاذكر شابة منهن كانت غالباً ما تطرق باب بيتنا وهي تعلل النفس بالحصول على بعض المال او الغذاء . وكان زوجها من صائدي السمك ، وذات مرة ، اصيب الزوج بمرض ألزمه الفراش عدة اسابيع مما زاد في فقرهما على فقر وضائقتهما على ضائقة حتى غدت خيمتهما وثيابهما اسمالاً بالية . وبنتيجة ذلك فقد تعرّضا لاسوأ مصير في فصل الشتاء فعاشا في العراء تحت وابل المطر تهز الريح جسميهما هزاً ، ولذا فقد مددنا لهما يد العون الى اقصى حدّ مستطاع ، وكانت الزوجة تشعر بالامتنان للمنح التي تنالها منّا مهما كانت هزيلة .

في تلك الايام كان الحي الذي تعيش فيه قبيلة الصلبا بؤرة للقذارة يخيّم عليه البؤس ، اما اليوم فقد تغيّر كل ذلك : غدا المكان نظيفاً امتدت إليه موجة الرخاء والازدهار ، فأقام افراد القبيلة فيه اكواخاً جديدة وضربوا خياماً حديثة ، واذا ما تطلّع المرء إلى ذلك المكان اليوم رأى العديد من أجهزة الراديو في تلك الخيام ، فضلاً عن العديد من سيارات الشحن ذات اللون الاحمر التي تركها أصحابها بجانب اكواخهم أو خيامهم ، هذه الاكواخ وتلك الخيام التي كانت الى فترة ما بؤرة ترزح تحت عبء الفقر والبؤس والالم .

البعثة الاميركية

من اعظم الخصائص والميزات التي عرف بها العرب الرحّل ، ايمانهم العميق بحكم القضاء والقدر الذي يدفعهم الى تقبّل المصيبة .

وليس ثمة مكان في العالم قد رسخت فيه فكرة الاستسلام للقضاء والقدر ، بقدر ما هي راسخة في تفكير البدو بالنسبة الى المرض والموت . واذكر انني قمت ذات مرة بزيارة الى خيمة احد افراد البدو من اصدقائنا دون ان ادري بوفاة طفله في اليوم السابق ، فدهشت بالغ الدهشة من استقباله وافراد عائلته، إياي بمنتهى البشاشة واللطافة دون ان ألمح على وجوههم اي اثر من آثار الحزن ؛ وعندما تطرقت اثناء حديثي إلى صحة الطفل أنعم فيّ الوالد النظر وأشار بيده الى خارج الخيمة حيث رأيت قبراً صغيراً وقال : « انه يرقد هناك ! »

وبمثل هذه الحال ، إذا حاول الانسان – وذلك من بديهيات الامور – ان يسأل عن تفصيل المأساة كثيراً ما يأتيه الجواب : « لقد اخذه الله ... والحمد لله .. » ويغيرون مجرى الحديث .

أن مثل هذا التسليم للارادة الربانية يرتكز على عقيدة ان الحياة تسير وفقاً لقدر وضعت خطوطه سلفاً ، وأن اي احتجاج من جانب الانسان على حكم القدر مصيره الفشل . اذن ، فهذه النظرة العميقة الجذور في شخصية العربي ، تكاد ان تكون السبب الرئيسي لعدم اتخاذ الحيطة دفعاً لخطر محقق ، ومن أدلة ذلك ما رواه القيّمون على اعمال التنقيب عن الزيت بأنهم كانوا يجدون من الصعوبة بمكان أن يقنعوا العمال بانتعال احذية السلامة ، او اعتماد خوذ الرأس لوقايتهم من اي طارىء قد يتعرضون له اثناء قيامهم بالعمل . وكل

ما كان البدو يجيبون به على ذلك بعد ان يهزوا بأكتافهم استخفافاً : « إذا كان مقدراً لي ان اموت غداً فلن ينقذني الحذاء ولا الخوذة . »

ومع ذلك فقد كان بعض سكان الكويت من العرب لا ينظرون الى المخاطر واحتمال مجابهتها من نفس الزاوية التي ترتكز اليهـا نظرة البدو اللامبالية ، ولكنهم يشاركون البدوي رأيه في عدم اتخاذ الحيطة ، رجاء ان تجـانبهم النكبة دون ان يبذلوا من جانبهم أي جهدهم لتفاديها .

ومما لا ريب فيه ، ان مثل هذا التسليم المتنـاهي ظل يشكل عقدة نفسية شديدة تتطلب من الاطباء التغلب عليها وحلها بجهودهم الدائبة الرامية إلى وضع الاسعافات الطبية في خدمة مرضى الكويت .

ولا بد لي في هذا المجال من التنويه ، ولو بصورة مقتضبة ، عن خادمتنـا حمدة . فقد قضت حمدة في خدمتنا نحو اربع وعشرين سنة تسنى لها اثناءها ان تشاهد الاطباء والعقاقير كثيراً ، ومع ذلك كان من العسير اقناعهـا بضرورة استشارة الطبيب عندما تصاب بمرض ما . ولقد أخـبرتني ذات مرة ، والحزن يحزّ في نفسها ، ان ابن شقيقها يشكو المـاً حاداً في عينيه وتخشى امه ان يفقده الألم بصره ، ولم يسعنا الا ان نلح على حمدة كي تنقل الطفل الى احد مستشفيات الحكومة حيث تتوفر معالجته معالجة فعالة باشراف احد الاخصائيين في جراحة العيون ، ولكن كان واضحاً من ترددها أنها لن تفعل شيئاً . وفي اليوم التـالي سألتها عن حالة الطفل فكان جوابها لي :

« إن شاء الله سيكون بخير عما قريب . »

فكررت سؤالي :

– لكن اخبريني يا حمدة ، هل تحسنت عين الطفل عما كانت عليه بالامس ؟

– كلا ، بل ان التورّم أصبح اسوأ مما كان .

عندئذ ، حاولنا جهدنا ان نقنعها بضرورة استشارة الطبيب ، واقنعناهـا بضرورة الضغط على والدة الطفل لنقله الى المستشفى . وكانت النتيجة ان بذلت حمدة أقصى جهودها لاقناع الأم بضرورة نقل ابنها الى احـد المستشفيات قبل

أن يسبق السيف العذل ، وهكذا كان .

وبعد ان غادر الطفل المستشفى ، حيث أجريت له عملية جراحية سريعة ناجحة ، غمرتني حمدة بشعور يفيض بالحنان والامتنان ، قائلة لي :

« لولا رحمة الله ومهارة الطبيب لاصبح الطفل بكل تأكيد اعمى . »

واليوم عندما يرى الانسان تلك الجموع الحاشدة من المرضى تتوجه يومياً الى هذا المستشفى او ذاك من المستشفيات التي شيدتها الحكومة في الكويت ، فلا بد من ان يذكر المرء السنوات الطوال التي قضاها المسؤولون العاقلون في حض السواد على فكرة المعالجة الطبية الواعية .

قبل عشرين سنة خلت ، كان معظم الكويتيين يشعرون بالقلق وبعدم الثقة بالاطباء الغربيين ، وكانوا يعتبرون جهودهم ونشاطهم من الامور الخطرة التي لا مبرر لها ، أما اليوم فليس من ينكر الجهود التي بذلها ذلك النفر القليل من رجال الطب الذين اسسوا مستشفى البعثة الطبية الأميركية في الكويت قبل ثلاث وأربعين سنة خلت ، في اسداء المؤازرة الفعالة لسواد الشعب ، فضلاً عن الجهود التي قام بها اولئك الذين عهدوا إليهم بالخدمة ؛ والذين لم يألوا جهداً لتهيئة أذهان الرأي العام لتقبل الارشادات والنصائح الطبية والعلمية . ويمكننا القول أنه حتى أواسط سني العقد الرابع من عصرنا ، أي عندما انشأت دولة الكويت اول المستوصفات التي كان يشرف عليها اطباء من مصر وسوريا ، كانت الوسائل الطبية الوحيدة المتوفرة للبلاد هي تلك التي تقدمها مستشفيات البعثة ، يضاف إليها مستوصف آخر يديره طبيب خاص تابع لمكتب المقيم السياسي البريطاني .

ومن الجدير بالذكر ان البعثة التي أوفدتها مؤسسة الاصلاح الكنسي الهولندية التي تمتد دائرة نشاطها من اميركا الى الخليج ، كانت تدير مستشفيات انشأتها في معظم المدن الرئيسية القائمة على شاطىء الخليج منذ اوائل القرن العشرين ، ومع ان البعثة واجهت بعض العقبات اثناء ادائها مهامها الطبية والتبشيرية ، فان خدماتها الرائعة الجريئة التي اسداها اطباء البعثة خففت الى

حد بعيد من حدّة المعارضة التي جابهتها، وأكسبتهـا ثقة السواد الأعظم من السكان الذين كانوا فيما مضى ينظرون الى اعمالهـا نظرة مفعمة بالشك والحذر وعدم الاطمئنان ، ويرجع تاريخ تأسيس هذه البعثة الى عام ١٨٨٩ وهو العـام الذي انتدبت فيه ، جيمس كانتين لتمثيلهـا في البلاد العربية .وفي عام ١٨٩١ اسس كانتين بمساعدة زميله صاموئيل اعمال البعثة في البصرة ، ثم انتقلا منها بعد سنتين الى البحرين ، وبعد سبـع عشرة سنة اتيحت لهما فرصة تأسيس مركز للبعثة في الكويت .

وقد تم اول اتصال بين رجال البعثة الاميركان وحاكم الكويت سنة ١٩١٠ عندما استدعي احد اطبائها ، وهو الدكتور بنيت ، الذي كان رئيس مكتب البعثة في البصرة ، للاشراف على معالجة الشيخ خزعل ، شيخ المحمّرة ، احدى الامارات المستقلة الصغـيرة الواقعة قرب مصب شط العرب . وتشاء المصادفة ان يكون الشيخ مبـــارك حاكم الكويت في المحمّرة بزيارة الشيخ خزعل ، صديقه الحميم ، وان يلتقي هناك بالدكتور بنيت .

والراجح انه قد تكونت في ذهن الشيخ مبـارك فكرة حسنة عن البعثة ، بدليل انه قد طلب الى الدكتور بنيت – على الرغم من ان مقـابلته تلك هي المقابلة الاولى له – ان يعالج إحدى كريماته التي كانت مريضة يومئذ . ويشاء القدر ان تشفى ابنة الشيخ مبارك على يد الطبيب بنيت مما ادى الى توثيق عرى الصداقة والمودة ما بين الرجلين .

ولم تمض الا برهة وجيزة على عودة الطبيب بينث إلى مقر عمله في البصرة حتى قصده احد الكويتيين مستصحباً معه ابنه المريض لمعـالجته في مقر البعثة . وقد شفي الصبي مما حدا بالمواطن الكويتي الذي كان من الوجوه البـــارزة في الكويت الى تقديم اقتراح للشيخ مبارك ملتمساً السماح للبعثة بأن تشمل بنشاطها المفيد الكويت . وهنا وجد الشيخ من جاء يؤكد له رأيه السديد الذي كان قد كوّنه عن الاعمال الانسانية التي يقوم بها الطبيب بنيت ، فبادر الى دعوته إلى الكويت وبناء مستشفى للبعثة فيها.وحينئذ سافر الطبيب بنيت والمستر فان

إس من البصرة الى الكويت للتفاوض مع الشيخ مبارك حول المكان المناسب لبناء مستشفى البعثة الذي ما يزال شامخ البنيان إلى اليوم .

وفي سنة ١٩١١ كان كل من الاطباء بنيث وبول هـــاريسون ومايلري يشرفون على اعمال مركز البعثة في الكويت . ثم انتدب الطبيب هاريسون والطبيبة كالغرلي سنة ١٩١٢ لتولي الاشراف على المركز ، وبوشر ببنـــاء مستشفى للرجال . وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد قد اعتزلوا النشاط العملي في الخليج فما زالت ذكراهم ماثلة في أذهان الالوف من المرضى الذين تلقوا على ايديهم فيما مضى المعالجة الطبية . ومـــا هو جدير بالذكر أن جميع رجال ونساء البعثة كانوا مخلصين في اداء رسالتهم إذ عاشوا ظروف حياة بدائية وفي منطقة يعتبر مناخها من أضنى وأرهق المناخات في العالم .

وبين رجالات الانكليز والأميركان القلائل الذين توفرت لهم المعرفة العميقة بالعرب والذين استطاعوا كسب مودتهم واحترامهم لـما بذلوه في سبيلهم من اخلاص ونكران ذات ، تأتي اسماء رجـــال البعثات الطبية والتبشيرية في المقدمة . ولقد كان من حسن حظي وانا طفلة ، ان اتعرف الى الدكتور مايلري الذي كان عضواً بارزاً في البعثة الاميركية مع انه كان بريطانيـــاً . والطبيب مـــايلري هو الذي انشأ اول مستوصف في الكويت سنة ١٩١١ وقضى ثلاثين عاماً يعيش ويعمل بين الكويتيين . وبالرغم من اعتزاله الحياة العملية منذ أيام الحرب الاخيرة ، واستقراره نهائياً في الهند ، فما زال يقوم بزيارات منتظمة إلى مراكز البعثة في الخليج حيث يزوّد الموفدين الجدد بخلاصة اختباراته وتجاربه التي قضى عمره في اكتسابها ولاسيما خلال اسداء خدماته للعرب .

والدكتور مايلري رجل انساني نبيل يؤمن ايماناً راسخاً بالدين . وهذا ما ساعده على ان يتخطى كافة العقبات التي واجهته ايام اداء رسالته في الكويت ؛ تلك العقبات التي قصمت ظهور العديد من الرجال قبله ، فكنت تراه دائماً بادي المرح والبشاشة ، وعلى استعـداد تام لكي يصغي الى كل من يحتاج الى خدماته ويبادر الى مساعدته . كذلك كانت زوجته الاميركية التي ظلت ملازمة

اياه في الكويت منذ قدومه اليهـا ، خير من يعول عليه في اداء رسالته . هذا وما زالت راسخة بذاكرتي منذ ايام الطفولة صورة مشهد السيدة مايلري وهي تعزف على الارغن وزوجها يتلو على مسامعنا اصحاحاً من الانجيل كلما اقامت البعثة قداساً في كنيستها .

ويعتبر الدكتور مايلري شاهد حق للتطور والتفـاعل اللذين طرآ على الكويت خلال السنوات التي قضاها هناك اكثر من اي شخص انكليزي آخر . وكم كان يتلذذ برواية القصص عن الشيخ مبـارك العظيم او عن الكابتن شكسبير الشجاع الذي رفع فيما بعد الى منصب معتمد سياسي على الرغم مما اتصف به من حدة المزاج وشدة العصبية . ومما تجـدر الاشارة اليه ان مهارة الدكتور مايلري وبراعته في الطب جعلت الملك الراحـل عبد العزيز آل سعود يستدعيه ليشرف على معالجته ، ففي عام ١٩١٤ سار سلطان نجد منطلقـاً من منطقة الاحساء على رأس قوة قوامها ثلاثمـائة رجل وضرب معسكره على مسافة ٢٠ ميلاً من الكويت ، وحدث يومذاك ان اصيب كثير من رجـاله بمرض الملاريا لاقدامهم على شرب الميـاه الآسنة والراكدة في الجنوب ، فكتب ابن سعود الى الشيخ مبارك ان يوفد له طبيب البعثة الاميركية الذي وصلته انباء نطـاسته ليقوم بمعالجة رجاله . ولم يخيّب الشيخ مبارك امل السلطان وأوفد اليه الطبيب في افخم عربة يملكها ، فبقي في معسكر ابن سعود ما دام رجـاله بحاجة الى خدماته الطبية ، والذي لا شك فيه ان اخلاص وتفاني الدكتور مـايلري قد تركا انطباعاً لا يمحى في نفس السلطـان عبد العزيز ، وكانت زيارة الطبيب للمعسكر فـاتحة صداقة قامت بينه وبين الملك ابن سعود ، تلك الصداقة التي ظلت وثيقة العرى حتى وفاة الملك .

ولطالما حدثنا الدكتور مايلري كيف كان يعلو ظهر الحصان او الحمـار كلما دعاه الواجب لزيارة مريض في الكويت في ظرف كان النـاس ينظرون فيه باستهجـان الى وجود رجل اوروبي بين ظهرانيهم ، وقد يحصبونه اذا مرّ من امامهم ، ولكنهم أخذوا مع الايام يقتنعون بالخدمات الجليلة التي تقدمهـا

البعثة ، ونياتها الطيبة ، وصاروا ينظرون الى الدكتور مـايلري نظرتهم الى صديق يمكنهم الاعتماد عليه عندمـا يصابون بالمرض ، والحقيقة ان الدكتور مايلري كسب ود جميع السكان وثقتهم حتى انهم باتوا يسمحون له بالدخول على النساء في بيوتهم لتقديم العلاج الطبي لهن .

وفي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٥٢ قام الدكتور مايلري بزيارة للكويت حيث رقد رقدته الاخيرة في نفس البيت الذي عمل فيه طويلاً كطبيب للبعثة . وقد دُفن في مقبرة صغيرة تضم رفـات المسيحيين في الكويت حيث يقرأ الانسان اليوم على صفحة ضريحه :

« هنا يرقد انسان جاء ليسدي يد العون لمن يحتـاج اليها لا يبغي من وراء ذلك نفعاً ... »

ولا بد من التنويه بأن الدكتور مايلري سعى خـلال سنوات الخدمة التي قضاها في الكويت لتعزيز الصداقة وتوطيدهـا ما بين الكويتيين والانكليز والاميركان أكثر من أي شخص آخر . وعندما كان الاهالي يشعرون بعدم الثقة بالاجانب ، كانوا ينظرون الى الدكتور مايلري كمثل اعلى للنزاهة والاستقـامة ويتخذونه مقياساً للحكم على رجـال الغرب ، وبذلك يكون قد مهد السبيل لقيام أطيب العلاقـات ما بين العرب وافراد الجالية الانكلو - اميركية في الكويت .

ومنذ تأسيس مركز البعثة في الكويت دأب الدكتور مايلري وزملاؤه على العمل لاقناع الشعب بجدوى العلاج المستورد من الغرب والحـاجة الى الاهتمام بمكافحة عشرات انواع الأمراض التي تتفشّى نتيجة لظروف الفقر والقـذارة بين سكان مدينة الكويت والصحراء . ويقال ان كثيراً من السكان تخوفوا من تلقيح انفسهم ضد الجدري عندما انتشر هـذا الوباء في الكويت سنة ١٩٣٦ وفضلوا الاستسلام الى القدر على ان يسمحوا لانفسهم أو لأولادهم بالتلقيح. واذا ما عرفنا اليوم ان الامهات هن اللواتي يحملن اولادهن لتلقيحهم ضد الجدري او غيره من الامراض السارية، ادركنا كيف تطور الكويتيون واقبلوا على الطب الحديث

والعمل وفق مقتضياته .

وتشرف البعثة اليوم على إدارة مستشفيين احدهما للرجال والآخر للنساء ، وتقدم الخدمات الطبية لكل من يحتاج اليها . وقد تتقاضى البعثة احياناً مقابل الخدمات الطبية التي تقدمها للاهلين ، اجوراً تختلف حسب امكانياتهم ، ولكن لمـــا كان معظم المرضى من افراد البدو الذين لا يمكنهم دفع نفقات العلاج فمستشفيات البعثة تعالج الالوف منهم سنوياً بالمجان .

وعلاوة على ذلك فان البعثة تقوم اليوم بتشييد مستشفى ثالث لهـــا تخليداً لذكرى الدكتور مايلري سيحمل اسمــه . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٥٤ أقامت البعثة حفلة رسمية أرسى خلالها صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح والدكتور سكادر حجر الاساس لذلك المستشفى. ولقد ألقى سمو الشيخ عبدالله خطاباً في تلك الحفلة عبر به عن رقيق مشاعره وامتنانه لاستمرار البعثة الاميركية بتأدية رسالتها الجليلة التي أقام دعائمها الدكتور مايلري في عهد جهده الشيخ مبـــارك .

المرأة الكويتية

في الوقت الذي يتعرف الرجـل الانكليزي في مدن شبه الجزيرة العربية الى الرجال من العرب ويحظى بمعاشرتهم وصداقتهم، تتمتع المرأة الانكليزية بأفضلية التعرف الى النساء العربيات والدخول الى منازلهن .

وقد تسنى لي ، في عدة مناسبات ، أن ازور النساء العربيات في بيوتهن وارى عن كثب الحيـــاة التي يعشنها داخل البيوت المعروفة بحرم المرأة . والاثرياء من العرب سكان المـدن يبنون بيوتهم حول مساحتين ، مستقلة الواحدة منها عن الاخرى، ومنسقة بشكل يجعل احدى ساحـتي المنزل والغرف المبنية حولها خاصة باقامة الحريم . وهذه الساحة وغرف السكن التي تتبعهـا تشكل جناح النساء من البيت ، بينا تخصص الساحة الثانية والغرف المبنية حولها لجناح الرجال وتعرف بالديوانية . ولكل جناح مدخله الخاص ، لأن مدخل جنـاح الحريم يبنى دائماً بشكل لا يسمح للمارة برؤية الجالسين في الداخل ساعة يمرون أمام البيت . وغالبـاً ما تكون الطريق المؤدية الى داخل جناح الحريم بشكل زاوية حادة ، وإلا وضعت ستارة عند المدخل او خلفه . وهناك اسطورة قديمة تقول ان بيوت الحريم تبنى بهذا الشكل ليس لتأمين الحرية البيتية فحسب، بل لطرد الارواح الشريرة وردّها عن دخول الحرم ، لان الارواح الشريرة حسب مفهوم الأسطورة تسير على خط مستقيم ولا تستطيع اللف والدوران .

كان كل بيت من البيوت التي كنت ازورها مؤثثـاً برياش يتناسب وذوق ربّ البيت ، فالتـاجر الذي تبلور ذوقه في الاطار الغربي يؤثث بيته برياش حديث ومفروشات مستوردة من اوروبا . وقد يرى المرء في غرف زوجـات التجار أسرّة فخمة ، وستارات اوروبية الصنع ، ومنـاضد فاخرة تتكدس

فوقها احقاق الزينة الاوروبية . وقد يجد بين بعض النساء اللواتي ينتمين الى الطبقات الفقيرة من تفضل الجلوس على الارض كما اعتادت منذ طفولتها ، ولكن هذا لا يمنعهن من تجهيز غرفة خاصة بالمقاعد والمناضد لاستقبال الضيوف؛ بينما تضع في غرفة نومها فراشاً على الارض تنام عليه بدلاً من النوم في السرير . وكم من مرة رأيت فيها الفتاة الكويتية المثقفة تجلس على كرسي بينما والدتها محتبية على الارض .

ولا مشاحة أنه مع انتشار الثقافة والعلم خلال السنوات العشر الماضية قد نشأ جيل من الفتيات اللواتي يتحلين بالبراعة والحذاقة ، فضلاً عن شديد اهتمامهن بالأمور التي لم تخطر ببال الاجيال السابقة من الفتيات اللواتي كن يفتقرن الى العلم والثقافة مما حرمهن من لذة المطالعة في الكتب والمجلات للتعرف على الأفكار الجديدة . ومما يدعو الى الدهشة حقاً ان المرأة الكويتية التي تعيش اليوم في المدن اصبحت ترتدي ثياباً قد فصّلت حسب الازياء الاوروبية ويعزى هذا التغيير الى تأثر الفتاة المحلية بمعلمات المدارس السوريات والفلسطينيات اللواتي يعلمنهن كيفية ارتداء وانتقاء الالبسة الجاهزة حسب الازياء الغربية بالاضافة الى تعليمهن مبادىء القراءة والكتابة . وكم تتوق الفتاة العربية في الكويت الى الاطلاع على المزيد من المعلومات والمعارف التي تنشرها المجلات الصادرة في مصر وغيرها من البلدان العربية .

وقد يدهش المرء إذا ما رأى المرأة العربية وهي تجاري صنوها الرجل في مجالي الكياسة والاحتفاء بالضيف . اما طبيعتها فمجبولة ابداً على البشاشة واللطافة . والمرأة العربية معطاء سخية الى حد الافراط اذا ما نزل بساحتها ضيف ، وأقل ما يمكن ان ينعت به هذا السخاء هو انها لا تدع مناسبة تمر مهما كانت طبيعة الزيارة ، دون ان تقدم الطعام والشراب لضيوفها .

وغالباً ما كانت احاديثنا – كلما قمت بزيارة احدى صديقاتي – تدور حول مواضيع شتى ، لكنها جميعاً تتعلق بواجبات المرأة لتربية الاطفال والطهو وشراء حاجيات البيت والملبس وغير ذلك ؛ وقد تدور حول اشياء معينة

وكيفية قيام المرأة الانكليزية بها .

واذكر ذات مرة انني تطرقت في حديثي اثناء زيارة لصديقة لي الى الصور التي التقطها لبعض البيوت القديمة في المدينة ، وكم كانت دهشتي بالغة عندما شعرت بتململ صديقتي من اهتمامي بالكويت القديمة ، وسألتني عن السبب الذي يدفعني لهدر وقتي سدى بالاهتمام بالاشياء القديمة بينما تزخر الحياة بالكويت بالاشياء الحديثة الرائعة والجديرة بالاهتمام ؛ وعندئذ اخذت اوضح لها ان بعض الابنية القديمة الفخمة غدت على وشك الزوال ، وأن من الاهمية بمكان الاحتفاظ ببعض الذكريات عنها قبل ان تصبح في خبر كان . وقد علقت فتاة في السادسة عشرة من عمرها ذات ثقافة عالية على شروحي هذه تقول بحرارة : « ألا دعيها – اي الابنية – تزول من الوجود ? فمن الذي يريد بقاءها الآن ? فالكويت الجديدة وليست الكويت القديمة هي التي تستحق تقديرنا واعتبارنا الآن . »

●

ولا شك أنه مع انتشار الافكار الحديثة بين أوساط الفتيات المثقفات في الكويت فسيحصلن شيئاً فشيئاً على حرية اوفر في حياتهن اليومية . والحقيقة ان بعض التقاليد الضيقة التي كانت تسير الفتاة على سننها قد غدت اليوم موضع الاهمال واللامبالاة ، على حين أنه الى زمن غير بعيد لم تكن فتيات الاسر العريقة لتغادرن بيوتهن إلا للقيام بزيارة بعض أقاربهن وقريباتهن ، وقد تخرج الواحدة منهن مرة واحدة في السنة بنزهة الى الصحراء ، وكان من غير اللائق بامرأة او فتاة تنتمي الى اسرة مرموقة في المجتمع ان تخرج الى السوق لتشتري بعض الحوائج ، وكان الخدم هم الذين يقومون بذلك .

أما اليوم فقد غدت الفتيات والشابات يذهبن الى السوق وإلى دور الخياطات لشراء الملابس والفساطين . ومع توفر السيارات في الكويت اصبح ارباب الاسر الثرية يضعون سياراتهم تحت تصرف زوجاتهم كي يسهلوا لهن الخروج من البيت والتطواف بالسيارة في ارجاء المدينة للتمتع بمناظرها . وفي السنوات الاخيرة

شرع أرباب الثراء نظراً لتـأثرهم بالافكار الحديثة يصطحبون زوجاتهم وبناتهم خارج الوطن الكويتي لقضاء فصل الصيف ولاسيا في لبنـان ، واعرف سيدة صديقة رافقت ذات مرة زوجهـا إلى لندن حيث يتلقى اليوم ثلاثة من أولادهما دراستهم في احد المعاهد البريطانية .

ولقد رأيت من الافضل ألا اصرّح باسماء النساء اللواتي قمت بزيارتهن في بيوتهن حيث اطلعت على بعض تقـاليدهن وعاداتهن الخاصة ، وذلك حرصاً مني على حرمة حياتهن الخاصة ، بعد أن أزحت الستار في هذا الفصل عن شيء من التفاصيل التي شاهدتها في البيوت .

وليس في الكويت أية حركة تنادي بتحرير المرأة [١] ، ولم أسمع طيلة حياتي بامرأة ما عبّرت عن رغبتها في ان تسير يوماً ما دون حجـاب إذا سافرت إلى خارج وطنها ، كما ان الاهتمام الجديد الذي أثاره العلم في نفس الفتاة الكويتية لا يشمل القضايا السياسية والاجتماعية ، ومرد ذلك – على ما أعتقد لا يعود الى كون الفتاة الكويتية راضية عما يجري في محيطها شأنهـا في ذلك شأن امها وجدتها التي لم تبدِ فيما مضى اي تذمّر او تبرّم من حياتها على الرغم من انهـا كانت تخضع لتقاليد وعادات صارمة تلزمها العزلة والانطواء على نفسها في بيتها. والغربي الذي يتصور الضجر الذي يلم بالظروف الحياتية للمرأة ، تغيب عن ذهنه الظروف الخاصة التي تجعل حياتها ليست مقبولة فحسب ، بل لذيذة وممتعة حقاً ، ذلك لأن الاسرة العربية تكون في الغالب الأعم عديدة الافراد ، ممـا يجعل ربة البيت محاطة بالعديد من الاولاد والاطفال على اختلاف اعمارهم . وليس من الضرورة بمكان ان يكون جميع هؤلاء الاطفال اولادها ، بل يكون بينهم

---

١) سارت المرأة الكويتية منذ وضعت المؤلفة هذا الكتاب خطوات واسعة في مضمار التقدم ، وكان لا بد للنهضة التعليمية والصناعية والاجتماعية من ان تنعكس في حياة المرأة ايضاً ، فتنتقل بها من عزلتها السابقة الى ميدان التحرر والتطور والمشاركة الفاعلة في وثبة وطنهـا والتجاوب الواعي مع كل حركة تقدمية في العالم العربي . – المترجم .

أحفادها كذلك. هذا فضلاً عن الخدم وأولادهم ، ذلك لان رب كل اسرة موسر يضم الى بيته عدداً من الخادمـــات ممن تنشأ بينهن وبين وبات المنازل اوثق وشائج الاخلاص والمودة والاحترام . ولذا قلما تعرف الحيــاة في أوساط النساء العربيات الوحشة والعزلة . وأعتقد ايضاً ان الحيــاة والألفة الشائعة في اجنحة النساء توفر للمرأة لذة ومتعة ، هيهات ان تتوفرا للمرأة الغربية رغم ما تنعم به من حرية، خاصة إذا لم يكن لها اولاد .

كذلك تساعد فسحة الدار في جناح الحريم المرأة العربية على تخفيف شعورها بالعزلة في البيت إذ تجلس النساء في فناء الدار تحت السماء ، أو يقمن بواجباتهن المنزلية في الهواء الطلق وهن يراقبن أولادهن يلعبون . وليس هنــاك اي بيت كما يشاع، تعيش فيه المرأة العربية ساجنة نفسهــا ضمن جدران الغرف الاربعة ، لأن العرب يعتقدون ايضاً – وهم على صواب فيما يذهبون اليه – أن الحيــــاة لا تطاق إذا ظلت محصورة ضمن الجدران الاربعة .

●

ذات مرة ، وانا أقوم بزيارة احدى صويحباتي في المدينة اتيحت لي فرصة مشاهدة بعض قطع الحلي الذهبية والجوهرات التي يقدمها الرجال العرب لزوجاتهم ، وعادة خزن الثروات بتحويلها الى قطع من الحلي واتحاف النساء بها عـــادة عريقة في المجتمعات العربية . ومن النادر ان توجد أسرة واحدة من الأسر الميسورة لا تملك كمية محترمة من الحلي والجوهرات التي يشتريها الرجل في شتى المناسبات ليتحف بها افراد اسرته .

واستجابةً لطلبي ، قامت السيدة المذكورة ، وأحضرت صندوقاً أخرجت منه مجوهراتها الثمينة وكدّستها أمامي على الارض حيث كنا جالسين ، وكم كانت دهشتي بالغة عندما ألفيت جميع تلك الحلي والجوهرات من القطع الكبيرة والثمينة . فكان منها القلادات التي صيغت من الليرات العثمانيــــة الذهبية وأخرى صيغت من الذهب الخالص ورصّعت ببعض الاحجار الكريمة ، وهناك الأحزمة المرصعة بالفضة ، وجميع تلك الحلي ذات صنع محلي ، وكذلك

كان معها بعض القطع الهندية الصياغة ، وهذه الاخيرة كانت تضم قلادات ذهبية مرصعة بالاحجار الكريمة كالزمرّد والياقوت واللؤلؤ . وعلى الرغم من أن عادة استثمار المال بشراء الذهب تقليد مغرق في القدم ، فلم يكن الرجل العربي فيما سلف ليشتري لزوجته اللؤلؤ والاحجار الكريمة . بيد ان هـذه العادة قد درج عليها المشايخ والتجار في السنوات القليلة الماضية عندما أخذوا يشترون الجوهرات من الهند . وقليل منهم من أهدى زوجـه قلادات من اللؤلؤ حديثـاً ، وأخذ بعض الرجال اليوم يزينون أصـابعهم بخواتم ذات فصوص من المـاس ، وقمين بالملاحظـة ان الثريّات من النسـاء لا يتحلّين بحلي فضية .

وعندما سألت مضيفتي عن المناسبات التي تتزين فيها بهذه الحلي والجوهرات أجابت بأنها لن تتزين بها بعد الآن مهما كانت المناسبة لانها طعنت في السن ولا يليـق لمن هي في مثل سنها ان تتحـلّى بالذهب والجواهر . وهكذا ظلت تحتفظ بهذا الكنز الثمين في صندوقها الصغير سنة بعد سنة لتقدمـه فيما بعد ، كله أو بعضه ، هدية لأعقابها من الفتيات كما تلقتـه هي . وأروع من كل ذلك ان خادمتها الامينة تستطيع استعارة بعض الحلي والجوهرات لتتزيّن بها إذا ما دعيت لحضور حفـلة أو عقد قران . وفي مناسبات شتى لا تتردد بعض كرام السيدات عن اعارة عروس في ليلة زفافها حليّها ومجوهراتها كي تتزين بها .

ولم تكد تمضي فترة وجـيزة على زيارتي تلك حتى أتاح لي الحظ مشاهدة عروس تتزين بمثل تلك الحلي والمجوهرات ليلة زفافها .

فيما كنا نمر ، ذات يوم ، من أمام بيت صديق لنا ينتمي الى أسرة فقيرة ، إذا بهذا الصديق يخبرنا ، بعد تبادل التحيات ، ان ابنته ستـتزوج في تلك الليلة ، ودعانا لحضور حفلة زفافها . فلم يكن في وسعنا إلا ان نلبي دعوتـه ، فدخلنا الدار لنمضي بعض الوقت هناك ، وقادنا ذلك الصديق الى غرفـة صغيرة بجانب فناء المنزل اعدت لاستقبال العريسين ، فرأينا فيها وثير الفراش

وجميل الوسائد مرصوفة على الأرض ، بينا أسدل ستار أبيض على احدى زوايا الغرفة حيث سيتم اجتماع العريسين .

وعندما سألنا الرجل عن ابنته التي كانت على وشك الزواج اخبرنا بأنها جالسة في الغرفة المجاورة تبكي لأنها خائفة ، وهكذا انتقلت ووالدتي إلى الغرفة الثانية حيث كانت العروس بالانتظار . وكم كانت دهشتنا بالغة عندما وجدناها مرتدية أزهى الثياب لكنها منزوية في إحدى الزوايا ، والكآبة بادية على وجهها . ولما اقتربنا منها حجبت عنا وجهها وامتنعت عن التحدث الينا .

في هذه الاثناء كان ذوو العروس يجدّون في الحصول على وثيقة الترخيص بالزواج ، بينا كانت والدتها وبعض النسوة الاخريات من اقربائها يساعدن العروس على اعداد نفسها ، ذلك لأن العروس في مثل هذه المناسبة تستحم وترتدي ثيابها بمساعدة والدتها وغيرها من النسوة اللواتي يصففن لها شعرها وينضحنه بالطيب ، كما يخضبن يديها وقدميها بالحناء ، ويكحلن ناظريها ويوردن شفتيها بأحمر الشفاه ، ولا ينسين أن ينضحن جميع زوايا الغرفة بالعطور .

وفضلاً عن هؤلاء النسوة ، كان هناك أخريات يقمن بالاستعدادات للاحتفالات التي سيحييها ذوو العريس مساء ، وطبيعي ان يدعى جميع أصدقاء أبوي العروس واقربائها لتناول طعام العشاء الذي غالباً ما تعقبه حفلات يعمرها الغناء والرقص .

وفي هذه الحفلة يقوم ذوو العروس بجميع الترتيبات ويتجمع كل ذوي العريس من الذكور في بيته ثم ينطلقون مشياً على الاقدام الى بيت العروس . وليس من المستهجن ابداً رؤية العريس مع لفيف الاقارب والاصدقاء يسيرون في أحد شوارع الكويت مساءً في طريقهم الى بيت العروس ، وكم ستكون دهشة المتفرج بالغة عندما يرى مرافقي العريس حاملين بأيديهم المشاعل يتقدمهم العريس يسير على جنبه وجوه اسرته ، بينما تمشي فرقة

الطبول والزمور في المؤخرة يسير موكب العريس على أنغامها وألحانها .
وغالباً ما يقوم مرافقو العريس بالغناء والتصفيق في مسيرهم الى بيت العروس
بما يتناسق وينسجم وقرع الطبول . وحديثاً تسنّى لي رؤية جماعة ذاهبة
بالسيارات لاقامة حفلة زفاف ، وقد تبعتها سيارة شحن كبيرة كان على
ظهرها حملة الطبول . وأعتقد أنه لن يمضي طويل وقت حتى تصبح عادة
السير على الاقدام لمقابلة العروس في بيتها ضرباً من التقاليد المهملة كما اهملت
غيرها من التقاليد .

وبعد الزواج ، يجلس كل من العروس والعريس في غرفة منفردة
لاستقبال المهنئين من كلا الجنسين ، ويظلان كذلك لمدة ثلاثة أيام
يستقبلان الضيوف ، بينما يقوم أقاربها بالاحتفاء بأولئك المهنئين
والترفيه عنهم .

وهكذا قصدت بعد يومين من زواج ابنة صديقتنا نفس البيت الذي
شهد حفلة الزفاف ، وكانت والدتي كعادتها ترافقني ، فبادرتنا والدة العروس
بعبارات الترحيب وقادتنا الى الجانب الآخر من فناء الدار بعيداً عن غرفة
ابنتها ، ثم طفقت تعتذر لنا لأننا قد بكّرنا في المجيء الى البيت إذ ما زالت
ابنتها راقدة وعريسها في الغرفة الصغيرة ، وانتقلنا الى غرفتها حيث أكرمت
وفادتنا وحدّثتنا بالتفصيل عن كل ما جرى في الليلتين الماضيتين .

وهكذا ، وبما أننا لم نتمكن من رؤية العروس في ذلك اليوم ، فقد
زرناها في صباح اليوم التالي فوجدناها جالسة في غرفتها لاستقبال الزوار ،
وقد لبست ابهى ثيابها وازهاها وقد زينت جيدها بمجموعة ضخمة من
الحلي الذهبية التي اعارتها اياها احدى زوجات الشيوخ لتتزين بها في
زفافها ، وكم كانت دهشتي بالغة عندما رأيت صدرها يتلألأ بعقد من أغلى
العقود واثمنها ، وقد توّجت رأسها باكليل تتوهج حبات لآلئه وتزهو ،
كما كان يتدلّى من ضفائر شعرها الأثيث قطع النقود الذهبية ، أضف إلى
ذلك قرطين ذهبيين يتدليان من اذنيها ، وأساور زينت بها معصميها وذراعيها

فضلا عن مجموعة كبيرة من القلائد .

وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا العروس هادئة البال مطمئنة الخاطر ، وقد استقبلتنا بمنتهى الكياسة واللطف ؛ حتى انها وافقت على الخروج معنا إلى صحن الدار كي نلتقط لها صورة وهي مرتدية هذه الثياب الفاخرة الجميلة وتتزين بتلك الحلي والجوهرات الثمينة .

*

إن زواج ابن العم البكر لابنة العم البكر تقليد يسير عليه العرب المدنيون وسكان البادية على السواء في الكويت . ويعتبر مثل هذا الزواج شيئاً مقدراً للفتاة الكبرى . ولكن اذا صدف وكانت لا ترغب بالزواج من ابن عمها ، كما يحدث في بعض الاحيان ، فلن تتمكن مثل تلك الفتاة من الاقتران بشاب آخر دون ان تحظى بموافقة ابن عمها على ذلك الزواج .

وقصة خادمتنا حمدة برهان ساطع على نتائج الخروج على التقاليد ، والصعوبات التي تعتور طريق من يتمرد على أعراف قومه . فعندما أصبحت حمدة في سن السادسة عشرة اخذت اسرتها تستعد لزفتها الى ابن عمها البكر ، ولكن حمدة رفضت الزواج منه لما تعرفه من دمامة منظره وتشويه خلقته ووجهه الذي تكسوه آثار الجدري وما تركت عليه من بثور وحبيبات ، فما كان من ابن عمها الذي طعنته بكبريائه الا انه رفض ان يحيد عن طريقها ، وان يضغط على أهلها كي يرغموها على قبوله زوجاً لها . ولكن حمدة تشبثت برأيها ورفضت جميع محاولات ابن عمها وذويه ، فضلا عن مداخلات ذويها ، الأمر الذي دفع بابن العم على ان يصمم على عدم السماح لها بالزواج من سواه ما دامت ترفض الزواج منه . ثم اتخذ ضدها موقفاً كان أكثر عنفاً وأشد وقعاً ، ففي ذات مساء كَمَن لها في الطريق بينما كانت عائدة الى البيت وأطلق عليها الرصاص من مسدسه فأصابها في ظهرها اصابة خطيرة مما استوجب نقلها الى المستشفى حيث بقيت عدة اسابيع تحت المعالجة ، الا

انها ما لبثت ان شفيت وتزوجت من رجل آخر كانت تشعر نحوه بمودة اكثر مما شعرت نحو ابن عمها .

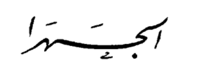
غير ان قصة حمدة لم تقف عند هذا الحد ، وكانت مغبتها اكثر بؤساً واقسى فداحة ، ذلك ان الزواج الذي تحملت بسببه الكثير من العنت الشاق وحسبت بأنها اذ حققته ، قد بلغت نهايـة المطاف بالمتاعب ، عاد ليلف حياتها بغمامة من الكآبة والحزن ، اذ أدركت حمدة بعـد زواجها استحالة انجاب الاولاد بسبب الطلق النـاري الذي اصابها في ظهرها ، ثم انتشر بين صويحباتها بأنها تتلهف على رؤية طفل تربيه وترعاه ، وذات ليلة جاء من وضع على باب دارها مولوداً في يومه الاول عثرت عليه في الصباح ، وبدهي ان الطفل كان ابناً غير شرعي حملته امه بعد ان وضعته بصورة سرية ، وتركته حيث تصورت بأنه سيلقى كل عناية واهتمام .

والحقيقة ان حمدة سرّت كثيراً عندما عثرت على الطفل بباب دارها، فتبنته وراحت تربيه وتعنى به كما لو كان طفلها بالذات ، فعاش الطفل وترعرع حتى اصبح في العشرين من عمره .

ومن المعروف ان الشاب العربي عندما يبلغ سن الزواج يسعى جـاداً للعثور على زوجة له كيلا يقال بأنه فاقـد الرجولة ، ولم يشذ ابن حمدة بالتبني عن هذه القاعدة ، غير ان العقبات كانت تعترض سبيل زواجه من أية فتاة ، ذلك لأن الجميع كانوا يعرفون بأنه لقيط ، ولذلك ، لم يكن هناك من يرضى بتزويج ابنته من شاب مطعون بنسبه وحسبه مهما كانت الاسرة التي تبنـّته وربّته رفيعة المنزلة ، وضاق صدر الشاب ولم يعد يطيق الاحتمال اكثر مما احتمل فما كان منه ذات يوم الا ان ركب رأسه ، وفي لحظة من لحظات اليأس والقنوط دخل الى أحد اجنحة النساء بدون استئذان كما تقضي بذلك العادات والتقاليد . ولما شعرت النسوة بدخول شخص غريب عليهن تولاهن الذعر واخذن بالصياح ، فما كان من الشاب الا ان قـال لهن إنه يبحث عن زوجـة لاعتقاده بأن هذه الحجة ستبرر مخالفة ما تواضع

عليه المجتمع وتعارف ، واذ ذاك اشتد صياح النسوة طالبات النجدة ، فهب لتلبية نجدتهن جميع افراد عائلاتهن من الذكور ، فقبضوا على الشاب التعيس وساقوه الى دائرة الشرطة . ولما بلغ الخبر مسامع حمدة تولاها الذعر والجزع على ابنها فهرعت الى مركز الشرطة مدعية بأن ولدها مختل الشعور ، وذلك طلباً لنجاته من العقاب الذي سينزل بساحته واقله الجلد امـــام الجمهور . وعندئذٍ سيق المسكين الى مستوصف الأمراض العقلية حيث لبث هنـــاك بضعة شهور سمح بعدها لحمدة بأن تنقـــله الى البيت شرط ان تحجر عليه كيــلا يعود ثانية الى مثل فعلته . وها هو الشاب لا يزال حتى اليوم مكبلاً بالحديد محجوراً عليه ، كما ان حالته أخذت في الآونة الاخيرة تسوء شيئـاً فشيئاً ، ويرجح بأنه أصيب بخلل فعليّ في عقله نتيجـة وضعه في مستشفى الأمراض العقلية ومعالجته بضعة اشهر على اساس انه مختل الشعور ، مع العلم بأنه كان يتمتع بكامل قواه العقلية .

وهكذا لم تحل عقدة هذا الشاب الذي كان ينشد الزواج عن هذه الطريق بل غدت مشكلته الآن غير قابلة للحل .



يعتقد العرب فيما يعتقدونه بأن ظهور نجمة سهيل صباحاً في السماء يتوافق ونهاية فصل الصيف ، وفي أوائل الخريف يشرع الناس بالتفرس في الأفق الجنوبي قبل بزوغ الفجر ، حتى إذا ما تراءت لهم تلك النجمة تمتموا بآيات الشكر والحمد لله على انقضاء فصل القيظ والجو المحرق . وتلك الفكرة بحد ذاتها مدهشة وسارة ، ولكن نادراً مايقترن هذا التوقع بالحقيقة .صحيح ان الكويتيين يرحبون بظهور نجمة سهيل سنوياً كرمز يشير الى الخلاص ، ولكن حدّة الشمس لا تأخذ بالانخفاض عادة قبل انقضاء الشطر الاول من شهر تشرين الاول (اكتوبر) .

ومن المعروف ان نظرة البدو الى الحياة هي نظرة مشبعة بالتسليم لمشيئة الله ، ولكن حرارة الشمس اللاهبة ترهق أعصاب أكثر الناس احتمالاً للعذاب والشقاء ، ذلك الارهاق الذي تظهر آثاره على وجوه الناس الشاحبة وأجساد المواشي العجفاء .

وفي سنة ١٩٤٦ تراءى للناس ان ليس للصيف نهاية إذ توالت ايام الخريف اليوم تلو اليوم دون ان يلوح في الأفق ما يبشر بتلطيف الجو ، فكانت رمال الصحراء اللافحة التي ألهبتها حرارة الشمس تتلألأ بريقاً وشعاعاً عندما اخذنا سمت الطريق الى الجهرة في ظهيرة يوم من اواخر أيام تشرين الاول (اكتوبر) والجهرة واحة صغيرة تبعد مسافة عشرين ميلاً الى الغرب من الكويت .

كانت الطريق الساحلية قاسية كالاسمنت المصبوب لكثرة ما مرت بها السيارات والعربات في الصيف . وكم كان بعيداً عن التصديق الاعتقاد بأن الزخات الاولى من المطر ستحيل تلك التربة التي أحرقتها حرارة الشمس طيناً ،

وتجعل من تلك الطريق مستنقعاً يخدع المسافرين ، وتتحول تلك الارض السبخة الى بؤرة خطرة يعرفها سائق الصحراء حق المعرفة ، ومن بعيد كان المرء يرى تلك الارض السمراء المجبولة بماء البحر وقد نبتت الاعشاب على جانبيهـــا على شكل حزام من الاخضرار الرائع الذي يريـــح النظر بعد ان يكون قد مل التحديق في الرمال البيضاء المتألقة تحت أشعة الشمس ، والممتدة إلى ما لا نهاية . والأعشاب التي تنبتها هذه الارض المنبسطة المشبعة بالملوحة هي احدى النباتات الصحراوية التي تزدهر في لهيب أوار الصيف ، ولكن دون ان يتوخى منها أية فائدة للماشية ، والحيوانات الوحيدة التي ترعى أوراقهـا المزة هي الحيوانات التي ترحل من المناطق الجنوبية ذات الأراضي المعدومة الملوحة .

ولقد قدر لنا في ذلك اليوم ان نشاهد جيف العديد من الجمال ملقاة بجانب الطريق بعد ان قضى عليها وباء مجهول انتشر صيف سنة ١٩٤٦ ، وأصاب جميع مواشي وحيوانات شبه الجزيرة العربية . وقد احرقت مئـات تلك الجيف لمنع انتشار الوباء حرقاً كاملاً لم يدع من آثارها غير اكوام من الرماد .

وعلى مقربة من الجهرة طريق تؤدي الى تل قليل الارتفاع يعرفه البدو باسم تل الفضيحة ،وتقول الاسطورة ان هذا التل قد دعي بهذا الاسم إثر مداهمة فريق من المسافرين – وصلوا صباحاً إلى ذلك التل – رجـــلا وامرأة قضيا ليلتهما مضطجعين متلازمين فوقـــه . وفي هذه النقطة من التل لمحنـــا ، لاول مرة ، شجار النخيل السامقة في الجهرة .

وتجدر الاشارة الى ان واحة الجهرة تتألف من قرية صغيرة تقع على حافة الأراضي المغروسة بالنخيل والمزروعة بالخضار . كما ان فيها بعض الآبار التي تحوي كميات وفيرة من مياه الشرب . واثناء الصيف يتضاعف عدد سكان تلك الواحة بسبب قدوم مئات الاسر لتقيم خيامها قريباً من الآبار . وطبيعي ان تجلب تلك الأسر مواشيها وجمالها .

وبما أننا كنا في طريقنا الى الجهرة من الجهة الجنوبية الغربية فقد تابعنا سيرنا باتجاه خيام البدو بعد ان تخطّينـــا قصراً يدعى « القصر الاحمر » ، كان سنة

١٩٢٠ مسرحاً لمعارك دموية سجّلها تاريخ الكويت ، إذ قـــام آنذاك فيصل الدويش وهو احد زعماء القبائل الكبيرة في المملكة السعودية بمحاصرة الحامية الكويتية في القصر اثناء هجوم قام به على الأراضي الكويتية ، وقد تولى الحاكم الاسبق الشيخ سالم الصباح والد الشيخ عبدالله حـــاكم الكويت الحالي ، وكان محاصراً هو ورجاله في القصر ، قيادة رجال الحامية ، وقام على رأسهم بهجوم بطولي معاكس فتمكنوا من فتح ثغرة في صفوف قوات فيصل الدويش المهاجمة . ويقال أن العدو قد خسر ثمانمـــائة مقاتل في محاولة يائسة قام بها لدك اسوار القصر .

وهناك من يعتقد بان « القصر الاحمر » قــد دعي بهــذا الاسم نسبة الى لون الحجارة التي شيد منها ، ويعتقد آخرون بأن اسمه يرمز الى المعركة الدموية التي دارت حوله . ويرى الانسان حتى يومنـــا هذا العديد من القبور حول اسوار القصر ، ولكنْ من المرجح ان تكون معظم جثث القتـلى قد القيت في الآبار لتفادي انتشار الاوبئة لان تلك المعركة دارت رحاها في منتصف فصل الصيف .

ولا مشاحة في أن الحصار الذي تعرض له قصر الجهرة قد ظـل بالنسبة إلى أبناء الامس حـــدثاً من أهم الاحداث وأبقاها اثراً في الذاكرة . وقد تمر السنون الطوال وليس من يحسب لهـــا حساباً لانه قلما اكترث البدوي لمرور السنين أو اعتمد على التقويم لحساب الزمن ، ولذلك يعفو الزمن على اكثر الأحداث التي تمر بتلك الديار ، ولكن احداً لن ينسى احداث تلك المعركة التي شهدتها الجهرة ولا السنة التي وقعت خلالها ، وستبقى تلك المعركة حدثاً تاريخيـاً يؤرخ به ما تلاه من وقائع وأحداث .

وبعد ان تخطينا حدود القصر انبسطت دون انظـــارنا بساتين النخيل ، وبلغنا مساحة مكشوفة شاهدنا فيها اكوامـــاً من التراب الابيض المستخرج حديثاً من الأرض ، فأدركنـــا للحال ان هذا المكان من الأمكنة الرئيسية التي تضم مجموعة من آبار مياه الشرب . ومن المعروف ان الـتربة في الجهرة مفككة رملية ، مما يجعل حفر الآبار فيها مغـــامرة قد تودي بأرواح من يقومون بها ،

وقد تناهى إلينا أن احدى الآبار التي كانت تحفر قبل وصولنـا بفترة قصيرة انهارت على الرجل القـائم بحفرها وبقي مطموراً تحت التراب الناعم دون ان يجرؤ احد على مدّ يد المساعدة لانتشاله من الحفرة .

●

لقد سافر والدي الى الجهرة لزيارة الامير هيف بن حسن وهو شيخ قبيلة بني عجهان الذي ضرب خيامه قرب الآبار ، وهكذا ما ان وصلنـــا حتى تميزت لأنظارنا خيمته من مئات الخيام المضروبة في الجهرة لان مظهرها وارتفاع عمودها كانا خير دليل لنا الى مقام ومنزلة ساكنها .

ولما اقتربت بنا السيـــارة من الخيمة نهض غلام من مكانه في شقة الرجال وخفّ لاستقبالنا ، وحين سألناه عما إذا كانت تلك خيمة الامير رد علينـــا بالايجاب وأضاف الى ذلك قوله بأنه ابنه بـــدّاع ، عندئذ ترجّل والدي من السيارة ودنا من الغلام وقبّله من خده كما تقضي بذلك التقـاليد ، ثم دلفنا الى داخل الخيمة .

ومما يدهش له الغربي حقاً ان يرى فتيان البدو يعرفون اشياء كثيرة لا تتسنى معرفتها لغيرهم ممن هم في سنهم ، اذ يتعلمون مثلاً في سن مبكرة كيف يعاملون الغريب ويقومون بخدمة الضيوف الذين يصلون إلى مضارب خيامهم اثناء غياب ذويهم ، فابن الامير مثلاً كانت سنّه لا تعدو الحـادية عشرة ، ومع ذلك فقد استقبلنا بطريقة المضيف المجرّب فبسط لنا السجاد في الخيمة وهيأ لنا الوسادات لنتكىء عليها .

وقبل ان نستوي في جلوسنا على السجاد لحنـــا شبح الامير هيف ، وقد خرج من احدى الخيام بعد ان نقل اليه خبر قدومنا الى خيمته . وقد استقبلنا الأمير هيف بمنتهى الكياسة واللياقة وغمرنا بفيض بلاغته وناعم احتجـاجاته لزيارته فجأة ، وإلا لكان اقام لنا وليمة فاخرة تليق بنا ، وكم كان يشعر بالخجل لوصولنا الى خيمته في الوقت الذي ليس فيها من يستقبلنا ولا من يولم لنا . غير ان والدي رد عليه بنفس اللهجة ، وأكد له بألا داعي للخجـل او لخيبة الامل

وكفاه شرفاً أنه حظي بمقابلته وأنه لا حاجة لاقامة الولائم .

ولم تكد تمضي بضع دقائق على وصولنا حتى أقبل الى الخيمة ابناء الأمير هيف واخذوا طريقهم الى أماكنهم قبالتنا حول النار التي وضع عليها ابريق القهوة وهم يقولون ، كل واحد بدوره : « السلام عليكم . » ثم أقبل احفاد الامير يدخلون الخيمة ويحتلون مقاعدهم خلف آبائهم ، كما اقبل غيرهم ممن يصغرونهم سناً ، ولكن الامير هيف وبخهم وطردهم خارج الخيمة ، فذهبوا يلعبون ويمرحون ليعودوا بعد ذلك ويدخلوا الخيمة خلسة ويجلسوا خلف الكبار ينصتون الى الاحاديث التي كانت تدور بين والدي والامير هيف . وبعد لحظات شعر الامير بوجودهم في الخيمة فطردهم من جديد وهو يكيل لهم التوبيخات واللعنات .

ولبث الجميع صامتين يصغون الى الحديث الدائر بين والدي والامير هيف ، ذلك لانه في مثل هذه المناسبات لا يشترك في الحديث سوى الضيف ومضيفه بينما ينصت الآخرون لا يتكلم أحدهم ما لم يوجه إليه سؤال باسمه ليجيب عليه. وتشاء الصدف ان يكون بيننا شيخ طاعن بالسن ذو لحية بيضاء ويرتدي ثياباً هي اقرب الى الأسمال منها الى الثياب ، وكان نحيف البنية ، عرفنا بشخصه واحداً من رؤساء القبائل الثانويين واسمه عويد المرتجي كان يلقى من الامير كل حفاوة وترحيب ، وقد توفيت زوجته قبل بضع سنوات ، ولم يفكر في الزواج من غيرها لانه على ما يبدو قطع صلته بكل لذائذ الحياة بعد وفاة زوجته ، وعاش في ظروف قاسية ، وقد التفت اليه والدي – بعد قليل – وسأله هل تزوج ثانية ام لا .

فرد عليه الكهل بحزن ومرارة قائلاً :

« من اين لي ان اتزوج ... وانا مفلس والزواج يتطلب ان يكون لدي مال . »

فرد عليه والدي مازحاً :

« انني مستعد لتزويجك ابنتي إذا اعطيتني خمسمائة جملاً . »

وأطلق القوم ضحكات وقهقهات مدوية ، كأنهم يطلقونها تحية الكلمات التي

نطق بها والدي . والحقيقة ان اقتراح والدي بتزويجي من رجل بدوي انما كان بمثابة مزاح لا غير ، ولم يكن والدي يكف عن ترديده في أحاديثه مع اصدقائه العرب، ومع ذلك فقد كنت دائماً اخشى ان تروق هذه المداعبة لأحدهم يوماً ما ، ويقع الواقعة ، او يصدقها مصدق . صحيح ان الصداق الذي كان والدي يضعه شرطاً لزواجي باهظ جداً ومع ذلك كنت أخشى ان يأتينا يوماً ما احد زعماء القبائل ومعه خمسمائة بعير ويطلب الى والدي ان يفي بوعده .

واخيراً عندما خرجنا من الخيمة واخذنا سبيلنا الى بساتين النخيل ادركت معنى الراحة التي يستشعرها الانسان من اعتدال الجو ورطوبته ومناظر النباتات الخضراء بعد ان سئمت نفسه النظر الى ذلك المنبسط الواسع من الرمال الحارة .

وهكذا شعرت وانا اجوس سهول البرسيم الخضراء من الجهرة لأول مرة في حياتي بذلك السرور الذي لم يداخل نفسي نظيره إلا عندما زرت الواحة الفسيحة في الاحساء .

●

في وسط البستان الذي رحنا ننقل الخطو في ارجائه شاهدت بئراً ذات فتحة واسعة وثلاثة حمير تدور حولها لتمتح منها الماء ، وكانت الحمير إذا ما أتمت دورة حول تلك البئر تصاعدت منها الماء الى قمة دولاب الناعورة لتفرغ في اقنية الري المؤدية الى مساكب البرسيم . ونبات البرسيم هو الزرع السائد الذي يقوم بزراعته البستاني العربي في الصحراء لانه النبات الوحيد الذي لا تتطلب زراعته أية مهارة ودراية بفن الزراعة ؛ ناهيك عن ان رجل الصحراء بمستطاعه ان يقصه مرة كل بضعة اسابيع في الصيف وينبته تلقائياً كل سنة بدون زرع . ولا تعطب نبتة البرسيم الا بعد سنوات سبع ، وعندئذ ينبغي حرث الارض وبذر بذور جديدة منه لمعاودة إنباتها .

والجدير بالذكر ان قرية الجهرة تشبه العديد من القرى القريبة من الواحات المنثورة في بطاح نجد واواسط الجزيرة العربية . وليس في الكويت نفسها أية

بساتين النخيل ، ولا أية حقـــول من البرسيم لتلطيف الجو كما انه ليس في مدينة الكويت أية معالم شبيهة بتلك المعـالم السـائدة في الواحات الصحراوية ، ذلك لأن الكويت وجّهت جلّ اهتمامها نحو التجارة والاسفار البحرية ، لكننا في الجهر وجدنا انفسنا نعيش في جو بمـاثل للجو الذي يسود المدن الداخلية في شبه الجزيرة العربية . والحقيقة ان معظم سكان الجهرة نجديون نزحوا إليها منذ قرون وانشأوا فيها البساتين والطواحين ، واستخدموا الاساليب البدائية لمتح المياه من الآبار ، فضلا عن المجاري المنسقة للري على شاكلة المجاري التي ينشئها مزارعو نجد .

وتلك حالة قرية الجهرة قبل سنوات خلت ، ولكن التغيير الذي طرأ على الكويت في المدة الاخيرة ، وامتدت خيوطه الى هذه الواحـة ، جعل الكثير من بساتينها – وهذا ممـا يحز في النفس – تتلوى في يد الاهمال ، ولم يبق من مزارعيها سوى فئة قليلة تعمل للحفاظ على اشجار النخيل او لزراعة الارض. اما سواد سكان تلك الواحة فقد هجروا بيوتهم وبساتينهم للالتحاق بجيش العمل الذي يتدفق تدفق السيل العارم ، وهو يؤم مدينة الكويت بحثاً عن الثروة والاثراء .

١) كان ذلك فيا مضى اما الان فقد زرعت الحدائق العامة وغرست ملايين الاغراس . المترجم .

البَحارة وصَائدو اللؤلؤ وَالسمك

في يوم من أواخر أيام تشرين الاول (اكتوبر) ، كنت واقفة على شرفة منزلي أتأمل البحر في الصباح ، فشاهدت للمرة الاولى قوارب صيد اللؤلؤ تمخر عباب الخليج عائدة الى الكويت .

على الرغم من ان البحرين ظلت المركز الرئيسي لتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي طوال قرون عديدة ، فان الكويت تأتي مجلّية في هذا الميدان اذ ان فيها عدداً وافراً من تجار اللؤلؤ وصاغته ، ولها اسطول من السفن والزوارق يبحر كل سنة لقضاء ثلاثة أشهر في عرض البحر تحت اشعة الصيف المحرقة ، والحقيقة أنه ليس بمستطاع صيادي اللؤلؤ الغوص على محاره الا عندما تسخن مياه الخليج ، ولذا تنطلق مراكب صيده كلما حل فصل الصيف ، وفي نفس الوقت تقريباً . وعندما تبرد مياه الخليج في فصل الخريف ، يعود الغواصون الى الوطن مبحرين بزوارقهم التي تدفعها ريح جنوبية سريعة .

في السنوات الماضية عندما كانت تجارة اللؤلؤ مزدهرة ، كان شيخ الكويت يذهب إلى حيث يرسو اسطول صيد اللؤلؤ ، وفي نهاية موسم الصيد اذا ما استعد الاسطول للعودة الى الكويت أطلق رصاصة في الهواء ايذاناً بالرحيل ، فتأخذ السفن إذ ذاك بالتسابق للوصول الى الميناء . في تلك الايام كانت النساء تسرن في موكب الى شاطىء البحر في اليوم المتوقع فيه وصول السفن حيث يستقبلن أزواجهن ومواطنيهن بالغناء والزغاريد . أما اليوم ، فلم يعد شيخ الكويت يبحر الى الخليج لاطلاق الشارة للاسطول ايذاناً بنهاية موسم صيد اللؤلؤ ، وغدت كل سفينة تعود الى الوطن عندما يقرر النوخذة ذلك ، وتدخل الزوارق الى الميناء الواحدة إثر الاخرى دون سابق

إشعار وبدون ان تستقبلها مواكب النساء .

في ذلك اليوم من شهر تشرين الاول (اكتوبر) شـــاهدت ثلاث سفن متجهة صوب الميناء ، فكانت سطوحها تعج بالرجال ، وكان علم الكويت القرمزي اللون يرفرف على مؤخرة كل منهـا [1] . كانت السفن ناشرة جميع أشرعتها للريح بينا وقف البحارة بجانب الصواري ينتظرون اوامر النواخذة لطيّ تلك الاشرعة فور ان تصل السفن الى مدخل الميـنـــاء ، وبذلك تبقى السفينة تجري الهوينا حتى تصل الى مرساها .

وفي تلك الاثناء شرع الناس يتجمهرون على طول الساحل المواجه للمكان الذي سترسو فيه السفن قريباً من الشاطىء . وكم كانت دهشتي بالغة عندما ألفيت تلك السفن أصغر بكثير مما تصورتها ، ولم يكن طول أكبر واحدة منها يزيد على ثلاثين قدماً ، كما كانت من ذوات المؤخرة المربعة الشكل والمعروفة في الخليج باسم « الجلبوط » وفيها دعامات اقيمت عليها خيمـة عند زاوية الدفة ودرابزين خفيض من الخشب يزيّن المؤخرة . وجدير بالملاحظة هنا أن بحارة كل سفينة يتزودون بنسخة من القرآن الكريم يعلقونه الى عمود الخيمة بعد ان يحفظوه بقطعة نظيفة من القماش وهم يخرجونه منها بعد انتهاء العمل كل مساء ، ثم يجلسون على شكل مستدير بينما يجلس النوخذة في الوسط يتلو عليهم ما تيسّر من آي الذكر الحكيم بصوت خاشع جهير .

وتقلّ كل سفينة ما يقرب من أربعين بحـــاراً بما في ذلك الغوّاصون والنوتية والسيوب . وقد أنيط بكل طائفة عمل تقوم به على وجه الاستقلال . أما عمل الغوّاصين فينتهي طالما تقلع السفن مبتعـــدة عن أماكن الغوص ،

---

١) يتألف العلم الكويتي الجديد من الالوان العربية المتعارف عليها وهي الابيض والاسود والاخضر والاحمر المستوحاة من قول الشاعر :

إنّا لقوم أبت أخـــلاقنا شرفاً ... ان نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا

بيضٌ صنائعنا ، سودٌ وقائعنـــا ... خضرٌ مرابعنا ، حمرٌ مواضينا

المترجم

ويمكنهم عندما تصل السفينة الى الميناء ان يغادروها ويذهبوا رأساً الى بيوتهم ، في حين يترتب على الآخرين القيام بالكثير من الأعمال قبل ان تسنح لهم فرصة العودة إلى منازلهم ، فعليهم ان يقوموا بتنظيف السفن ، ونقل الاشرعة والصواري وخزانات مياه الشرب من السفينة الى الشاطىء ، وعليهم ان يركزوا سفينتهم فوق خط المدّ والجزر بحيث تبقى هناك طوال فصل الشتاء ، واذ ذاك يتاح لهم الانصراف والعودة الى منازلهم .

وقفنا قريباً من الشاطىء نراقب الغواصين والبحارة الذين كانوا على سطح اول سفينة وصلت الى الميناء ، فألفيناهم ما يزالون مؤتزرين بآزرهم التي يلفونها على اجسادهم عادة اثناء قيامهم بالعمل ، وكانت أغلبيتهم الساحقة سود اللون تلمع ظهورهم في أشعة الشمس لتنعكس بلون أشد ما يكون مماثلة للون خشب الابنوس، بينما كان لون بشرة الآخرين ضاربة الى السمرة، الا ان اشعة الشمس أحالت تلك السمرة الى السواد لطول ما تعرضوا لها مدة شهور الغوص . ولكن الجميع كانوا حليقي شعر الرؤوس حاسريها .

وهبط من السفينة الى الشاطىء اول من هبط الغواصون ، وكان كل واحد منهم يحمل في يده رزمة ضمت حوائجه الخاصة ، وقد وقف على الشاطىء بعض الرجال من اقربائهم الذين استقبلوهم بالابتسامات والقبلات وهزّ الايدي بالمصافحة الحارة .

وفي هذه الاثناء كان البحارة يفرغون الحبال والمعدّات من السفينة الى الشاطىء . ثم شرعوا بتنفيذ مهامهم الاخرى التي يترتب عليهم القيام بها قبل ان يعودوا الى بيوتهم .

ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى أنهى بحارة هذه السفينة تفريغ حبالها ومعداتها الأخرى ، وبدأوا بتنظيف سطح السفينة وهيكلها ، وكانوا يعملون بسرعة متناهية يحدوهم الى ذلك شوقهم وحنينهم لزوجاتهم وأولادهم الذين لم يروهم منذ شهور خلت . وما أمتع رؤية اولئك البحارة وقد وقفوا في مياه الخليج الضحلة يغنون ويمرحون وهم يقومون بتنظيف جوانب

السفينة الخارجية .

وما ان انتهى البحارة من افراغ السفينة وأوشك بحـارة سفينة اخرى وصلت بعدها الى الميناء على الانتهاء بدورهم ، حتى أخذوا يجرون السفينة الى الشاطىء بالحبال ، بينما وقف النوخذة ينشد مشجعاً بصوت جهير متناسق النغم صعوداً وهبوطاً :

« هيلا هيلي .. هيلا هيلي ... »

ثم وصلت السفينة الثالثة وشرع البحارة من فورهم بنقل الحبال والمعدات منها الى الشاطىء . ثم بدأوا يقومون بنفس الاعمال التي أدّاها رفاقهم .

عندئذٍ اقتربت من المتفرجين وسألتهم رأيهم في موسم صيد اللؤلؤ هذا العام ، فكانت اجوبتهم متضاربة . ولكنه بدا لي أن البعض قد أسعدهم الحظ فكان الموسم بالنسبة اليهم موسم خير وبركة ، فيما كان البعض الآخر يتعثرون بأذيال الخيبة حتى لم يتمكنوا من اصطياد لؤلؤة ثمينة واحدة .

●

في الماضي كان الكثير من الرجال يخسرون كل مـــا لديهم من أموال ادخروها في مغامراتهم التي يقومـون بها لصيد اللؤلؤ . واذا لازمت الخيبـة نوخذة ما بضع سنوات متتالية أغرقتـــه الديون حتى ليضطر في معظم الاحيان الى بيع سفينته . وكذلك اذا لم يوفق الغواص بصيد لؤلؤة ثمينـة غدا مديناً للنوخذة ، وسنة بعد سنة تثقل الديون كاهله ، وقد يقضي عمره كداً وكدحاً لاعتاق نفسه من قيود الدين ومسؤوليات العمل لدى النوخذة . وكان يحدث في الماضي اذا توفي غواص قبل ان يسدد ما بذمته من دين ، ان يلاحق النوخذة ابن ذلك الغواص بالعمل مكان والده . ولكن هذا النظام قد الغي في الكويت من عشرين سنة .

وبالرغم من توفر بعض الاعمـال الاخرى في الكويت ، في السنـوات القليلة الماضية ، تلك الاعمال التي تدر الكثير من الارباح ، فقد ظل في الكويت اناس يلازم مخيلتهم بريق اللؤلؤ ويحفزهم على السعي وراء الثروة من الغوص ،

وخاصة عندما يسمعون القصص عن المبالغ الخيالية التي جناها بعض النواخذة المحظوظين في المواسم الخيّرة ، بيد ان صيد اللؤلؤ قد جلب السعادة والثروة لبعض المواطنين بينما جلب للبعض الآخر سقم العافية وسوء الصحة والتعاسة والرزوح تحت اعباء الديون المرهقة .

كذلك لا ينسى الغواصون ، مهما أضناهم تعب الغوص على اللؤلؤ في اواسط الصيف ومهما عجّل في قصف اعمارهم ، قصص بعض الرجال من أمثال هلال المطيري الذي قفز الى ذروة الثروة والغنى ارتفاعاً من الحضيض والفقر المدقع ، والذي غدت قصة حياته أشبه ما تكون بأسطورة يتناقلها تجار اللؤلؤ في الخليج .

●

نشأ هلال المطيري في عشيرة الدياحين المتحدرة عن قبيلة المطير ، كان فقيراً مدقعاً لا يملك شروى نقير . ويحكى انه كان في حداثته لا يكاد يحصل على ما يمسك عليه الرمق . وكان يجمع نفايات البلح ويبيعها علفاً للبقر . وسافر ذات يوم الى الكويت بحثاً على العمل ، وصمم على أن ينسلك في عداد الغواصين على اللؤلؤ . ولم تكن قصص الغواصين الذين قضوا سحابة حياتهم جوعاً وارهاقاً لتثنيه عن عزمه وتصميمه ، فكان يعلل النفس بقوله :

« ان الله عادل ورحيم ، ولن تكون حالتي اسوأ من حالة الآخرين . »

وكان هلال مجدوداً إذ كان بين ألف من الغواصين الوحيد الذي ابتسم له الحظ . وقد أصاب خلال الموسم الأول من اللآليء ما عاد عليه بقسط وفير من الربح . ولما كان متزن التفكير منذ أيام نشأته الاولى ، وقد عقد العزم على ان يتخلص نهائياً من أدران البؤس الذي عاشته اسرته خلال عدة أجيال ، فأخذ يدّخر ارباحه ، ثم راح يجرّب حظه في المواسم التالية .

والغوص — كما هو معروف — مغامرة ان لم نقل مقامرة . ولكن الحظ

شاء ان يحالف هلال المطيري في الموسم الثاني فيربح اضعاف المبلغ الذي كسبه في الموسم الاول . وبعد مضي ست أو سبع سنوات تمكن من شراء زورق صغير خاص به وأصبح يسافر عليه الى اماكن الغوص لا كغواص وانما كنوخذة .

وشاء الحظ كذلك ان يتابع صحبته للشاب هلال الذي كان لقوي ارادته وتصميمه في العمل فضل كبير في تقدمه المطرد . وهكذا استطاع مع الايام ان يصبح من اولي الثراء عندما بدأت تجارة اللؤلؤ تزدهر واخذت اسعارها بالارتفاع ، واذا بالبدوي البسيط يغدو خلال سنوات قليلة رجل اعمال حاذق ، ولم يلبث ان اتجه نحو توسيع اعماله فأخذ يستثمر امواله في استملاك الاراضي في العراق وبومباي ، وشاد لنفسه بيتاً فخماً على شاطىء الكويت يمكنه الاطلال من نوافذه على اسطول قوارب صيد اللؤلؤ عندما تبحر ومراقبتها وهي تنطلق الى مكان الغوص، بينما يظل هو في الكويت ليجري الصفقات التجارية والاتصال بأسواق اللؤلؤ العالمية .

ومع ذلك لم يكن هلال المطيري لينسى ذويه القاطنين في الصحراء، وبالرغم من انه غدا من سكان المدن ، فقد ظل قلبه يخفق لابناء عشيرته الذين ما زالوا يعيشون تحت الخيام السوداء في البادية . لذا كان يسافر كل سنة في فصل الربيع الى الصحراء ليضرب خيمته الى جانب خيام أبناء قبيلته ويقضي هذا الفصل بين ظهرانيهم .

وخلال ايام طفولتي التي قضيتها في الكويت ، اذكر ان خيمتنا قد ضربت لعدة مواسم بجانب خيمة هلال المطيري . وغالباً ما كنا نقوم بزيارته ، واذكر اننا دعينا لتناول طعام الغداء في خيمته مرات عديدة حيث كان يعاملنا بكل ما يتحلى به العربي من كرم واحتفاء بالضيف ، وكان يسلك سلوك الشيوخ فيحتفظ لنفسه بحاشية من المرافقين والاتباع ، ومع ذلك لم تداخل الكبرياء نفسه ، وانما ظل يعتبر نفسه من المجدودين ، حاسباً ذاته في عداد اولئك البسطاء من أفراد قبيلته ، اضف الى ذلك انه كان يمد يد العون لكل

فرد من أفراد عشيرته الدياحين يخصهم بعطفه ويبسط جناح رحمته عليهم طيلة حياته ، حتى اذا ما قصد احد ابناء عشيرته خيمة هلال ، شعر بالطمأنينة والثقة بأن المطيري سينفحه هدية لائقة ويقدم له وجبة طعام فاخرة .

وهكذا مع الايام ، بدأ المطيري يكسب مودة واحترام جميع الكويتيين الذين غدوا ينظرون اليه نظرتهم الى علم من اعلام الجود والحدب على كل ذوي الحاجات من المرملين والفقراء .

وفي السنوات التي كنت فيها بعيدة عن ديار الكويت وافت المنية هلال المطيري ، وعندما عدت الى الكويت ومشيت قرب ذلك البيت الابيض الذي يطل على البحر ، خامرت شعوري موجة من التأثر لرؤيتي شرفة البيت خالية من ذلك الربان الذي كان يقف فيها على الدوام أيام مواسم الغوص ليراقب مجموعة سفنه في ذهابها الى مكان الغوص وايابها منها ، كما كان خالياً من ذلك المقعد الذي كثيراً ما احتله الفقراء بجانب البيت بانتظار خروج هلال من الدار ليوزع عليهم هباته . ولكنني اعتقد جازم الاعتقاد بأن اولئك الذين كلأهم صاحب هذا البيت بعين رحمته لن يسمحوا بأن يطمس النسيان على ذكرى هلال المطيري .

●

وبعد انقضاء فترة قصيرة على وصول زوارق الغوص الى الميناء ، اخذ منظر الميناء ولا سيما صوب جهته القريبة من بيتنا ، يتغير مع ابحار « البغلة » وهي سفينة ضخمة ظلت راسية هناك طوال فصل الصيف .

وفي صباح يوم باكر من ايام فصل الخريف اتخذت السفينة أهبتها للرحيل في جو رائع مرح زاده روعة ومرحاً هبوب الرياح المؤاتية للسفر ، بينما كان الصدى يردّد قرع الطبول التي هي بمثابة الشارة لانطلاق السفن الكبيرة في خضم البحر . وهنا شرعت أتأمل في الميناء لترى عيناي علم الكويت المفدى بلونه الاحمر يرفرف على مؤخرة كل سفينة هي على وشك

الانطلاق لتبرح الميدان . وكم كانت دهشتي بالغـة عندما شاهدت العلم يرفرف على « البغلة » التي هي بحق اجمل وأزهى وأضخم السفن الراسية في مياه الكويت .

ويرى بعض المؤرخـين ان العرب اقتبسوا تصميم « البغلة » عن السفن البرتغاليـة الضخمة التي يرجع تاريخ إبحارها في مياه الخليج الى ما يقرب من اربعمائة سنة . والحقيقة ان « البغلة » مهما كان قوام تصميمهـا وشكل هندستها يمكن ان تعتبر بمؤخرتها المحفورة على شكل كرات خماسيـة الاضلاع ورواقها الواسع، صورة طبق الاصل للسفن الاسبانية في القرون الوسطى، ولما كان بنـاؤو السفن في الخليج لا ينشئون اليوم سفناً من طراز « البغلة » فلعل في ذلك دلالة على ان هندستها تعود الى عصر الاحياء والنهضة اكثر مما تعود الى القرن العشرين .

ويرجح الآن فاليارس ، الكاتب الاسترالي الذي قام عام ١٩٣٩ برحلة بحرية تجارية على متن سفينة كويتية الصنـع والذى تعلّم الكثير من فنون الملاحة في الخليج ، أنه لم يبقَ اكثر من خمسين سفينة من طراز « البغلة » في المياه العالمية ، وقد تدنى هذا الرقم اليوم كثيراً ، ذلك لانه جرى تفكيك عدد كبير منها واستعمال ألواحهـا للحريق ، ولان اصحاب أحواض بنـاء السفن في الخليج اخذوا ينظرون الى ان تصميم سفينة من طراز « البغلة » قد غدا معقّداً وغير عملي ، ولهذا فقد كفوا نهائياً عن بنـاء سفن على طرازها .

ومن الطبيعي ان يتخـذ معظم الربابنة من الطريق المواجهة لميـاه الخليـج محل سكناهم ، يدفعهم الى ذلـك شغفهم بالعيش قرب الشـاطىء بحيث يمكنهم ان شاؤوا سحب زوارقهم الى جانب البيوت او بناء زوارق جديدة لهم .

ويرى المرء اثناء سيره لفيفاً من قدامى البحارة الذين اقتعدوا مقاعـد خشبية ركزت خارج بيوتهم ، وقد اخـذوا يستعيدون ذكرياتهم منعمـين

النظر الى البحر . وقد يسمع المار بهم همساتهم ووشوشاتهم وهم يقصون حكايات مغامراتهم فيما سلف من الايام ، فضلاً عن القصص التي تروي اخبار ابنائهم واحفادهم الذين يعتلون الآن عباب الماء ، وقد يسوقهم الحديث الى ذكر بعض الموانيء البعيدة التي مروا بها في رحلاتهم الكبيرة امثال زنجبار وكراتشي وعدن ، وقد يرى المار كذلك احد القباطنة القدامى وهو يرفع عصاه ليرسم بها على الرمال الناعمة الطريق الى احد الموانيء النائية او مسير رحلة غامر بها في الماضي البعيد وما تزال احداثها حية في ذهنه .

وغالباً ما كنت اتوقف هناك لأتبادل بعض الاحاديث مع الربان علي الشاهين ، اذ كنت ألقاه دائماً خارج بيته يتفحص زورقاً جديداً يجري بناؤه لحسابه في الخارج . وذات يوم ، وفيما هو يحدثني عن مغامراته البحرية ورحلاته الكثيرة ، أخرج من جيبه شهادة يريني اياها ، كان رئيس ميناء زنجبار قد منحه تلك الشهادة وسمح له بموجبها بحق الدخول بسفينته الى ميناء زنجبار دون مرافقة مرشد الميناء ، وذلك بصفته رباناً خبيراً ومجرباً من ربابنة الكويت .

واذا ما ابتعد السائر من هناك قليلاً متابعاً سيره الى حوض بناء السفن الذي يملكه الحاج احمد السلمان ، رأى العمال يومذاك يقومون ببناء سفينة تعد من أضخم السفن التي تصنع محلياً في الخليج . والجدير بالذكر ان الحاج احمد السلمان يتمتع بشهرة واسعة في ميدان صناعة السفن في طول المنطقة وعرضها ، وهو معروف كإحدى الشخصيات البارزة في الكويت .

وكان ابناء الحاج احمد السلمان لا يغادرون ساحة المصنع ، كي يشرفوا على سير الاعمال هناك ، وليكونوا على استعداد لاستقبال الضيوف والطواف بهم في أرجاء الساحة لايضاح كافة التفاصيل بأعمال بناء السفن التي يقومون برصف ألواحها وتركيبها .

ان بناة السفن في الكويت يمارسون مهنتهم بمنتهى الحذق والدراية والفن .

ولا يسع الذي يقف ليراقبهم أثناء العمل ، الا ان يقدّر ما تتطلبه اعمالهم من المهارة والدقة ، اذ يلاحظ المتفرج وجود زمرة من الرجال في الساحة تعمل في نشر الاخشاب بأحجام متساوية او مختلفة قبل تركيبها في جهاز السفينة ، وفئة اخرى في الظل تقوم بتصنيف الاخشـــاب قبل نشرها ، وطائفة ثالثة تقوم بنشر الواح الخشب ومسحها وتنظيفها . ومن المدهش حقاً ان جميع هؤلاء يستعملون ادوات ومعدات بدائية في عملهم هذا ، ابتداءً من دق المسامـير في الاوتاد الخشبيـة ، ونشر الالواح وتركيبهـا وثقبها ، حتى انزال السفينة الى البحر لضمها الى مجموعـة السفن التي تعمل في مياه الخليج .

وأدهش من ذلك ، ان ابناء هؤلاء العاملين يرافقون آباءهم الى احواض بناء السفن حيث يقضون معظم اوقاتهم وهم يلعبون بمعدات آبائهم ويقلبونها بين أيديهم ، كما انهم يقومون احياناً باظهار براعتهم ومهـارتهم في نشر قطع الاخشاب التي لا يحتاج اليها النجارون . وهذا بالذات مـا كان الآباء يمارسونه قبل ان يصبحوا خبراء في بناء السفن والشؤون البحرية . ومنذ القديم كان الابناء يرافقون آباءهم الى محال اعمالهم ، لا سيا وان بناة السفن في الكويت يشكلون بيئة خاصة قائمة بذاتها ويعرف أفرادها « بالبحارنة » ، وكان هؤلاء يتوارثون صناعة بناء السفن اباً عن جد لاجيال بعيدة موغلة في التاريخ القديم ، ولم يتخلّوا عن حرفتهم هذه على الرغم من التغيرات التي قلبت الاوضاع الاجتماعية في الكويت رأساً على عقب في السنوات القليلة الماضية .

وتبعاً لذلك، فان البحارنة يتمتعون بقسط وافر من البحبوحـة والرخاء والتضامن الأخوي ، وإذا حدث ان توفي أحـدهم توقف الجميع عن ممارسـة اعمالهم يوماً واحداً تضامناً مع اسرة الفقيد .

●

وأعود الآن الى حوض بناء السفن الذي يملكه الحاج احمد السلمان: ان هذا

الحوض مغلق من جميع جهاته ، وتفصله عن البحر الطريق الوحيدة المبنية هناك . وعندما ينتهي العمل من بناء احدى السفن يُزال جانب من جوانب الحواجز لتسهيل عملية انزال السفينة الى البحر ، يدفعها الرجال بسواعدهم بعد تركيزها على جرارات اسطوانية ، ثم يعاد تركيب الجدار اثر الانتهاء من عملية الانزال ، وتجري الاستعدادات لبناء سفينة جديدة في المكان الذي شغر بانزال تلك السفينة الى البحر .

وهناك اعتقاد سائد في أوساط البحارنة ، ان المرأة العـاقر ستحمل اذا تخطّت أحد ألواح الخشب الـتي تصنع منها أرضية السفينة الجديدة ، وهم يذهبون في اعتقادهم الى رأي غريب اذ يقولون بأنه اذا حدث ذلك فان السفينة ستتعرض لـكارثة ما ، وان احد البحارة سيلاقي حتفه مقابل الحياة الجديدة التي منحت للمولود الجديد . ولذا يلجأ البحارنة كلما باشروا ببناء سفينة جديدة وانهوا أرضيتها ، الى تعيين العسس لحراسة المنطقة التي تجري فيها اعمال بناء أمثال تلك السفينة لصدّ اية امرأة قد تحاول تخطّي ارضية السفينة ، في حين يسرع العمال ببناء السفينة حتى تصبح على علوّ كاف دفعاً لمخاوفهم وتوجساتهم .

ان صناعة السمك في الكويت التي نوّه عنها الرحاله نيبور [1] ، مزدهرة اليوم كما كانت في ذلك العصر . ولقد كان هناك عدد كثيف من صيادي الاسماك الكويتيين تربطهم بوالدي اواصر الصداقة ، ولذا فقد تسنى لي ان اتعلم منهم بعض المعارف المتعلقة باساليب الصيد كما اقف على انواع السمك التي يصطادونها .

ويستعمل صيادو السمك في الكويت مصائد يقيمونهـا على شكل حواجز

---

١) زار الرحالة الدنمركي كارستن نيبور مدينة الكويت سنة ١٧٦٥ وقد روى انه كان لها يومذاك ٨٠٠ مركب وان سكانها كانوا يبلغون عشرة آلاف نسمة وهم يعيشون من التجارة وصيد السمك والغوص بحثاً عن اللؤلؤ . — المترجم .

من قضبان القصب متلاصقة بعضها ببعض ، ويثبتونها تحت مجرى التيـار الذي يعتبر الحد الفاصل لحركة المد والجزر ، وذلك على شكل رؤوس تشبه سنان النبال . وعندما تنحسر مياه البحر بجزرها تحجز السمك في المياه الضحلة قرب رؤوس تلك النبـــال . والجدير بالذكر أن هذه المصائد التي توضع في الأماكن المناسبة تصطاد كميات وافرة من السمك الذي يباع في السوق المحـلي ، فضلا عن الكميات التي يصطادها الصيادون في عرض البحر . وبما ان السمك أرخص سعراً من اللحم ، فـــانه يعتبر الغذاء الرئيسي للمواطنين العاديين . كما ان رؤية العمال الكويتيين في شوارع الكويت عـــائدين الى بيوتهم وهم يحملون بأيديهم السمك يعتبر من المناظر المألوفة هناك .

واذا قيض للمرء ان يكون حاضراً عندمـــا يحدث الجزر ويقف لمشاهدة الصيادين وهم يخرجون مصائدهم من البحر ليفرغوا السمك منهـا ، فسيقف ولا ريب على ضروب من الاسماك النـادرة المتعددة الالوان ، كما يتسنى له مشاهدة الصياد عندما ينزل الى البحر ليخرج مصيدته ، وقد تمنطق بزنار ملوّن وحمل بيده سكينه ليدافع بها عن نفسه ضد الاسمـاك الخطرة التي قد تكون عالقة في شبكته ، ثم يخوض في المياه الضحلة ضمن سياج القصب المثلث الذي نصبه قبل الجزر ليجمع الاسماك العالقة داخلها ، ويضعهـــا في كيس من القماش او الشبك دون ان ينسى مراقبة السمك المنشاري ذي الأشواك الحادة التي تسبب للانسان الآلام المبرحة اذا ما أصابته ، ولذلك فهو يقضي على مثل تلك الاسماك الخطرة قبل ان ينتزعها من المصيدة . وانا شخصيـاً قد شاهدت بعض الصيادين وهم يلقون بعيداً في عرض البحر بحيوانات بحرية كالاخطبوط مثلا . ومن المعروف ان الاخطبوط ينتفخ جسمه عندما يستخرج من الماء . اما اذا شعر بتعرضه لخطر داهم فانه ينفث من فمه سائلا اسود ...

ومن الاسماك التي تعيش في مياه الكويت ، ويخشى منها لقدرتها على اللسع ، سمكة تسمى هناك الفريالة ، ورغم ضآلة جرمها فان جميـع الصيادين والبحارة يخافونها . والعجيب في الأمر أن الفريالة هذه تعيش في المياه الضحلة حيث تختبىء

في الرمال أو في شقوق الصخر ، وويل للصيـــاد او للبحار إذا ما وطئها او اصطدم بها ، لأنها لن تدعه يمر بدون ان تلسعه بسام زعنفتها لسعة اشد وأمضى من لسعة العقرب .

●

ولسوف أظل افضل شاطىء الشويخ على سواه من شواطىء الكويت ، لأن نفسي تزخر عنه بالذكريات منذ عهد طفولتي أيام كنت أذهب الى هنـاك لمراقبة الصيادين وهم منهمكون بصيد السمك. فمنذ عشرين سنة خلت كان هذا الشاطىء الواقـــع في الزاوية الغربية من مدينة الكويت يوحي بالعزلة لا يؤمه الا عدد قليل من الصيادين . اما اليوم فقد غدت الشويخ مسرحاً للاعمـــال تضج بالحياة بحركة مينائها الجديد ، فضلا عن قيام بيوت حديثة فيها ، ومع هـــذا فما زال ذلـك الجزء من الشاطىء البعيـد عن المنطقة الصناعيـة يحتفظ بطابعه القديم الذي يدخل في روع الناظر اليه الشعور بالوحدة والسكينة كما عرفته في سالف الأيام .

ولقد ذهبت الى هذا الشاطيء منذ بضـع سنوات ومشيت متنزهة على رمال الشاطىء الناعمة ، وتصورت—عندما أدرت ظهري للمساكن القائمة هناك ، وارصفة الميناء والسفن التي كانت تفرغ شحنـــاتها — ان الشاطىء بقي كما عهدتــه في الماضي ولم يطرأ عليــه اي تغيــير . فمياه البحر تموج بالزرقة ، والرمـــال دافئة وناعمة الملس تحت قدمي مثلما كانت في الأيام الغابرة . ومما زاد في روعة مظهره وجمال منظره ، وجود أكوام صغيرة من الرمل فوق الشاطىء تدب عليها او تخرج منها بين الحين والآخر أفواج من السرطان الرملي الصغير وهي تزحف متقدمة بشكل مائل الى حافة المياه لتعود من جديد إلى اوكارها ، ثم تخرج وتعود ، وهكذا دواليك كأنها تمارس رياضة او هواية دائمة الحركة . ورفعت رأسي لحظة لـكي أتطلع الى الخليج ، فلاح لي من بعيد

شبح صنكور [1] مرّ فوق سطح الماء بسرعة البرق ، ثم حلق في الجو متجهاً نحو الافق البعيد ، ولما هوى في الماء وارتفع منه لمحت اسماكاً صغيرة تقفز من الماء ثم تعود اليه .

وفي هذه الاثناء كان الجزر على وشك ان يتكامل ، وتطلعت الى بعيد لأرى شبح شخصين يعملان بجد قرب الشاطىء . لقد كان هذان الشخصان يجذبان شباكهما نحو الشاطىء ليصيدا الاسماك الصغيرة التي ظلت تحوم في المياه الضحلة عندما بدأت دورة الجزر ، وبقيت اراقبهما فيما كانا يقتربان مني حتى دنوا من المكان الذي أقف فيه . لقد كان احدهما مسناً وخبيراً بشؤون الصيد ، إذ كان يوجه النصائح والارشادات لزميله الذي كان حدثاً ، وقد عرفت من منظرهما وكلام احدهما للآخر ، انهما أب وابن . وعلى اية حال ، فقد وقفا على طرف الشاطىء يجذبان الشبكة التي اصبحت قريبة منهما ، وغدا بمستطاعي رؤية مئات الاسماك تحوم على سطح الماء داخل كيس الشبكة ، بينما كان العديد منها يقفز في الماء كالعصافير . وكثيرة هي الاسماك التي استعادت حريتها بعد ان تمكنت من الافلات بقفزة فوق حلقات الفلّين المعلقة الى اطراف الشبكة . ومع ذلك ، وبالرغم من إفلات أعداد كثيرة من الشبكة ، فقد ظلت مليئة بالسمك عندما تمكنا نهائياً من اخراجها من الماء وجذبها نحو الشاطىء .

واقتربت من الصياد العجوز لابادله الحديث ، وأعيد على مسامعه جميل الذكريات عن الشويخ قبل ان تمتد اليها برامج التطور والبناء لتجعل منها ضاحية صناعية ، فرد العجوز عليّ وهو يشهد الله ما يقول :

« يبدو لي ان العالم بأسره قد انتقل الى الشويخ . »

وسألته عما اذا كانت اعمال المرفأ ومعدات الحفر والكراكات التي تعمل في تعميق مياه الخليج قد أثرت على حياة السمك الذي كان موجوداً بكثرة في

---

١) طائر يصطاد السمك او السرطان بمنقاره .

سالف الايام فرد على سؤالي بالنفي ، قائلا ان جميع تلك الاعمـــال لم تستطع ترويج السمك وحمله على الهرب .

ثم تطلع الحيّ واستطرد قائلا :

« ولكن اذا افترضنا ان كميات السمك قد قلّت فبمستطاعي أن اعيش الآن عيشة افضل من ذى قبل ، لان بوسعي بفضل الثروة الجديدة التي تدفق معينها في الكويت أن ابيع سلة واحدة من السمك بنفس المبلغ الذي كنت اتقاضاه في السابق ثمناً لثلاثة اضعافها » .

حفلة الشيخ ورقصة الحرب

تبقى وطأة الحر مشتدة في الكويت عدة اشهر طويلة مضنية على مدار السنة ، ولكن عندما يتغيّر الطقس يتغيّر فجأة وبدون سابق انذار . وهكذا بين عشية وضحاها تغير الطقس في نهاية شهر تشرين الأول (اكتوبر) إذ هبطت درجة الحرارة فجأة اثنتي عشرة درجة . وكنا ما نزال نائمين على الشرفة عندما هبّت الريح الشمالية الشرقية فجأة مدوية بهبوبها ، حتى انهـا نزعت الاغطية عن الأسرّة ومزّقتها .

ولما كانت هذه الريح تهب فوق مياه الخليج منحدرة رأساً من جبال ايران فانها تحمل معها برودة الجبال . وفي الصباح عندما استيقظنا وجدنا الغبار قد غطى كل شيء ، كما وجدنا الريح التي كانت ما تزال تهب بقوة مشحونة بالغبار قد شكلت في الجو سديماً أغبر حجب عنا أشعة الشمس .

بيد أنه رغم الصورة الفجائية لتغير الطقس كان الجميع يرحبون بهذا التغيّر ، لان الطقس ظـل بارداً منعشاً بعد توقف هبوب الرياح ، وأصبحت العشيات تبعث على الارتياح مع ما يتخللها من برودة الخريف .

وركبنا السيارة متوجهين بها الى قصر الشيخ عبد الله المبـارك الكائن في الصحراء لتناول طعام العشاء على مائدته ، والشيخ عبدالله هو عم الحاكم الحالي وشخصيته جذابة بارزة نافذة الكلمة في أوساط شيوخ الكويت .

كان شعاع الفسق ناشراً اشعته في السماء ، ولم تكن قد ظهرت في الافق غير نجمة واحدة كانت تتألق في الشرق عندما انطلقت بنا السيارة ميممة شطر ذلك القصر الابيض القائم على التل حيث يسكن الشيخ عبد الله شتـاءً . وعندما أخذت السيارة تقترب من هدفها كنا نشاهد اضواء القصر تسطع من قمة التلة ،

وقد اضفت على المكان منظراً ليس أبدع ولا أروع من متألق نوره .

وبعد دقائق معدودات وصلت بنا السيارة الى مدخل القصر الرئيسي حيث كان الشيخ عبدالله نفسه واقفاً بانتظارنا .

كانت تلك الحفلة في عهد المغفور له المرحوم الشيخ احمد الجابر الصباح الذي كنا نتوقع حضوره لتناول طعام العشاء معنا في تلك الامسية . وفعلاً كان قد سبقنا الى القصر لاننا وجدناه في غرفة الاستقبال عندما وصلنا اليها . وبما أن وجود الشيخ الحاكم أضفى على المناسبة صفة رسمية ، فقد صفّت الكراسي على طول امتداد جدران القاعة الأربعة ليستوي الشيخ في صدر الغرفة على كرسيه الموضوع في الوسط .

وكان هناك بالاضافة الى وجودي بعض السيدات الانكليزيات المدعوات لحضور حفلة العشاء ، وقد خصصت لنا زاوية من تلك القاعة جلسنا فيها وحدنا. ومن التقاليد العربية المعروفة أنه عندما يحضر شيخ الكويت حفلة ما يكون أكثر المدعوين إليها من العرب يلوذ جميعهم بالصمت ولا يتكلم إلا هو . كما يتوجب على الشيوخ الادنى مركزاً ومرتبة ، تسليماً بسلطة زعيمهم ، التزام جانب الصمت والرزانة بحضوره . ولا أدل على ذلك من ان ثلاثة شيوخ من ابناء سمو الشيخ احمد الجابر نفسه ممن جاؤوا لحضور الحفلة جلسوا في الطرف الثاني من الغرفة بعيداً عن مكان والدهم ، ولم يتفوه احدهم حتى بكلمة واحدة طوال مدة الحفلة .

وعندما وصل جميع الضيوف،نادى سمو الشيخ احمد الخدم كي يحضروا القهوة بصفته المضيف في قصر الشيخ عبدالله ، وإذا باحد الخدم يردد كلمة « قهوة » وظل واقفاً في الممشى .. وتلاه ثان وثالث ورابع .. كل واحد منهم ينقل كلمة رفيقه منادياً : « قهوة » حتى بلغت هذه الكلمة مسامع صانع القهوة في أقصى زاوية من القصر .

كان صانع القهوة الذي حمل ابريقها، اسود اللون مديد القامة من أمهر متقني صب القهوة في الحفلات التي يكثر فيها الضيوف . وكان يحمل بيده اليمنى ستة

فناجين ، بينما يحمل بيده اليسرى ابريق القهوة النحاسي . وقد اخذ يصب القهوة من الابريق في الفنجان مقدمـــاً إياه للضيوف حسب ترتيبهم برشاقة وبراعة فائقتين ، والرائع في ذلك أنه لم يكن يتطلع الى الفناجين وهو يصب فيها القهوة من علو تسع بوصات تقريباً ، ومع ذلك لم يخطىء الهدف مرة واحدة .

عندما أنهى ساكب القهوة مهمته وغادر القاعة ، بتنا ننتظر سموه كي ينهض ويتقدم من مائدة العشاء. وكان الشيخ عبدالله المبارك يلتزم الصمت اثناء حضور الحاكم مع أنه كان صاحب الدعوة ، وكان الشيخ احمد هو الذي دعانا للنهوض وقصد ردهة الطعام حيث صار اعداد المائدة قبل دخولنا إليها .

وقبل وصولنا الى القاعة مررنا بصفوف طويلة من الخـدم كانوا واقفين وفي أيديهم أباريق الماء حيث غسلنا أيدينا قبل ان نشرع بالطعام الذي كان جاهزاً ، وكدنا لا نصدق أعيننا لروعة ألوانه وحسن ترتيبه .

لقد بسطت قطعة قماش بيضاء يبلغ طولها ١٥ ياردة في ارض تلك القـــاعة الطويلة ، ووضع عليها سبع عشرة صينية كبيرة ونضدت فوقهـا اكداس الارز واللحم . وكان قد وضع في كل صينية من الصواني السبع الاولى خروف كامل ، كما وضع بجانب الصواني الكبيرة مئات الصحون الصغيرة التي كانت تحتوي العديد من ضروب المقبلات والتوابل وغيرهـا . يضاف الى ذلك صحون اخرى ملئت بلحم الغزلان وغيرها من لحوم الصيد التي صادها الشيخ عبدالله بنفسه في احدى رحلات صيده الاخـــيرة . بينما وضع في بعض الصحون الاخرى سمك محمّر وفراريج تبعث على الشهية بالاضافة الى الارز وغير ذلك من المآكل والاطايب الشهية .

وكان جلوسنا على الارض بجانب صينية أثقلهـا خروف كامل ، بينما تصدّر الشيخ احمد المائدة وتوزّع المدعوون على الصواني الباقيـات وقد جلس كل منهم حسب مقامه ومركزه ، كما جلس سائق سيارتنا بجانبنا يشاركنا الطعام .

واخذ الشيوخ يشمرون عن سواعدهم اليمنى ليتنـــاولوا الارز الذي كان ساخناً ، ثم بدأ البعض منهم يقتطع كتلاً من لحم الخروف ويقدمها للضيوف من

الانكليز ، بينما كان الخدم يواصلون المشي خلفنا بكل هدوء ووقار يقدمون لنا الوسائد لنتكىء عليها في جلستنا هذه ، في حين انحنى الآخرون من وراء اكتافنا ليخرجوا الفراريج المحمرة من جوف الخراف ويقدموها للضيوف .

لقد حدث كل ذلك قبل الشروع بالاكل ، وخيم الصمت شاملا جوانب القاعة حالما بدأنا بتناول الطعام ، ذلك لان التحدث أثناء الاكل مغاير للتقاليد العربية . ثم ، وبتحريف بسيط لمثل مشهور : « إذا كان الكلام من الفضة فتناول مثل هذه الوجبة السخية الشهية هو ولا ريب من الذهب » والحقيقة كانت الحفلة من الروعة والسخاء بحيث لا يخجل هارون الرشيد لو بُعث حياً ان يولمها لمدعويه من ذوي الرتب الملكية .

ولا بد من أن يشعر المرء بعد تناول مثل هذه الوجبة الشهية اللذيذة برغبته للمحادثة ، وهكذا شكرنا مضيفنا ونحن ننهض ممتلئين كل الامتلاء وغسلنا ايدينا بصمت ، ثم أخذنا طريقنا عائدين الى قاعة الاستراحة . وبعد دقائق قليلة قدمت لنا القهوة من جديد . وهذا يعني ، حسب التقاليد العربية ، ان الوقت قد حان كي يغادر الضيوف بيوت مضيفهم ، وبالفعل فقد خرجنا عائدين الى بيتنا حالما قدمت لنا القهوة .

●

بعد مضي ايام قلائل على تلك الوليمة العامرة احتفل العالم الاسلامي بعيد الاضحى الذي صادف اول ايامه الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) . وفي ظهيرة ذلك اليوم خرجنا الى فناء السوق الواسعة في الكويت لمشاهدة رقصة الحرب (العرضة) التي يرقصها المواطنون ايام الاعياد والمناسبات الهامة . وحالما وصلنابالسيارة إلى تلك الساحة الفسيحة شاهدنا حشداً من الناس فيهم الكهول الكبار والاطفال الصغار تعلو وجوه الجميع الابتسامات وأمارات الفرح والمرح بالعيد وهم يخطرون بأجمل ملابسهم وأزهاها .

وكان علم الكويت الاحمر يرفرف فوق الساحة الفسيحة التي خصصت لرقصة الحرب . وترجلنا من السيارة مجاهدين للوصول الى وسط الحلبة المعدة للنظارة ، وذلك لكثرة ما احتشد من الناس حول الساحة . وهنا وجدنا سمو الشيخ عبد الله المبارك جالساً بين لفيف من الشيوخ على مقاعد خشبية وضعت بالقرب من حدود ساحة الرقص . وكم كان منظر سمو الشيوخ رائعاً ، إذ كانوا يرتدون أفخر ثيابهم وعلى جنوبهم مواضيهم ذوات المقابض المصنوعة من الذهب الخالص . وعندما اقتربنا منهم نهضوا وقوفاً ليفسحوا لنا مكاناً نجلس فيه بينهم ، فحييناهم تحية العيد ، ثم اخذنا مراكزنا إلى جانبهم .

في هذه الاثناء بدأت رقصة الحرب ، وقد توسط المغنون الساحة واقفين تحت العلم الخفاق في صفين يواجه احدهما الآخر وهم يتبادلون الغناء والنشيد ، وقد امسك كل منهم بيد الآخر وهم يهزجون ، ثم شرعوا يتمايلون وينثنون وينحنون بتناسق لا أجمل ولا اروع ، ووقف بجانب المغنّين لفيف من قارعي الطبول يرافقون الرقصة بأنغام متناسقة ، بينما كان رئيسهم يؤدي بدشداشته الزرقاء وبقامته المشوقة وشكله الجذاب الرقصة بمفرده ، واقتفى اثره على تناسق أنغام الموسيقى صف من الراقصين اخذوا يسيرون الهوينا متوجهين نحو الساحة .

ولقد جرى اختيار جميع هؤلاء الراقصين من بين حرّاس الشيخ عبد الله المسلحين وعلى رأسهم شخص امضى سنوات عدة يتدرب على اداء رقصة الحرب ، وكان كل راقص يحمل بيده بندقيته ، وهم يسيرون تباعاً خلف بعضهم بعضاً في صف متّسق منتظم حول الحلقة من الخارج وهم ينقرون بأقدامهم على الارض نقرات مدهشة ينتظمها قرع الطبول . وعندما رفع رئيسهم بندقيته فوق رأسه بذراع واحدة مبسوطة جاراه الجميع في ذلك بسرعة . ثم ركـّز بندقيته فوق كتفه كما لو انه يصوبها نحو هدف معين ، والراقصون الآخرون يحارون حركته تلك ، ولكن عندما

قـذف بندقيتـه في الهواء وتلقاها ثانية ، لم يجاره في ذلك الا اولئـك الذين يثقـون بأنفسهم كل الثقة ، بينما قام الآخرون صورياً بتقليد هـذه الحركة .

ورقصة الحرب هـذه قد تبدو للغريب كما لو انها حفلة تؤدى للمتعـة واللهو ، وليس لها ادنى علاقة بحياة المواطنين الصميمة . والواقع ان لهذه الرقصة – في الاساس – هدفـاً خاصاً قصد من ورائـه إثارة الشـعور والحماسة في نفوس الجنود الذين يستعدون لخوض معركة ما ، حتى ان الجنود الكويتيين كانوا في السنوات المنصرمة يؤدون رقصة الحرب وهم في طريقهم الى مناوشة بسيطة

وبعد فترة قصيرة تغيَّر نسق اداء الرقصة ، واخـذ قارعو الطبول الذين كانوا يقفون في الوسط ، يشكلون حلقـة صغيرة ويدورون حول انفسهم فيما هم يقرعون الطبول ، ثم انضم إليهم بعض الراقصين من حمـلة السيوف وشرعوا يؤدون رقصة جديدة وهم يلوّحون بالسيوف بأيديهم بعد ان استلّوها من أغمادها .

عندئذٍ نهض سمو الشيخ عبد الله المبارك عن مقعده بجانبنا ، ونزع عنه عباءته المزركشة المحلاّة بالذهب ، ثم استلّ سيفه من غمده الذهبي ونزل إلى الحلبة وطفق يرقص وهو يلوّح بسيفه .

وتبعه إلى الحلبة اولاد الشيوخ ممن كانوا يحضرون الحفـلة ، يحمل بعضهم المسدس والبعض الآخر السيف ، بينما استعار آخرون – ممن كانوا لا يحملون اي سلاح – اسلحـة ذويهم . والجدير بالذكر ان هذه الرقصة تشكل ركناً اولياً في تدريب الشيوخ الصغار بانضمامهم الى رقصة الحرب ، حتى إذا ما شبّوا عن الطوق كانوا خبراء بممارسة هذه الرقصة الصعبة واعمارهم لا تزيد على الست او الثماني سنوات يراقبون الكبار ويقلدونهم تقليداً بارعاً في نقل خطاهم المتناسقة مع قرع الطبول . كذلك كان رئيس الفرقة الموسيقيـة يؤدي الرقصة وهو ينقر على طبله .

ولقد كانت رقصة مدهشة ورائعة حقاً ، اذ كان الراقص يرقصها احياناً على رجل واحدة ثم يقفز في الهواء قفزة بهلوانية ليرينا كيفية ادائها راقصاً على رجله الثانية حيناً آخر . واخيراً يدور على نفسه عدة دورات يعود بعــدها ليوازن وقفته مراقباً اعضاء فرقته فيما هم يرقصون .

وفجأة اشتدت الحركة وبلغت الحماسة ذروتها عندما وصلت الى الساحة ارتال من السيارات الصغيرة والكبيرة ، واذا بسيارة كريزلر تشق طريقها في اتجاهنا بين الجموع التي اخذت تفسح لها الطريق .

وهنا توقف الرقص فيما كانت تلك السيــارة السوداء التي يرفرف عليها علم الكويت تشق طريقها الى قلب الساحة ، ووقف افرد الفرقة يراقبون تلك السيارة وهي تدنو من مقر جلوسنا . وقبل ان تتوقف نهائياً بتقدمها الوئيد اندفع منها اربعة رجال مسلحين سود البشرة وبعـد لحظات ، ترجّل منها سمو الحاكم المغفور له الشيخ احمد الجابر .

ثم وصلت سيارتان اخريان إثر سيارة الحاكم تقل انجاله ومساعديه ، واخيراً وصلت شاحنة كبرى تحمل ثلة من الجنود المسلحين .

وحالما استراح سمو الشيخ احمد في مكانه بجانبنا ، طفق افراد حرســه الخاص يقفزون هنا وهناك ليأخــذوا أماكنهم خلف الشيخ ، وهنا أخذ الحاضرون ينهضون من أماكنهم متوجهين الى مكان الشيخ الواحد اثر الآخر يلثمون يده دليلا مصداقاً على ولائهم لشخصه الكريم ، وتبعهم أنجال الشيوخ الذين اشتركوا في رقصــة الحرب والذين تقدموا خجلــين من الشيخ يلثمون يده ، بينما كان الشيخ احمد ينحني إلى الأمام ليطبع قبلته الأبوية على خد كل منهم .

وما ان انتهى ذلك حتى عادت الفرقة الى اداء آخر مرحلة من رقصة الحرب بحضور سمو الشيخ احمد ، وهنا وقف المنتشرون في صفــين منتظمــين الواحد قبالة الآخر وشرعوا ينشدون متمايلين تارة الى الامام وطوراً الى الوراء، ثم يميلون إلى الامام يؤدون التحية لبعضهم بعضــاً ، بينما كان الشيخ عبد الله

ولفيف من الراقصين المتحلقين حول قارعي الطبول يرقصون في اتجاهنا حيناً ثم يعودون الى مكانهم حيناً آخر ، ويلوحون بسيوفهم المصلتة في الهواء وكأنهم يودعون الشمس التي جنحت نحو المغيب .

واستمر الرقص حتى اختفت الشمس وراء الافق البعيد .

وفي هذه الأثناء بدأ بعض المتفرجين يغادرون الساحة ويتفرقون فيما كانت الفرقة تؤدي آخر دوراتها . وأخيراً ، خرج الشيخ عبـد الله من حلبة الرقص فأعاد سيفه الى غمده ، ثم وضع عليه عباءته . وفي هذه اللحظة كان سمو الحاكم يستعد لمغادرة الساحة إذ نادى سائق سيارته فهرع مرافقوه ليفتحـوا له باب السيارة ، ثم صعد انجال الشيخ الى سياراتهم يتبعهم الجنود . وبعد لحظات قليلة تحركت سيارات موكب الشيخ آخذة طريقها نحو القصر .

وهكذا انتهت رقصة الحرب ...

ولكن قرع الطبول وأهازيج المغنين ووقع أقدام الراقصين ظلت تــتردد أصداؤها في أذهاننا حتى وصلنا الى البيت .

رحلة صيد بالصقور

من أدهش المشاهد التي تربط القديم بالحديث والتي يلاحظها الاجنبي اينما كان وحيثما توجه ، رؤية الصقور المدربة على الصيد ، متربعة على قضبانها في قصور القرن العشرين ، والى جـــانبها سيارات من أحدث ما انتجته مصانع الـكاديلاك تنتظر أحد الشيوخ لتنطلق به مع صقوره هذه الى مظان الصيد الصحراوية .

والصيد بالصقور رياضة طالما مارسها الامراء في الجزيرة العربية ، منـذ القرون الوسطى ، طلباً للهو وتزجية للوقت . ورغم ما تعرف عليه الكويتيون المعاصرون من ضروب الرياضة ، فقد ظلوا متمسكين بممارسة هذه الرياضـة التقليدية لا يتخلون عنها .

وطيور الحُبارى هي الفرائس التي يستهدفها الكويتي بالدرجة الاولى لاقتناصها بالصقور ، وهي تهاجر الى الكويت خلال فصل الشتاء كما يهاجر اليها – في ذلك الوقت – الصقور الكبيرة التي تتغذى من لحوم الحبارى التي يقتنصها الصيادون العرب ومن ثم يدربونها على القنص ، وهكذا نرى تلازم الهجرة ما بين هذين الطائرين ، إذ سرعـان ما تجد الصقور منطلقـة من قلب الجزيرة العربية وهي تستهدف الطيور التي تقتات منها .

ومع إطلالة شهر تشرين الثاني (نوفمبر) نقل إلينا أحد رجال البـدو انه شاهـد أسراباً من الحُبارى في الضواحي ، ولذا خففنـــا بعد فترة قصـيرة لتجهيز أنفسنا للقيام برحلة صيد بالصقور لتجربة حظنا في الصحراء ، ولقد هيأنا الترتيبات اللازمة لتلك الرحلة منطلقين اليها في صبيحة اليـــوم التالي بعد ان ضربنا موعداً مع اثنين من رجال الشيخ ممن يدربون الصقور

على الصيد مصطحبين شلة من الأصدقاء ممن يطيب للمرء تزجية الوقت معهم ومشاطرتهم حلّه وترحاله .

وأشرقت الشمس ناثرة فيضاً من ذهبي أشعتها على الحقول توشّيها بخيوط يداخل ضياءها الظلال ، في الوقت الذي انطلقت بنا قافلة السيارات من الكويت . ولما كانت وجهتنا الغرب فقد انتهت بنا الطريق الى تلال كبد (جبد) الخفيضة التي تنبسط من ورائها مساحات شاسعة من الأرض تموج بالأعشاب المتلاصقة بعضها ببعض لتعكس الضياء بلون هو أشبه ما يكون بلون أوراق الزيتون . وفي هذه النقطة كنا نبتعد عن مدينة الكويت مسافة ستين ميلاً بحيث وصلنا الى بئر ماء علت فوهته مضخة يستعملها البدو في ضخ الماء منه لقضاء حاجياتهم وسقي مواشيهم ، ولذا توقفنا نرقب عن كثب كيف يملأ البدو قُرَب المياه .

والجدير بالملاحظة ان الطريق المعبدة تنتهي عند هذه البئر ، ولذا ترتب علينا ان نتابع مسيرنا في طريق صحراوية مجهولة المعالم ، تمر عجلات سياراتنا فوق الحشائش والاعشاب التي ملأت البطاح تطالع النظر كيفما اتجه الانسان ، وفي هذه المنطقة بالذات يكثر طير الحُبارى الذي ننشد . وسرعان ما شرع مدرّبو الصقور يعدّونها للمهمة التي كانت بانتظارها .

وكان احد مدربي الصقور ، ويدعى عدّاس ، في سيارتنا قد أمسك بصقره الذي أرخى على منسره قناعاً جلدياً ، وبقي ذلك الجارح متربصاً على يده بكل صمت وهدوء ، بينما ظلت السيارة تنطلق بنا في هذا المتسع من الأراضي الصحراوية . وبعد لحظات قليلة أخرج عدّاس من جيبه خيطاً ربط به قوادم الجارح الثلاث من كل جانح من جناحيه . وغالباً ما يعمد مدرب الصقور الى ذلك العمل كي يعرقل طيران الصقر إذا خدعته الحُبارى اثناء انقضاضه عليها للمرة الاولى ، حتى اذا ما فشل في الامساك بها كفّ عن مطاردتها إذ تكون اسرع منه في الطيران ، وبذا – إن كان الفشل حليفه – يضمن المدرب عودة صقره إليه .

ولم تكد تمضي فترة قصيرة حتى كفّ الصقّــار الثاني عن المسير ، ولا عجب فقد وصلنا الى مكان كان الرجل يتوقع ان يعثر فيه على بعض طيور الحُبارى ، ووقف الصائد في السيارة المكشوفة رافعاً الصقر بيده اليمنى بعد أن رفع القناع عن منسره كي يتسنى له الاستطلاع بنفسه .

والذي يبعث على الدهشة ان الحُبارى عندما تشعر بداهم الخطر تجثم متلبدة على الأرض لا تأتي بأية حركة كي تضلل الصيــاد عن رؤيتها ، يساعدها في ذلك لون ريشها الذي يماثل لون الرمال ، وفي هذه الحالة يأخذ الصقر الذي لا تنطلي عليه حيلة الحبارى – بالغقغقة [1] يقيناً منه بأن فريسته قد ترفع رأسها من مكنها لتعرف مصدر الغقغقة ، وبذا تفضح نفسها حيال الصقر الذي يظل يتطلع حواليه بكل يقظة وحذر ، كما يأخذ الصقّار باطلاق نداء خاص في مهمته تلك ، وها ان الصقّار محمد يرفع عقيرته بالصراخ :

« هوا .. ها .. هوا .. ها .. »

كما لو أنه يساعد الصقر على استفزاز الحُبارى التي قد تكون مختبئة في الرمال . ويظل الصقر في تلك الأثناء يجيل ناظريه المتفحصين في المنطقة المحيطة يحرك رأسه الى كل الجهات مدققاً لمعرفة ما إذا كان في المنطقة بعض الفرائس للانقضاض عليها . ويكرر الصقّار نداءه المعروف يتبعه بصرخة منسقة التنغيم والتي تشبه إلى حدٍّ ما ضحكة مجلجلة صائحاً :

« ها .. ها .. ها .. ها .. »

وحالما تقع عينا الصقر على احدى الحُبارى يبسط جناحيه في الجــو فجأة ، بينما يسرع عداس الى حل عقدة الخيط المشدود الى الصقر ليتسنى للجارح الطيران إثر فريسته ، الا ان الصقر لم يرَ حينذاك شيئاً ، ولذا ، بادر الصقّار محمد الى وضع القنــاع على منسر الصقر وتابعنا المسير . وكررنا المحاولة في مكان آخر حيث توقعنــا وجود بعض الحُبارى ، ولكن بدون جدوى كذلك .

---

١) الغقغقة : صوت الصقر .

وفي المرة الثالثة كنا قد سرنا إلى الأمام مسافة ربع ميل عندما وقف الصقار عداس في السيارة ورفع القناع عن منسر صقره ، ثم راح يطلق الصرخات المعروفة مرات متتالية صائحاً : « هوا .. ها .. هوا .. ها .. » حيناً ، و « ها .. ها .. ها .. ها .. » حيناً آخر ، في الوقت الذي كان الصقر يرفع رأسه ويخفضه بشوق وهو يتفحص المكان . ثم رأينا الصقر يركّز عينيه على نقطة معينة بادر بعدها بلحظات الى بسط جناحيه ، بينما بادر عدّاس الى حله من وثاقه ، وأطلق الصقر في الهواء مع ايماءة من يده .

ورغم اننا لم نرَ أي أثر لأية حبارى فيما حولنا ، كان واضحاً لدينا ان الصقر يرى شيئاً اذ ظل يطير في نفس الاتجاه ليسفّ بعد تحليقه حتى يكاد يلامس الأعشاب . واخيراً ، وعلى مسافة خمسين ياردة من السيارة ، انقض الجارح فجأة على كومة من العشب وانقلب خلفها ، وكنت أتوقع نشوب معركة ضارية ما بين الصقر والحبارى ، ولكن الصقر على ما يبدو قد قضى على فريسته بضربة واحدة شاهدنا على اثرها ريش الحبارى الابيض يتطاير في الجو ، فعرفنا ان الصقر كان ينزع ريش ضحيته بمنسره .

وهكذا قفز الصقّار من السيارة وخف مسرعاً الى مكان الحادث ، حيث وجد صقره جاثماً فوق صدر الحبارى يمزّق اللحم الطازج من صدرها ويلتهمه . فاقترب عدّاس من الحبارى وغطاها بطرف عباءته بكل هدوء حتى لا يثير غضب الصقر . ثم أسرع بوضع القناع على منسره وأخرج سكينه من جيبه وقطع بها عنق الحبارى .

وبينما كان عداس منهمكاً في السيطرة على صقره ، وتهدئة روعه ، وانتشال الحبارى من بين مخالبه ، عزم بقية الرفاق على ان يجوسوا المكان مشياً على الاقدام ، لانه ما دام عدّاس قد شاهد احد الحبارى فلا بد من ان يكون هناك غيرها قد كمن في الرمال ، ولكنّ بحثنا ذهب أدراج الرياح فعدنا إلى سياراتنا لنتابع التجوال .

كنا ننطلق بسياراتنا على غير هدى في الأراضي الصحراوية المجهــولة المعالم ، حتى وصلنا إلى المكان الذي أشار إليه مدربو الصقور ، وبعد ان توقفنا ثلاث او اربع مرات في الطريق ودون ما جدوى ، رأينا ان أحــد الصقور اخذ ينظر ويحدق في مكان ما بمزيد من الاهتمام . وقد بدا جليــاً من حركاته ونظراته انه احسّ بحركة ما ، ولكن لم يكن واضحاً ما اذا كانت تلك الحركة ناجمة عن الحبارى ام لا . عندئـــذ ، بدأ الصقار يصرخ الصرخات التقليدية ويكررها مرات عدة . وعندها جمد الصقر في مكانه يحدق بعينيه الثاقبتين في اتجاه واحد لا يحيد عنه ، وأخيراً ، طار قبـــل ان يتأكد من المكان الذي تكمن فيه ضحيتــه كما فعل في المرة الاولى ، ثم حطّ فوق كومة من العشب دون ان يبدو منه ما يشير الى معرفته بمكان الحبارى .

كان الصقر الآن على مسافة بضع مئات من الياردات من مكان السيارات ، واقفاً بحذر كما لو أنه يحس بشعوره المرهف بوجـــود الحبارى ، دون ان يتمكن من رؤيتها . اما نحن فقد بقينا في مكاننا نراقبه ، ثم ارتقينا السيارات واتجهنا بها صوب المكان الذي يقف فيه . وكم كانت دهشتنا بالغة عندما رأينا اربع حبارات تطير في الجو مرتفعة من تحت عجلات السيارة ، فيما كنا نتّجه الى مكان الصقر . وللحال تناول احدنا البندقية التي كانت معنا في السيارة واطلق منها بضع طلقات على الحبارى فلم يصب منها الا واحدة سقطت على مسافة دانية من السيارة ، فما كان من الصقر الا ان انقض عليها واوشك ان ينهش جسمها بمنسره لولا ان هرع الصقّار نحوها والقى بالقناع على منسر الجارح وذبح الحبارى بالسكين .

ومما هو جدير بالذكر ان البدو قد اكتشفوا منذ زمن مغرق في القــدم عقم محاولة صيد الحبارى بدون الصقــور ، لان الحبارى قادرة على الطـيران قبل ان يتمكن الصياد من تسديد بندقية الصيد واطلاق الرصاص عليها ، سواء كان معتلياً ظهر جمل او واقفاً في سيارة ، على عكس صيد هذا الطائر

بوساطة الصقور ، لان الحبارى لا تطير عندما يراهــا الصقر بل تعمد الى الاختباء في الرمال او بين الاعشاب لتضلل الصقر ، متحينة الفرصة للافلات منه . وهكذا ، تبقى الحبارى قابعة في مجثمها دون ان تطير ، فيلحق بهــا الصقر ويفترسها دون ان تتحرك من مكانها ، الا اذا وجدت نفسها في مأزق لا معدى لها فيه عن الطيران كآخر امل لهــا للإفلات من براثن الصقر ومطاردته اياها . وفي هذه الحالة يغدو استعمال البندقية اجدى طريقة لصيـــد الحبارى ، وخاصة بعد ان تمكنت من الافلات من منسر الصقر .

في غضون الساعة التالية تمكنا من صيد ثلاث حبارى ، وهنا اخذ واحد من الصقور يضايق مدربه ومربيه .

لقد حدث ذلك عندما نزع عداس القنـــاع عن منسر ذلك الصقر كي يساعده على التطلع حوله بحرية ، شأنه في الحالات السابقة . ولكن ، بدلاً من ان يحدق الصقر في اتجاه معين ويركز اهتمامه بالاقتناص كما هو متوقع ، طار عن يده وحلـّق عالياً في الجو وهو يحوم على غير هدى ، ثم حطّ في مكان ليس ببعيد غير مكترث بالصيد والفرائس . وهنا قفز عداس مترجـــلاً من السيارة وقصـد المكان الذي حطّ فيه هذا الجارح وهو يناديه باسمه ، ولكن الصقر لم يكن راغباً بالعودة الى كنف سيده . وبدلاً من ذلك ظل واقفاً مكانه يطيل النظر في مدربه عدّاس ، ثم طار في الجو ليحط في مكان آخر بعيداً عن مربيــه حوالي مئة ياردة ، وجرى الرجل في اثره ، ولكن الصقر عاود الطيران ثم حطّ فوق كومة من العشب .

ولما ادرك الصقّار انه ليس في نية الصقر ان يثوب الى رشده ويسلس طائعاً عاد الى السيارة حيث اخرج حبارى ميتة من جراب الصيد ، ورجع الى مكان الصقر حيث اخذ يدنو منه بحـذر ويلوّح امامه بالحبارى كما لو كان يريد ان يفهمه بأن هذه الحبارى من نصيبه ، ومــا عليه الا ان يقبل ليلتهمها ، وراقت الفكرة للصقر الذي شرع يبدي اهتمامه بما في يد مدربه ، ويبدو انه رأى العرض مغرياً ، ومن السخف ان يفوت هذه الفرصة السانحة .

عندئذٍ ، بسط جناحيه في الجو وطار عائداً الى يد عدّاس المبسوطة امامه . والواقع ان عدّاس لم يخيب امل صقره اذ قطع راس الحبـــارى وقدّمه اليه ليلتهمه فيما اخذ يسير عائداً ادراجه الى السيارة .

بعد لحظات شاهدنا ثلاث حبارى تقفز هاربة دون السيارة على بعد خمسين باردة . وفي الحال ، بادر عدّاس الى نزع القناع عن منسر الصقر واطلقه ليطير حيث اشار له مدربه اين كانت الطيور . ويبدو ان الحبارى قد وجدت ان الزمن يعمل في جانبها ، فقررت بدورها ان تطير ، وكانت في الجو قبل ان يدركها الصقر . الا ان الصقر جدّ في اثرها ، وهنا الخطر كل الخطر من افلات الصقر ناشداً حريته اذا ما سُمح له بأن يجدّ في مطاردة الحبارى وهي طائرة .

وكان عدّاس يعرف هذا الواقع لا سيما وقـــد اظهر صقره كثيراً من التمرد قبل ان يعود الى كنفه منذ لحظات ، فكيف اذا تركه يطير جاداً في اثر الحبارى المشهورة بسرعة طيرانها وشـدة عزيمتها على الانطـلاق مسافات طويلة وبوتيرة اسرع من الصقر ، وعلى ذلك فلا معدى لهذا الجارح من ان ان يفكر في الهرب تخلصاً من ربقة الاسر عندما يجد نفسه وقد غدا بمنجاة من سيده . ولهذا اخذ عدّاس ينادي الصقر ويلوّح له بالحبارى الميتة عسى ان يغريه على العودة ، ولكن الصقر تابـع طيرانه غير مكترث لنداءات سيده ولا لاغراءاته . وقدتابع طيرانه إثر الحبارى رغم ان الامل قد تضاءل في ان يتمكن من اللحاق بها او اقتناص واحدة منها .

وهنا أخذ القلق يساور نفس الصقّار الذي وقف يشاهد صقره وهو يضرب بجناحيه في اجواز الفضاء بعيداً بعيداً ، فلم يجد مندوحة من ان ينادي سائق السيارة ويأمره بمطاردة الصقر الذي كاد يغيب عن الابصار .

لقد حدث كل ذلك ونحن في سيارتنا نراقب السيـــارة التي انطلقت بأقصى سرعتها عبر الاراضي الصحراوية تجد وراء الصقر ، في حالة لا يمكن للمرء فيها ان يتصور السرعة الجنونية التي اندفعت بهـــا السيارة لتلحق بالصقر قبـل

ان يغيب عن بصر الصقّار عداس ، ولا اللهفة التي أظهرها الصقـار لاستعادة صقره ، فقد كانت سرعة السيـارة تزيد على الستين ميلاً وهي تنطلق مترنحة فوق تلك البطاح الصحراوية ، ذات اليمين وذات الشمال ، تصعد صعوداً لتعود فتهبط قبل ان تستوي في سيرها . كل ذلك والصقار واقف في صندوق السيارة الخلفي ينادي صقره ويلوّح له بكافة ما يعرف من وسائل الاغراء ، حتى كادت السيارة ان تتحطم ، وحنجرة الصقّار ان تتمزق .

والجدير بالذكر أن الصقور ذات قيمة بالغـة ، وهي فضلاً عن غالي سعرها تضني مدربها حتى تحسن الصيد كما يجب . لذا ، ومن قبيل الاحتياط ، فالصقار يشد قادمتي الصقر الكبير بالخيط ليعيقه عن التحليق في الجو الى مسافة بعيدة . وعلى أية حال فقد تعب الصقر اخيراً من مطاردة السيارة اياه، ورأيناه يستقر في الجانب الثاني للتلّة . وعاد في النهاية طائراً الى سيده عدّاس الذي لم يدع وسيلة من وسائل الاغراء إلا وجرّبها معه ليعيده إليه .

وحين اخذت الشمس تعلو في الفضاء أكثر واكثر ، لاحظنا ان لهفة الصقور للصيد اخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً لأن كل صقر – حتى قبيل الظهيرة – كان قد اقتنص ثلاثة من طيور الحبارى ، وسد الرمق ببضع نتفـات من لحومها ، مما اقعده عن التطلع الى صيد جديد ، كذلك شعر مدربو الصقور بأنه قد آن لنا ان نتبلغ ببعض الزاد الذي نحمله معنا ، وهكذا جلسنا في مكان في هذه الارض البراح حيث اصبنا قسطاً من الراحة والطعام .

وبعد فترة الاستراحة والاكل لاحظنا أنالصقور استعادت نشاطها وحماستها للصيد منذ ان قمنا بتلك الرحلة الممتعة .

في هذه الاثناء كنت أنا شخصياً اقف بجـانب مدربي الصقور في صندوق السيارة المكشوفة ، وصادف وقوفي الى جانب الصقار محمد الذي يطلق نداءاته للتغرير بالحبارى ، ورحت اتفحّص جميع الأراضي المجـاورة علّني استطيع الاهتداء الى مكان الحبارى ، ولكن المكان بدا لناظري لا حركة فيه خلواً من أي كائن . ومع ذلك كان باستطاعة الصقر ان يرى بثاقب نظراته ما لا تراه

عين الانسان ، وبدا شديد الحماسة واللهفة الى التحليق بالجو . وبالفعل فقد طار عن يد سيده وحلق مرتفعاً في الفضاء في غضون لحظات معدودات ، بينا وقفنا نراقبه طائراً ، ثم شاهدناه يجمد في الجو فجأة ، وقد بسط جنـــاحيه في الجو ليساعداه على التدويم والتحليق في الارض الواقعة تحته . ثم تحرك قليلاً وصفق بجناحيه ، ثم طواهما ، وانقض على الارض بسرعة السهم قبل ان نكوّن لانفسنا أية فكرة عما سيحدث . وكل ما شاهدناه في تلك اللحظـــة لا يعدو بعض الوميض واللمعان في أشعة الشمس ، إلا اننا ادركنا بعد ذلك أن هناك حبارى كامنة في المكان الذي انقض عليه الجارح فشعرت المسكينة بوجوده وخطره ، واخذت تحرك جناحيها وذيلهـــا استعداداً لخوض معركة مع ا ،قر ، كما هو معروف عن الحبارى .

في هذه الاثناء ، حلّق الجـــارح ثانية الى علو قدم واحد تقريباً فوق الارض ، ثم هوى على الحبارى وضرب عنقها بمخـــالبه ، وعاد وحلّق ثالثة ليعاود الانقضاض على الفريسة يضرب عنقها مرة اخرى ويقطع عليهـــا طريق الفرار .

كنا ما نزال واقفين نتفرج مستمتعين بهذا المشهد المثير عندمـــا لاحت لنا الحبـــارى ، وقد قفزت عن الارض ، فيما كان الصقر ينقض عليها للمرة الرابعة ، واستطاعت الابتعـــاد عن مركز انقضاضـــه فتخلصت بذلك من الضربـــة التي ستكون القاضية . ومن ثم اشتبك الطائران في معركة على الارض ، فكان الصقر يحاول ان يصيب مقتلا من الحبارى بضربهـــا على عنقها الضربة القاضية التي تطيح بها ، بينا كانت الحبارى تحاول ان توليه ذيلها وتقذف وجهه بسائل اخضر تعتمد عليه كل الاعتماد للدفاع عن نفسها ضد اي هجوم تتعرض له .

ولكن الصقر ترك الحبارى جاثمة على الارض ، وحلق في الجو ممـــا اهاب بالمسكينة ان تقفز بسرعة طلباً للهرب ، إلا ان الصقر فاجأها بهجوم خاطف من الجـــو قبل ان تتمكن من التواري خلف الاعشاب ، ومع ذلك استطاعت ان تفلت منه وادارت له ذيلها مدافعة عن نفسها ، بيد ان الصقر انقض عليها

بجنون وأعمل منسره في عنقها فسقطت ميتة على الأرض .

لقد سعيت خلف محمد عندما ركض ليخلص الحبارى من مخالب الصقر ، ومن إعمال منسره في لحمها الطازج الشهي ، وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا الصقر غارزاً مخالبه في عنق الضحية لا يريد التخلي عنها بصورة من الصور لولا براعة الصقار محمد وخبرته في تخليص الحبارى من مخالب الصقور . عندئذ اخرج الصقار سكينه من جيبه وقطع بها عنق الحبارى ، ثم عدنا الى السيارة لنضيف الى غنائمنا حبارى اخرى اصطدناها في آخر مرحلة من مراحل هذه الرحلة .

المطر هو الحياة

يتطلع العرب في الكويت الى السماء ، خلال أشهر الخريف الطويلة الباردة بعيون يشع منها الامل يترقبون هطول المطر في هذا اليوم او ذاك . وغالباً ما تغطي السحب سماء بلادهم قادمة من الجهتين الشمالية الغربية والجنوبية تخالطها خيوط الشمس عند الغسق بلون أحمر جذاب ، ولكن يطول انتظار الناس ولا تمطر السماء .

وفي اواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) يأخذ الندى بالتساقط أثناء الليل ، فيلاحظ الناس آثاره في صباح اليوم التالي على الرمال التي يحول لونها ضارباً الى الدكنة ، ويتنشقون عبيره مع الهواء الذي يهب صباحاً مشبعاً بالرطوبة ، وقليلة هي الأعشاب التي تنبتها الصحراء متفتحة عن ذلك الطل ، ولا تعدو انواعاً قليلة من الاعشاب التي تلوّن الرمال بالخضرة .

وكثيرة هي الاشاعات التي تتطاير من أفواه الناس حول امتداد الغيوم المشبعة بالغيث من أجواء المملكة العربية السعودية والمنطقة المحايدة ، والمطر أبداً هو الموضوع الرئيسي الذي يتبادل الناس حوله شتى الأحاديث والحكايات . ولا غرابة في ذلك البتة ، لأن المطر في الجزيرة العربية يعني الحياة ، وان البدوي الذي يعتمد على نفسه في تحصيل القوت يعوّل في الدرجة الاولى على المطر لاستمرار بقائه وبقاء مواشيه التي قد تموت إذا لم تجد السماء بغيثها ، وهو في هذه الحالة لا يتعرض لخسارة لحومها فحسب وانما يخسر كذلك جلدها وصوفها ، مما يشكل قوام حياة هذا الكائن ، والجمال والماعز والغنم التي تبقى بنجوة من الموت صيفاً تظل قيد الحياة خلال أشهر الخريف الباردة ، على امل ان تجود السماء الارض بماء غيثها المنور عن المراعي

الخصبة ، ولكن عندما تنحبس مياه الأمطار عن الهطول يصيب الهزال تلك المواشي ، ويخيّم شبح الفقر والمجاعة اكثر فأكثر في سماء حياة ساكني الصحراء .

وعلى الرغم من ان المطر ليس حيوياً بالنسبة لسكان المدن لانهم لا يملكون المواشي ، وسيّان عندهم أأمطرت السماء أم لم تمطر ، فهم يتلهفون على هطول المطر تلهف ساكني البادية وحنينهم ، لأن نفوسهم مفعمة بتلك اللهفة وذاك الحنين اللذين قد أشربت بهما قلوبهم منتقلَيْن اليهم بالوراثة عبر الآباء والاجداد ، وكم يشعرون بالارتياح والسعادة تغمر أفئدتهم عندما تجود السماء بمائها شتاءً شأنهم في ذلك شأن البدو سواء بسواء .

وذات يوم ما زال عالقاً بذاكرتي ، كنت أتنزه في الفلاة على ظهر جوادٍ إذا بالسماء يكفهر أديمها وتنبسط الغيوم في حواشي الأفق ، فداخل نفسي القلق والرغبة في العودة والوصـــول إلى البيت قبل المطر . والحقيقة ان الغيوم كانت تنتشر بسرعة تكاد تلامس سطح الأرض آخذة باتجاهها سمت المدينة . وفجأة شعرت بالجو يتغير وبالطقس يبرد ولسعتني نسمة احسست معها كما لو امتدت يد بليلة الى جبيني لتندّيه وترطبه ، فداخلني الاعتقاد بأن الخريف قد انقلب الى شتاء قارس خلال لحظات معـــدودات . ثم سكنت الريح واتّشحت الأراضي بوشاح غريب يكتم في طياته سائر الحركات والدمدمات التي كانت تسمع قبل لحظات .

لقد اطبق الصمت عليّ حابساً أنفاسي وانفاس حصاني الذي بدا وكأنه يترقب وقوع حادث جلل ، وراح يعبّر عن شعوره ذاك عندما اخذ يخفف من سرعته ثم توقف ، ولبثت متريثـــة بضع لحظات اصيخ السمع لما عسى أن يحـــدث إثر ذلك السكون الذي خيّم فجأة على الصحراء ، وكم كانت دهشتي عندما شاهدت بوادر المطر المتساقط على شكل قطرات تبلل عطشى الرمال .

ارتعش الجـــواد لدى سقوط اولى قطرات المطر على جسمه ، وانطلق

تلقائياً يعدو نحو البيت ويضاعف من سرعة عدوه كلما زادت سرعة تساقط المطر ، وهكذا تلوثت الرمال فجأة لتنقلب تلك البطاح إلى اراض يتخللها الوحل هنا وهناك .

وتبعاً لذلك تشبّع الهواء بالرطوبة المنبعثـــة من الارض ، وفيما كنت أعدو بحصـــاني في طريقي إلى البيت عبر المدينة لمست الشعور بالارتياح في كل مكان ، الشعور الذي يبعث على الامل بتجديد الحياة للبشر والأنعام على السواء ، واسترعى انتباهي منظر النســـاء وهن يمررن بأيديهن الى الخارج للتأكد من هطول المطر ، بينما كان الاطفال الذين يلعبون في الشوارع يضحكون ملء جوارحهم بفرح لا أحسب انهم يعرفون بواعثه ، ويطيلون التحـديق في السماء دون أن يفكروا بالبحث عن مكان يلجأوون اليه لتفادي البلـل .

ان الشعور بالغبطة بسبب هطول المطر هو شعور أبعد ما يكون عن تفكير الرجـل الانكليزي ، ولكن الحرّ والجفاف والغبـار في الكويت طوال فصل الصيف تهيب بالأجنـبي ان يشعر بالتعـاطف مع اولئك العرب الذين يغمر الفرح أفئـــدتهم لدى هطول المطر لأول مرة في الشتاء ، ذلك الفرح الذي يتوقع صاحبه من ورائه اعتـدال الطقس واخضرار الأراضي والازدهار ، وكل تلك الخيرات ظاهرة من ظواهر هطول المطر .

وفي تلك الليلة تشربت الارض بكميات من المياه التي جادت بها السماء ، لكن الارض كانت آنذاك اشبه بذلك الانسان الذي يشعر بأنه يكاد يموت ظمأ ، وعندما يجد الماء يكتفي بأن يطفيء غليله برشفات قليلة ، وهكذا لم تتمكن الارض من امتصاص كميات كبيرة من الماء دفعة واحدة ، ولذا شقت الكميات الفائضة من مياه المطر لنفسها أخاديد أخذت تتـدفق فيها مندفعة نحو البحر . أما التلة الواقعة وسط المدينة ، فقد تفرع عنها عدة جداول للمياه أخذت سبيلها في كل شارع من شوارعها حتى غمرتها وجرفت معها الاقذار والأوســاخ التي تبقّت من آثار الصيف مبعثرة إياها هنا وهناك في الازقـة

والمنعطفات الضيقة .

وهكذا أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي على مناظر وأماكن طرأ عليها التغيير والتبديل . وكان الجـــو يبعث في النفس الشعور بالارتياح والسرور ، كما لو كان اليوم يوم عيد ، كذلك انعكست على وجوه المارّة امارات الغبطة والسرور حتى بدت المدينة ذاتها بعد ان نظفتها مياه الأمطار من قذى الصيف وغباره منتعشة خاطرة بحلة من السرور . أما الذي كان يبعث على الدهشة فهو منظر الاولاد وهم يخوضون في مياه المطر التي تجمعت هنا وهناك ، ويسيّرون فيهـا زوارق صغـيرة نموذجية صنعوهـا من الريش والعيدان .

وبعد شهر تقريباً خرجنا في نزهة بالسيارة إلى الصحراء لرؤية تأثـــير المطر في الضواحي المجاورة للمدينة ، ولمّا أخـــذنا سمت اتجاهها سالكين طريق الرياض استهدفنا تلك المنطقة التي قال البدو بأن المطر قد جادها بغزارة ، ويا لروعة المناظر البديعة التي انكشفت لنا عن جانبي الطريق . كانت الطيور تزقزق مدومة محوّمة فوق قطيع من الغنم تجمع حول بئر من الماء ، وهي تملأ الجو بصداحها الرائع الاخاذ .

ثم خرجنا عن هذه الطريق بعد مسيرة قصـيرة وحوّلنا خط سيرنا نحو الطريق التي تسلكها الجمال لنجوس أرضاً مكسوة بالاعشـاب الصحراوية ، وبعد ان قطعنا شوطاً غير قصير في هذه الطريق الوعرة كنا نفاجأ ببعض الطيور تقفز من تحت عجلات السيارة ، وتطير محلقة في الجـــو ، فنقف نتفرج عليها وهي طائرة في السماء حتى تغيب عن انظـارنا . وكم تمنينا لو ان الطريق تصلح لسيـارتنا كي تطارد تلك الطيـور بحيث يسهـل علينا القيام بمحاولة قنصها .

والواقع ان السماء قد أمطرت بغزارة في هذه المنطقة بدليل أن الميـــاه تجمّعت في مساحات واسعة تبدّت لاعيننـــا وكأنها بحيرة تقوم في وسط الصحراء لتنشر على جزء منها وشاحها الفضي وقد تجمعت هنـــالك كذلك

قطعان كبيرة من الغنم والحملان وكلها تنعم بقضم الاعشاب والنباتات التي كانت متوفرة بكثرة في أطراف اماكن تجمع المياه ، ثم وصلنا الى بحيرة أخرى اوشكت مياهها ان تجف ، بينما كان نفر من البدو يملأون منها قربهم ، وقد وقفت حميرهم بجانبهم تنتظر صابرة حتى ينتهوا من هذا العمل .

وعلى العموم لم تكن التربة مخضّلة هناك لدرجة تكفي ان تستوعب المياه مدة طويلة ، بعكس ما كانت عليه التربة في أماكن اخرى مررنا بها ، وقد شاهدنا في بعضها بحيرات مضى على تجمّع المياه فيها مدة تزيد على الشهر دون ان تتبخر او تضحل . ولعمري كم يشعر المرء بالغبطة عندما يصعد الى قمة بعض التلال الصحراوية ويمد الطرف هناك الى تلك البطاح الشاسعة التي غمرتها المياه وجعلت منها بحيرات في قلب الصحراء بين ليلة وضحاها . والجدير بالذكر هنا ان المسافر في الصحراء صيفاً كثيراً ما يخدعه السراب عندما يتراءى له منبسط تلك الرمال وكأنها بحيرات مائية ، فاذا كان المسافر يشعر بالمتعة لرؤية السراب فكيف به إذا رأى بحيرة ماء حقيقية ، لا قِبل لسراب الصحراء ان يخدعه بدافع وجودها . ان ذلك لعمري شبيه بحلم قد تحقق ، حتى لكأن السراب قد ملّ تمثيل دور الخديعة وأباح لاشباحه المضللة ان تتجسّد على شكل بحيرات حقيقية .

وما أحسب القارىء الا عالماً بأن السراب وليد الطقس الحار ، يتراقص على الصحراء بخطوط وأشكال تمتد الى الابعاد البعيدة امتداد الخيال معها ، ولكن ذلك يختلف كل الاختلاف في الشتاء اذ يشعر المرء برطوبة الجو الذي ينأى بالذهن عن جميع اسباب الشك بما يتراءى للناظر . ولذا فان البحيرة تشع بمياهها الراكدة بوضوح في مستقرها من الارض رامزة الى النعم التي تجود بها السماء على الانسان ينعم فيها بالخصب والحياة .

الى مثل هذه البحيرات انتهى بنا المطاف ذلك الصباح من أيام كانون الاول (ديسمبر) الباردة ، وفيما كنا نطوف بسيارتنا حول البحيرات

شاهدنا البط البري يقفز من فوق سطح الماء . وان هذا الطائر الآخـذ الآن سبيله الى الهند يجد في البحيرات التي تتجمع من مياه المطر في الكويت أماكن تبعث على الراحة والاطمئنان ، واذا ظلت هذه البحيرات طويلاً قبل ان تجف مياهها فقد يتجمع البط فيها بأعداد كبيرة .

ترجلت من السيـارة لاسير حـول ضفاف البحـيرة أدفع بأسراب البط الى حيث كان يقف والدي على اهبة الاستعداد لصيدها بالبندقية الـتي يحملها . وما إن قطعت مسافة صغيرة حتى رأيت جملاً كان واقفاً ، وقد مدّ عنقه الى منسميه يشم شيئاً كان ملقى عندهما . ولما اقتربت منه غدا باستطاعتي تمييز ذلك الشيء الذي كان يقف عند منسمي الجمـل ، والأصح الناقة . ولم يكن ذلك الشيء الذي لاح لي عن بعـد كأنه صرة أمتعة سوى فصيل وضعته هذه الناقة حديثاً . فقد كان متمدداً على الارض لا يقوى على النهوض لحداثة ولادته .

وقفت أتطلع حولي لارى فيما اذا كان هناك قطيـع من الجمال ، وقـد تولتني الدهشة إذ عرفت ان هذه الناقة وفصيلهـا قد تخلّفا هنا دون ان يلحظ الراعي ذلك . ثم رفعت رأسي اتطلع الى الضفة المقابلة للبحيرة حيث لمحت كومة صغيرة من امتعة البدو وبعض قرب الماء ، وبينما انا كذلك اذا بي أرى شبحين انفصلا عن كوم الامتعة واتخذا شكل انسان ، والحقيقـة كان هـذان الشبحان بدويـين نهضا من مـكانهما وتقـدّما نحوي ليسلّما عليّ بقولهما :

— « حيّاك الله ! »

وليس ذلك — ولا خلاف — بغريب على طبيعة العربي وخلقه المجبـول على الكرم وحب الضيـافة ، والذي يخف للترحيب بأي غريب يراه او يقابله ، يتحـدث معه ويسلم عليه مقدماً إليـه تحيات الود والصـداقة . وقد أخبرني هذان البدويان ان الناقة وضعت فصيلها هذا الصباح ، وشكرا الله على سابغ نعمه وخـيراته المتمثلة في الامطار الغزيرة التي تبعث الحيـاة

في الصحراء .

ظلّت آبار المياه العذبة الصالحة للشرب لاجيال طويلة تمد البدو بالماء ، وتوفر لهم ولمواشيهم اسباب الحياة . وبالنظر الى شحّ الماء وندرتــه في الصـحراء العربية ، فقـد غدت تلـك الآبار ، في نظر البدو ، أشبـه ما تكون بالاماكن المقدسة . وبالرغم من ان آبار المياه ملك مشاع للجميـع ولو نظرياً ، فان استقرار القبائل البدوية في أماكن وجود الآبار في الصحراء أصبح يهيب بتلك القبائل الى المحافظة على مواردها المائية ، ومنع القبائل الاخرى من استخراج المياه من هذه الآبار . وكم من معركة دامية نشبت بـين القبائل لتعزيز سلطة احداها على موارد المياه .

وتعتبر المياه من اكثر الأمور حساسية في بذر النزاع والصراع مــا بين رجال القبائل . وعندما يدنو البدوي من احدى منــاطق المياه مع قطيعه او جمــاله تراه يجنح الى السرعة كي يمتح المياه اللازمة لأنعامه مسرعاً بافساح المجال أمام غيره من البدو القـادمين على الطريق أو المنتظرين دورهم ليستقوا او يوردوا أنعامهم ، وذلك تفادياً لحدوث اي نزاع حول المياه . لذلك ترى البدوي رغم تباطئه وقلة اكترائه للوقت يصبح نشيطاً رشيقاً عندما يتعلق الامر بمتح المياه ، بحيث لا يهمه من الدنيا ساعتئذٍ الا ان يمتح الميــاه باقصى سرعة ممكنة ، او يملأ منه قربه وجراباته ليسقي ماشيته وجماله فيما بعد .

وثمة نظام دقيق يتعلق بمتح الماء من الآبار يتّبعــه كل بدوي جاء الى البئر ليروي حيواناته من ميــاهه . ويقضي ذلك النظام بأن على البدوي ان يسقي حيواناته بأقصى مسا يستطيــع من السرعة وان يبتعد بها مــا أمكن عن قرَب غيره لئلا تشرب منها مهما استبد العطش بهذه الانعام . ويندر ان يطلب احد البدو من زميله ان يساعده في متح الماء من البئر ، لان التقاليد تقضي بأن يقوم كل بدوي بمتح ما يحتاج اليه من الماء بنفسه وبمنتهى السرعة وإلا فقد ينشب الخصام ما بين طالبي الماء .

وفي ذات يوم من أواخر شهر اذار (مارس) شاهدت قطعانــاً كبيرة من

الجمال تجمّعت حول آبار الصليبيـــة التي تعتبر من أغزر موارد المياه الصالحة للشرب في الأراضي الكويتية . وشاهدنا هناك رجلين من البدو يمتحان الماء من البئر ويفرغانه في قربهما الجلدية لسقي مواشيهما وجمالهما منها ، في الوقت الذي كانت مواشيهما وجمالهما تشرب الماء بسرعة تفوق السرعة التي كان البدويان يمتحان بها الماء من البئر .

وتطلعنا الى الاراضي البعيدة عن الآبار حيث كانت اعداد كبيرة من الجمال تقضم من اعشابها الخضراء وتدنو من موقع المياه متقدمة الى الامـام فيما هي ترعى . ومعلوم ان الجمال في طريقها الى آبار الميـاه تأتي متدافعة بتأثير العطش الذي ينهشها ، فلا تراعي حرمة للنظام ولا تتقيد بقانون ، بل تتخطى كل من تجده أمامها وتقترب من بئر المياه وقد مدّت اعناقها الى الامام يسيل الزبد من اشداقها لرائحة المياه ومرآها . في هذه اللحظة ، كان احد الرعـــاة قادماً على الطريق ومعه قطيع جمال امتدت اعناقها الى الامام فيما كان هو يعللها بالحداء . لكنه كف عن الحداء عندما اقترب من البئر وراح يوزع جمـــاله في صفوف منتظمة يحدوها قائلاً :

« يو .. هو .. يو . هو .. »

بينما اخذت الجمال تتقـــدم نحوه ثم تجمعت حوله حيث وقف ينتظر دوره لمتح المياه لها من البئر .

وكان البدويان السابقان ما يزالان يستخرجان المياه من البئر بهمة ونشاط دائبين ، ويملآن القرب بالماء لتشربها الجمال ثم يعودان الى ملئهـــا من جديد كي تفرغها الجمال فيعاودا املاءها ثانية .

وقابلية الجمل للعيش في الصحراء معروفة ، وذلك يعود الى ما وهبه الله من هيكل يتناسب وحياة البداوة وظروفها القاسية ، فهـذا الحيوان يكتنز في سنامه كمية كبيرة من الشحم توفر له الغذاء أيام الصيف عندما يقل الكلأ وتجف المراعي . كذلك يستطيع هذا الحيوان ان يخـــتزن كمية وافرة من الماء في جوفه ، وتلك ميزة يمتاز بها عن غيره من الحيوانات الاخرى التي لا يسعها أن

تشرب من الماء اكثر من قدرتها ، لأن الجمل يشرب فضلاً عن كميات الميـاه التي تروي ظمأه كميات اضافية يختزنها في جيب خاصة من جيوب معدته يرتوي منها كلما شعر بالعطش دونما حاجة به للذهاب الى البئر في حـين يجب على غيره من الحيوانات أن يتوجه الى الآبار أو أماكن تجمعات المياه للشرب كلما ظمئت .

وفي فصلي الشتاء والربيع عندمـا تكثر المراعي التي تكون رطبة بطبيعة الحال ، لا يشعر الجمل بالعطش الا مرة واحدة كل شهر . اما في الصيف عندما يكون الكلأ جافاً يابساً ، والحر شديداً ، فان الجمل يضطر للشرب مثل بقية الحيوانات ، واذا استطاع البدوي ان يسقي جمـله مرة في اليوم فلن يتوانى عن ذلك أبداً متى توفرت له المياه ، واذا لم يتمكن البدوي من ذلك اجتر الجمل شارباً مما اختزن في جوفه .

ومما يثير الانتباه كذلك تلك السمات التي يراها الانسان ظاهرة على الجمال ، لأن كل قبيلة من القبائل او عائلة كبيرة تسم جمالهـا بسمات تختلف عن التي تتخذها غيرها من القبائل او العائلات . فهذه العائلة او القبيلة قد تسم جمالها في أعناقها او مقدم هيكلها أو اطرافهـا . وقد شاهدنا بعض الجمال موسومة بوسم آل سعود الملكية وهي عبـارة عن خط عمودي تتخلله دائرتان صغيرتان في الوسط . وقد يتساءل متسائل : كيف دخلت هذه الجمال اراضي الكويت ؟ ولهؤلاء اقول: هناك اتفاقية غير خطية تسمح لرجال الدولتين بعبور حدود هذه الدولة او تلك اذا ما وجدوا مراعي خصبة لاطعام قطعانهم . وفي فصل الربيع ذاك ، هطل المطر في الكويت بغزارة اكثر منه في أراضي السعودية الشرقية ، فأرسل الملك السعودي ارتالاً كبيرة من جماله لترعى في المناطق التي نبتت فيها الاعشاب داخل اراضي الكويت . كما شاهدنا قبل بضعة اسابيع ـ عندما ذهبنا الى وادي الشق الذي يبعد مسافة ستين ميلاً الى الغرب من مدينة الكويت ـ اعداداً كثيرة من الجمال التي يملكها الملك سعود ترعى مع جمال شيخ الكويت بكل حرية وأمان.

وبالاضافة الى تلك الجمال ، كانت هناك كذلك جمال يملكهـا غير الملك

ابن سعود وشيخ الكويت . لقد شاهدت الجمـــال تزحم جوانب ذلك الوادي الفسيـح بأعداد لم يسبـق لي ان شاهدت مثلهـا من قبل ، وقـد انتشرت في كل مكان بحيث كانت ترى من كل زاوية من التلة المشرفـــة على الوادي . وكم كانت دهشتي بالغة عندما وقفت لاحصيها واتعرف إلى الوانها لكن دون ان اتمكن من ذلك ، إذ كيف يكون باستطاعتي ان احصي تلك الجمال التي بلغت الآلاف عداً وضاقت بها تلك الاراضي الصحراوية على رحبها ، وكل ما هنالك فقد تسنّى لي يومذاك ان انعم النظر بمرآها والوانها الزاهية . وكان بينها جمال سوداء اللون داكنة وأخرى سمراء وغيرها بيضاء..وبينها الجمال المكتنزة والجمال العجفاء ، وقد وقف بجانب النوق فصائلها تشمها وتحوم حولها ، ثم تمد أعناقها الى أخلاف اماتها لترضع عندما تشعر بالجوع .

والجمل ينتمي الى الصحراء كما ينتمي اليها البدو ، وكلاهما يعتمد على الآخر . فالبدوي لا يستطيع العيش بدون الجمل الذي هو مصدر اولي من مصادر غذائه كما يوفر له وسائل النقل ، في حين ان الجمل قد يموت اذا لم يمده الانسان بالاكل والماء في الصيف عندما لا تبقى هنـــاك ورقة عشب خضراء تحت اشعة الشمس المحرقة .

وتعتبر الجمال في الصحراء من مصادر الثروة ، كما ان اقتناءهـــا يعود على صاحبها باحترام واعتبار عظيمين ، ولا يُنظر الى الجمل من زاوية انه حيوان قادر على تحمل المشقات والتعب او اعطاء اللبن واللحم للانسان فحسب ، وانمـــا يستعمل بعره للوقود ويعتبر وبره من أغلى واجود الاصواف في العالم بالنسبة الى متانته وميزته الرفيعة . حتى ان البدوي يعتبر من العار عليه ان يبيع وبره طلباً للفائدة والربح ، وتحيك البدوية ذلك الوبر لاستعمال حاجياتها الخاصة أو لتصنع منها طرفة تتحف بها صديقة لها .

قبيلة المنتفك تنتقل جنوباً

عندما تجود السماء الارض بمائها في الكويت فان قبــائل الكويت التي تملك الماشية – كقبيلتي شمّر والمنتفك – تتوجه جنوباً حيث المراعي الخضراء تعمّ البطاح . وبما ان فصل الشتــاء هو فصل البذار في الاراضي الواقعة على ضفاف الفرات والقريبة منه ، فقد قامت منذ القديم صلة تفاهم ما بين الرعاة والمزارعين يؤم بموجبها الرعاة بمواشيهم المناطق الجنوبية خشية منها على الزرع . وهكذا ، تتوجه القبــائل العراقية سنوياً الى الكويت يسافرون اليها ركوباً على ظهور الحمير لأنهم لا يملكون الا القليل من الجمال سائقين امــامهم مواشيهم انتجاعاً لمواطن الكلأ .

ولقد تعرّف والدي الى فزّاع بن حنظـــل وهو زعيم قبيلة يرتفع نسبها الى قبيلة المنتفك . وقد تمّ التعارف بينهما عندما كان والدي ضابطاً سياسياً في العراق في سنوات ما بعد الحرب العالمية الاولى . وكان والدي قد عرف سلفاً بأن فزاع سوف يضرب خيامه في مكان ما على طريقٍ للبصرة تؤدي الى الكويت ، ولذا وتبعاً للمألوف عادته في كل سنة – بادر الى ركوب سيارته متجهاً بها نحو المكان الذي ضرب فيه صديقه خيامه .

وفي الطريق مررنا بعدة خيام كانت جميعها ضاربة الى السواد ، وبعد مسيرة قصيرة شاهدنا خيمة محيكة باللونين الابيض والأسود ، توقفنا عندها لنسأل عن فزّاع بن حنظل . والجدير بالذكر ان الكويتيين البدو لا يربّون الاغنام البيضاء ، ولذلك كانت خيامهم سوداء كلها ، في حين تكون الخيــام المحيكة من الخيوط البيضاء والسوداء للعراقيين . وحالما توقفنا خارج تلك الخيمة بادر صاحبنــا إلى تحيتنا بلهجة عراقية ، واخبرنا أنه قد مر بخيام حنظل قبل بضعة ايام عندمــا

كان قادماً الى هذا المكان ليضرب فيه خيـامه ، ثم رفع رأسه مشيراً بأصبعه الى تلة مجاورة يتوجب علينا أن نذهب اليها في طريقنا للبحث عن صديقنا .

وتابعنا مسيرنا لنتوقف مرة اخرى قبل ان نصل الى هدفنـــا وذلك لنسأل القاطنين في تلك الخيام ان يرشدونا الى الطريق ، ولم نجد في الخيمة التي توقفنا عندها سوى امرأة بمفردها أخذت تراقبنا بحذر ، لكنها كانت مسفرة عن وجهها مما يدل على انهـــا عراقية الجنسية . عندئذ ترجّل والدي من السيارة واقترب من الخيمة .

ولكن ما ان سار والدي بضع خطوات الى الامـــام حتى نهضت المرأة عن عن الارض خارجة من الخيمة ، ثم خفت راكضة بعيداً ، وعندما ناداها والدي ملقياً عليها التحية أشاحت بوجههـــا ، وردّت على تحيته دون ان تتوقف عن ركضها ، وهنا كرّر والدي سؤاله عمـــا اذا كانت تعرف مضرب خيام ابن حنظل ، لكنها لم تشأ ان ترد عليه ، ثم التفتت إليه سائلة إياه من عساه يكون .

ولما نطق والدي باسمه وقال : « ديكسون » بدا الامر وكأن المرأة قد شعرت بالثقة والطمأنينة إلى وجوده ، لان والدي كان معروفاً على نطاق واسع في اوساط البدو الذين يعيشون في الكويت واولئك الذين يهاجرون اليهـــا شتاء من العراق . وهكذا ابطأت المرأة في سيرها وردت عليه مشيرة باصبعهـــا إلى اكمة قريبة .

وواصلنا سيرنا آخذين سمت التل حتى بلغنا قمته ، وهناك رأينا خيمة تماثل الخيمة التي كنا ننشدها ، فداخل نفوسنا السرور والارتيـــاح ، وظلت السيارة تتقدم في طريقها حتى قاربنا الخيمة ، وهنا تنطح للسيارة ثلاثة كلاب اخذت تنبحها .

وفيما كنا ندلف من الخيمة اكثر فأكثر كان خيال شخص مديد القامة تتضح لنا صورته رويداً رويداً حتى عرفنا اخـــيراً ان ذلك الشخص الواقف بباب الخيمة ، والمعتمر بكوفية عراقية لم يكن سوى فزّاع بن حنظل نفسه .

وعندما بلغنا الخيمة هب ثلاثة من ابناء حنظل يبسطون السجاجيد على الارض في القسم المخصص من الخيمة لاستقبال الرجال . ثم القوا ببعض الحطب في النار المشتعلة وشرع بعض الرجال يحمّصون القهوة على تلك النار . وما هي إلا دقائق معدودات حتى اخذ لون القهوة يضرب الى السمرة فالاسوداد ، وحينئذ وضعوها في المهباج ، وطفق احد اولاد حنظل يسحق حبات البن المحمّص بطريقة رشيقة وذات إيقاع موسيقي ممتع ، حتى اذا ما انتهى من عمله ذاك دق على حافة المهباج دقة طويلة كان لها رنين شبيه برنين الجرس ، وكأنما أراد بذلك ان يعلن لغيرنا من الزوار والبدو المقيمين في الخيام المجاورة بأن القهوة غدت جاهزة .

وهنا شرعت طلائع الغرباء والانسباء تفد الى خيمة حنظل زرافات ووحدانا دون ان يدعوا هذه الفرصة تفوتهم ، غير ناسين ان يتأملوا سيارتنا الواقفة بباب الخيمة . وكان كل زائر من تلك الوفود في سبيله الى تلك الشلة من الرجال الملتفين حول النار يرفع صوته بالسلام عليهم فيهب هؤلاء عن الارض لاستقبال الوافدين ومبادلتهم التحية بأحسن منها .

أما إذا كان الوافد من قبيلتهم فكانوا يستقبلونه بتبادل القبل ، على خلاف الترحيب بالغرباء الذين يكتفون بتحيتهم بالمصافحة ، ثم يضعون ايديهم على موضع القلب من صدورهم إشعاراً منهم على المودة الصحيحة بتبادل التحية .

وبما ان أفراد هذه القبيلة العراقية قد عرفوا بأننا قدمنا من الكويت ، فقد ودّوا الينا ان نسمعهم آخر الانباء عن تلك الديار ، وكان كل اهتمامهم ينصب على معرفة اسعار الصوف والسمن وحالة المراعي والخصب ، واكفهرت السماء تتكاثف بصفحتها الداكنة ولم تلبث ان انحلت خيوط ماء السماء مطراً مدرارا كأنما شاءت الطبيعة ان تؤكد لهؤلاء الطيبين ان المراعي ستكون هذه السنة غاية في الخصب والعطاء .

ولم تقتصر زيارتنا للسيد حنظل على هذه المرة ، وانما تعددت زياراتنا له ،

وكان كهول القبيلة يتوقون ابداً الى تبادل ماضي الذكريات مع والدي ، تلك الذكريات التي جرت احداثها على ضفاف الفرات ،لانهم عاشوا تلك الاحداث ، فيما كنت ووالدتي ندخل شقة الحريم أو نمازح علياً ، وهو أصغر ابنـاء حنظل ، ونحاول ان نغيظه لانه بلغ سن التاسعة عشرة ولم يتزوج بعد .

وذهبنا مرة الى خيمة فزاع بن حنظل لنرى ان التوتر يسود جو الخيام ، إذ كان جميـع الرجال متنكبين بنادقهم ، وعندما وصلنا الى خيمة حنظل سألنا مستفسراً عما إذا كنا سمعنـــا عن وقوع جريمة في الكويت قبل بضعة أيام ..

ومن المسلّم به ان رجال القبائل العراقية مشهورون بالشجاعة وشدة البأس والبطش في خلافاتهم ، شأنهم في ذلك شأن القبائـل الشركسية ، وهم متصلبون في آرائهم القائمة على ان الدم لا يغسله الا الدم . وقد علمنا — في ذلك اليوم – ان رجلاً من احدى الافخاذ التي تمت بصلة القربى الى قبيـــلة المنتفك ، أقدم — قبل عشر سنوات خلت — على قتـل رجل من قبيلة شمّر في العراق . ومنذ ذلك الحين وشقيق القتيل يتعقب القاتل ويتربص بـــه حتى التقـاه وهو يرعى قطيعـــه هناك ، فيما كان الاول قاصداً الكويت راكباً على صهوة جواده . ولما كان القاتل راجلاً وشقيق القتيل فارساً لم يكن باستطاعة الاول ان يلوذ بالفرار . وهكذا اهتبل الشمري تلك الفرصة التي طالما تحيّنها خلال السنوات العشر التي انقضت على مصرع أخيه . فبـــادر الراعي القاتل باطلاق النار عليه ، فأهوى هـذا على الارض قتيلاً يتخبط بدمائه .

وقيل ان القاتل الجديد قد اتجه غربـاً ، وان تلك الجريمة بلغت مسامع حاكم الكويت ، فأخذت الدوريات الآلية تبحث عن القاتل في كل مكان ، لكن دون ان تقف له على أثر .

تلك هي الحادثة التي أثارت المشاعر فتناقلها رجال القبائل العراقية بتأثر في ذلك اليوم . والادهى من ذلك أن سفـــك الدماء يستدعي في الغالب

سفك دماء أخرى . ومع أن النزاع كان ينحصر بين رجلين من قبيلتي شمر ورفاعيات وان فزّاع بن حنظل من فخذ بني مالك ، كانت تلك الافخـــاذ الثلاث متحدة في قبيلة واحدة تعرف بقبيلة المنتفك .

ورجال العراق بطبيعتهم ، سريعو الغضب ، اشداء البـــأس ، اقوياء الشكيمة نزقون . وهم على الرغم من كونهم اقـل بداوة من البـدو الذين يعيشون في قلب الجزيرة العربية ، فقد ظلوا يحافظون على خشونتهم وقسوتهم البدائية كشعب كتب عليه ان يناضل ويصارع من اجـــل بقائه ، ولذلك تراهم يثورون بسهولة ويقدمون على أعمال العنف وسفك الدماء . حتى قبيلة حنظل بالذات كان أفرادها مجبولين على تلك العـــادات متخلّقين بتلك الطباع ، وليس ادلّ على ذلك من الحادث الذي وقع بينهم قبل خمس وعشرين سنة ، وكاد ان يأتي عليهم عن بكرة ابيهم ، اذ احتدم النضال المسلح مـا بين بعضهم بعضـاً ، ومردّ ذلك ان شاباً من القبيلة تيمّـــه حب فتاة تنتمي الى قبيلة اخرى ، ورفض ان يـتزوج من ابنة عمه التي اصطفـاها له والده .

وفي يوم عصيب تنادى رجال القبيلة الى عقد اجتماع لبحث تلك القضية ، ورؤية ما إذا كان في استطاعتهم التغلب على تمرد ذلك الشاب ، وإعادته الى رشده . ولكن فشلت جميـع المحاولات التي قـــام بها وجوه القبيلة في إقناع الشاب كي يرجع عن قراره . وأخيراً ، وتحت تأثـير فورة الغضب ، هبّ احد رجال القبيلة واقفاً وسدّد بندقيته الى صدر الشاب واطلق النار عليه فأرداه قتيلاً في الحال . ويبدو ان الرصاصة التي اطلقها ذلك الرجل أثارت احقاد الباقين من الرجـال من مكامنها ، فعمد كل واحـد منهم الى حشو بندقيته بالرصاص ، واخـذوا يطلقونـه بعضهم على بعض ، كأنما طمس الغضب ابصارهم وبصائرهم فـلم يعودوا يعون شيـئاً . ولم ينجُ من حاضري تلك الجلسة سوى رجلين اثنين هما كل من بقي على قيد الحياة من رجال بني حنظل يضـاف إليهما رجـل ثالث كان اثناء الاجـتماع في سوق

الكويت ، كذلك قتلت الفتاة الوحيدة التي دعيت الى الاجتماع . وإذا ما قيِّض اليوم لامرىء ان يمرّ أمام ذلك المكان فانه سيرى هناك تسعة قبور دفن فيها تسعة رجال من وجوه قبيلة بني حنظل ممن قتلوا في ذلك اليوم .

واذا ما تذكّر اليوم رجال بني حنظل تلك الواقعة فانهم يشعرون بالخجل ويحاولون ألا يأتوا على ذكرها . وذات يوم سألت عليّ بن فزاع هل يذكر شيئاً عن احداث ذلك اليوم المشؤوم ، فأجاب بأنه كان يومذاك طفلاً ، ولا يذكر سوى أنه قد تناهت الى مسامعه طلقات الرصاص ، ورأى على الاثر بعض الرجال قد شدّوا بأيديهم على بطونهم والدماء تنزف منها .

ورجال قبيلة المنتفك يختلفون عن رجال البدو ممن يعيشون في الصحراء من حيث تركيبهم الجسماني ، فالرجال منهم أكولون ، طوال القامة ، اقوياء الأجساد ، شديدو البأس ، ذوو وجوه ممتلئة صارمة السمات ، بخلاف بدو الصحراء العربية الذين هم في الغالب بادو الهزال نحيلو الوجوه ، كما ان بشرة رجال قبيلة المنتفك تضرب الى الحمرة القريبة من لون بشرة الهنود الحمر على عكس بشرة بدو الجزيرة العربية التي تميل الى السمرة . وما يقال في الرجال من قبيلة المنتفك يصح قوله في نسائهم اللواتي يتمتعن بصحة جيدة ووجوه مكتنزة مشربة البشرة بالاحمرار .

واسترعى انتباهي ايضاً في نساء المنتفك انهن مرحات على الدوام لا تكاد الابتسامة تفارق ثغورهن ، ولا يتورعن عن تبادل النكات فيما بينهن ، ولكن ما يشوب نضارة تلك الوجوه هو الوشم الكثير على ذقونهن وجباههن وحواجبهن ، ثم انهن يتحلّين بالجواهر الثمينة ، ويضعن العديد من الخواتم في اصابعهن ، وكثيراً ما طوقن أجسادهن بالقلائد الفضية المرصّعة ببعض الاحجار الكريمة ، وإكمالاً للزينة فانهن يتقلدن بسلسلة فضية علّقت بها مجموعة كبيرة من الروبيات الفضية تتدلّى من قمة الرأس الى

اخمص القدمين ، اما النقود الذهبية التي كن يتحلّين بها فهي جميعاً من طراز الليرات المضروبة باسم جورج الخامس ، وهي العملة التي كانت متداولة في العراق ، إبّان الانتداب البريطاني عليها بعد الحرب العالمية الأولى .

وقالت لي إحدى الفتيات ، فيما كنت أفحص الروبيات المعلّقة في تلك السلسلة القديمة : « هه ، ان الروبيات التي ترينها هي روبيات قديمة ، لأن الروبيات الجديدة ليست بذات غناء ، لانها لا تحوي اي قدر من الفضة . »

وفي مناسبة اخرى كنا حاضرين وصول قافلة بني حنظل الى مكان جديد لتضرب فيه خيامها وكان برفقتنا علي بن فزاع بن حنظل الذي جئنا به الى اسرته بعد ان امضى لدينا بضعة أيام في الكويت . ولكننا قبل ان نصل الى المكان الجديد الذي اختارته القبيلة مضرباً لخيامها ، توقفنا لحظة في طريقنا نتأمل قافلة من الحمير مثقلة ظهورها بالاحمال علّنا نهتدي الى مكان قبيلة بني حنظل . ولم يتبادر الى اذهاننا ان تلك القافلة قد تكون هي قافلة بني حنظل ، ولذا اقتربنا منها نسأل بعض أفرادها عن الطريق التي يجب ان نسلكها للوصول الى مضرب القبيلة المذكورة . وكم كانت دهشتنا بالغة عندما وجدنا في تلك القافلة القبيلة التي ننشدها .

وعندما اقتربنا من القافلة قفز الفتى من السيارة وراح يقبّل وجنات والده وإخوته ، وفجأة وجدنا انفسنا وقد احاط بنا زمرة من النساء وطائفة من الحمير الناهقة والكلاب النابحة وتواثب حولنا الاطفال الراكضون هنا وهناك ، واذا بالقبيلة تقرر ان تضرب خيامها في المكان الذي تمّ لقاؤنا فيه .

وحينئذ طفق الرجال ينزلون حوائج القبيلة عن ظهور الحمير . فهذا رجل يرفع طفلاً من خُرج الحمار ليضعه أرضاً ، وذاك آخر يحل وثاق الدواجن المشدودة بعضها الى بعض ، وثالث يفرغ الرزم ويفردها بعضها

عن بعض ، ورابع يصنّف الصناديق والاكياس . واخيراً ، بادر رجل خامس الى بسط خيمة على الارض . وبعـــد دقائق معدودات ارتفع سقف تلك الخيمة ، ودقت الاوتاد وشُدّت اليها الحبال ثم بسطت على ارض الخيمة أفخر السجاجيد واضرمت النار ، وبعد لحظات كانت القهوة جاهزة لتقديمها للزوار . وكان ذلك لعمري ، مثلا رائعاً للتعاون في العمل الذي انتهى بأقصى سرعة مع اقل قدر من الفوضى .

وعندما قعدنا في ظل الخيمة اخذت اراقب علياً الذي راح يوزّع على الاطفال بعض الهدايا التي حملها معه من الكويت ، ثم أومأ الى احد الصبية الصغار الذي عرفت فيه ابن أخيه وأخرج من جيبه حفنة من الجوز ، فتطلّع الصبي الى يده بدهشة ، وقبل أن يمدّ يده لاخذ الجوزات طلب منه عليّ ان يرفع طرف كوفيته ليضع فيها الجوزات وراح يشرح له كيفيـة عقد طرف الكوفية عليها ، وهنا مال الصبي بخجل الى عمه يقبّل يده ، ثم انفرد في احـدى زوايا الخيمـة ، بينما خفّ الصبية الآخرون الى علي لاستـلام هداياهم منه .

●

في اواسط نيسان (ابريل) تشد القبائـــل العراقية رحيلها نازحة عن الكويت عائدة الى بلادها ، بعد ان يكون معظم رجال القبائل قد جزّوا صوف أغنامهم كي يبيعوه في الكويت قبل الرحيل .

وفي التاسع من شهر نيسان (ابريل) زارنا فزاع بن حنظل واخبرنا انه سيجزّ غنمه في اليوم التالي ودعانا الى تناول العشاء في مضربه عندما ينتهي من الجزّ .

والجدير بالذكر ان رجال قبيلة المنتفك لا ينفكون يسألون عن اسعار الصوف والتفاوت في السعر ما بين كل من الكويت والعراق ، قبل إقدامهم على جزّ الغنم . ومما لا شك فيه انهم يفضلون ان يجزوا الغنم في الكويت ، لان ذلك يساعدها على السير براحة في الحرّ ، لكن اذا كانت أسعار الصوف

في العراق أفضل مما هي عليه في الكويت فهم يتجهون شمالاً ويجزون أغنامهم في الزبير ويبيعون الصوف هناك ، ثم يتابعون سيرهم الى اراضيهم على ضفاف الفرات .

وحدث ان كانت أسعار الصوف في ذلك الموسم مرتفعة في الكويت ، ولذلك عندما توجّهنا الى الجدادية - حيث ضرب فزاع خيامه - وهي نقطة تبعد سبعة أميال عن الكويت ، وجدنا جميع القبائل العراقية قد نقلت مضارب خيامها الى مواقع قريبة من المدينة كي يصبحوا على مقربة منها عندما يحين موعد نقل الصوف المجزوز الى الاسواق لبيعه هناك . وفي الطريق ، مررنا بأعداد كبيرة من الغنم كان بعضها مجزوزاً والبعض الآخر غير مجزوز .

يا له من رجل طيب ، رفيع الاخلاق ، سامي التهذيب ، لقد كان فزاع واقفاً بباب خيمته ليرحّب بنا عندما نصل ، بينما وقف خلفه جمع غفير من رجال قبيلته ، عرفنا فيما بعد أنهم اخوانه واعمامه وخؤولته واحفاده وأبناء عمومته ، وقد وقفوا خلفه في صفوف ليشاركوه الترحيب بنا ، ومن ثم ليباشروا جز الغنم .

وبعد تبادل التحيات التقليدية مع الجميع ، دلفنا الى داخل الخيمة وجلسنا ، وقد كدّست خلفنا أكياس مليئة بالصوف الذي تمّ جزّه ذلك اليوم ، وكان لونه مزيجاً من اللونين الاسود والابيض ، ولكنه لم يكن نظيفاً كما كنت اتوقع ، وهذا ما دعاني الى ان اذكّر فزاع مداعبةً إياه بقولي ان صوفه هذه السنة لن يعود عليه بمبالغ طائلة من المال .

والتفت اليّ وقال :

« لا بأس ! ولكنني اعتقد بأن لديّ الآن اكثر من ألف روبية . »

لقد ارتفعت اسعار الصوف الى نسبة محترمة ، في السنوات القليلة الماضية ، بعد أن غدا تجار الكويت يصدرونه الى اميركا . وبعد ذلك

كان الاميركيون يعرضون اسعاراً ارفع من الاسعار السابقة مقابل ان يُصار الى تنظيف الصوف بصورة أفضل من ذي قبل، قبل تصديره، الامر الذي أهاب ببعض تجار الصوف ان يستخدموا بعض النسوة لغسله في البحر وتنقيته مما يشوبه من الاوساخ والاشواك .

وبينما كنا ننتظر ان يحين موعد العشاء، أمضينا فترة مع اولاد حنظل وهم يعرضون علينا الادوات العجيبة التي يستعملونها في جزّ الغنم . لقد عرضوا أمامنا سكينين مشدودين احدهما الى الآخر كانوا يستعملونها في الجز بدلا من المقص، بينما مدّ إلينا فيصل ابن اخت حنظل يديه وقد علق بها بعض آثار الصوف قائلا لنا انه جزّ بمفرده، في ذلك اليوم، عشرين خروفاً .

وفي المساء أحضر العشاء، ولكن بما ان فزّاع كان لا يرغب في ان يشاركنا نفر من اخوانه الطعام، فقد قدّم لهم العشاء قبلنا، بينا جلسنا نحن نراقبهم وهم يلتهمون الطعام الموضوع في صينية مليئة بالارز واللحم، بشهية وسرور، ثم قدمت لنا صينية صغيرة لنأكل منها بمفردنا . وبادر حنظل الى الجلوس معنا لا ليشاركنا الطعام، وانما ليصب فوق الارز اللبن الرائب، وفقاً للتقاليد العراقية، ويقدم الينا قطع اللحم كي نأكلها ولكنه لم يشأ ان يأكل معنا متبعاً بذلك تقاليد البدو التي تعتبر بأن من آداب المائدة ان يتأخر المضيف عن تناول الطعام عن ضيوفه الذين يقوم على خدمتهم اثناء الاكل .

وعندما أنهى رجال قبيلة حنظل محادثاتهم مع تجار الكويت تهيأوا للرحيل الى العراق، وهكذا استأذنّا من حنظل كي ننصرف من لدنه، ونعود تلك الليلة الى الكويت، ونحن ندرك بأننا لن نراه الا في الربيع القادم . وقبل ان ننصرف لم ننسَ ان نداعب علياً بقولنا له اننا نتوقع ان نراه زوجاً عندما يعود إلى الكويت في الموسم القادم .

في هذه الاثناء تجمع الرجال حول سيارتنا لتشييعنا ، وتبادلنا وإياهم عبارات الوداع التقليدية :

« إن شاء الله نراكم العام القادم بخير . »

ثم قلنا جميعاً بصوت واحد :

« في أمان الله » ...

وانصرفنا عائدين الى مدينة الكويت .

مع قافلة مكافحة الجراد في الجنوب

كانت المنظمة العالمية لمكافحة الجراد تعمل على نطاق ضيق في منطقة الخليج وذلك في السنوات الاخيرة من الحرب العالمية الثـانية ، ومنذ ذلك الحين كانت اعمالها تتطور باستمرار جنباً الى جنب مع الحاجات الملحة التي كانت تدعوهـا العمل على صيانة المواسم الزراعية من اعتداءات الجراد عليهـا ، والآن ، تدير المؤسسة اعمالها من مكاتبها الرئيسية في نيروبي، وتعمل على توسيع مجال نشاطها واعمالها بالتضامن مع منظمة الاغذية والزراعة وبعض الرجال الرسميين في العديد من البلدان ، مما ساعدها على تنظيم حمـلات واسعة للقضاء على الجراد انـّى وجد في شمال افريقيا والشرق الاوسط .

وتمتاز المنظمة العالمية لمكافحة الجراد بـأهمية بالغة ، وقد اصبحت ذات فعالية هامة بالنسبة الى مكافحة الجراد والقضاء على أرجاله التي لا تحصى قبل ان تتمكن من الزحف الى بعض المناطق للقضاء على مزروعاتها . ورغبة في ان تكون اعمال إبادة الجراد فعالة وحاسمة ، فان الواجب يقضي القيـام باعمال المكافحـة والابادة قبل ان يتكامل نموه ويصبح قـادراً على الفتك بالمزروعات ، وهذا ما يحتم على المنظمة ان تراقب باستمرار في الشتاء والربيع تلك المناطق المعزولة عن العالم حيث يتوالد الجراد وينمو بكثرة .

وتقوم المنظمة بهذا العمل في منطقة الشرق الاوسط بوساطـة فرق سيّارة تحت اشراف مسؤولين بريطانيين يكتشفون مسبقـاً الاماكن التي يتوالد فيها الجراد ويضعون الخطط الفعالة لابادته . وفي الصحـارى البرية توجد بعض الاماكن التي يبيض فيه نوع من الجراد اشتهر بكثرته وابادة المزروعات بسرعة خاطفة .

ورجال البعثة من الانكليز الذين انتدبوا للقيام بهذه المهمة في تلك البطاح المترامية الاطراف من الصحارى ، قد اشتهر عنهم الاستقلال بالرأي والتضامن في سبيل الهدف الذي انتدبوا اليه ، لذلك فانك تراهم مستعدين كل الاستعداد لتحمل العزلة والعيش عيشة البداوة في الصحراء لفترات طويلة، يتجشمون الصعاب ويتحملون المخاطر ويكابدون المرض والجوع، مهما باعدت المسافة بينهم وبين مراكز الاسعاف الطبي. وهم في مهمتهم هذه تراهم يقطعون المسافات الطويلة بقافلة صغيرة تتألف من ثلاث او اربع سيارات جيب صغيرة، كالو كانوا يقومون بنزهة قصيرة من نزهات الانسان المعاصر ، وتراهم يتوجهون الى حيث تهبط ارجال الجراد بكل هدوء وبدون أية ضجة او تبجّح .

ولقد كان لي شرف التعرف بأولئك الرجال العاملين في منظمة مكافحة الجراد في الشرق الاوسط في شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٤٧، وذلك عندما وصلت قافلة صغيرة من السيارات الى الكويت ، لتُدخل احد رجالها مستشفى البعثة الاميركية إثر اصابته بكسر في فخذه بعد ان انقلبت به سيارته في مكان يبعد مسافة مائتي ميل عن المدينة .

ولقد آثر اولئك الرجال المبيت خارج مدينة الكويت ، حيث نصبوا خيامهم خارج الأسوار ، وهناك التقينا بهم وتعرفنا الى نوع السيارات التي يستعملونها في حملة المكافحة ، وقد رسم عليها نماذج من الجراد باللون الاصفر .

وكان رئيس الحملة يومئذ عالماً من اقطاب علم الاحياء يدعى جيم جيبونز الذي قضى شطراً من عمره سابقاً في الخدمة المدنية . ولقد ألفيناه يشعر بحرية لم نعهدها في غيره من البشر قبلاً ، ويتمتع بهمة ونشاط لا يمكن تصورهما بمن في مثل سنه، اذ كان قد تخطى السادسة والاربعين من عمره ومع ذلك فما يزال مفعماً بالحيوية يعمر قلبه الحماسة والحمية . وكان يرافقه اثناء اقامته القصيرة التي قضاها في الكويت ديسموند فيسي فيزجرالد ، وهو موظف مسؤول في منظمة مكافحة الجراد في الجزيرة العربية .

قلت إننا تعرفنا على ذينك الرجلين اثناء اقامتها القصيرة في الكويت ، وقد

كشف لنا التعارف أن الرجلين يشاركان والدتي اهتمامها في التاريخ الطبيعي للجزيرة العربية ، ولذا فانهما اقترحا علينا ان نرافقهما في رحلة استطلاعية الى المنطقة الجنوبية بغية ان يحصلا على نماذج من نباتاتها وازهارها وحيواناتها والبحث عن اماكن الجراد فيها . وقد شجعنا على الذهاب معهما الى قلب الصحراء معرفتنا بأن سيارتيهما كانتا من القوة والمتانة بحيث تستطيعان التوغل في الأراضي الصحراوية الى درجة لا يمكن معها الركوب في أية سيارة اخرى للقيام بتلك المغامرة .

وهكذا قبلنا دعوتهما بكل امتنان ورغبة . وعندما وصلنا الى مكان خيامهما في صباح اليوم المحدد ، وجدنا ان الحركة هناك كانت على قدم وساق . وكانا يضعان في احدى سيارات القافلة المؤلفة من خمس سيارات كميات احتياطية من البنزين والماء ، ويقومان بالتالي بمراجعة جميع التفاصيل الهامة المتعلقة بالسفر والمعدات للمرة الاخيرة . وكانت القافلة التي تتألف من خمس سيارات تضم سيارة فيسي وسيارة لاسلكي وسيارة شيفروليه من طراز ستيشن وسيارة جيب هي خاصة جيبونز وسيارة اخيرة للشحن . ووفقاً لترتيب السيارات المذكور انطلقنا متوغلين في الصحراء .

ولا شك في ان الأجنبي الذي لا يهمه الوقوف على معالم الصحراء لا يجد في الرحلة الى البيداء – مهما قصر امدها – سوى ما يرهق ويضني ، ولا تترك بذهنه عنها الا ما يثير في نفسه الانقباض والامتعاض ، ولا سيما اذا ما رافق تلك الرحلة هبوب العواصف الرملية ولازم ذلك الاعصار شواظ الحر اللاهب ، في حين تنقلب قسوة الحياة الصحراوية في ذهن المسافر الرحّالة او المتحمس لرسالة علمية او انسانية الى مناظر تفيض بالبهجة والمسرات .

وقد وصف السر ريتشارد بورتون الرحالة والمستشرق المشهور، معالم الصحراء وتأثيرها في اصحاب المخيلات الحساسة المرهفة ، فقال :

« ان ما يبعث على الدهشة هو ان النفس لتستطيع التسلي بمثل تلك المناظر التي تعكس امامها صوراً شتى ،وان كانت صوراً عابرة سرعان ما تتبخر خيوطها

من الذاكرة ، ومع ذلك فان كل شكل او لون ، مهما صغر وبهت ، في مثل تلك البلاد يستحق المشاهدة . وإن المشاعر لتستيقظ من كبوتهـــا ، والقوى العقلية الحساسة لتحلق على اجنحة الخيال ، امام المناظر الطبيعية المختلفة التي تستفز الهمم وتثير العزائم . »

وبما انه قد سبق لجميع افراد القافلة ان اختبروا اي سحر ذاك الذي يشع في الصحراء ومنها ، فقد كان سرورنا مشتركاً وغامراً غداة قيامنا بهذه الرحلة القصيرة الى الصحراء والتمتع بمشاهدها الساحرة .

وعندما ابتعدنا قرابة خمسين ميلاً الى جنوبي الكويت ابلـَغنا باللاسلكي أحد الموظفين ، وكان يقوم بقيادة سيارة جيب أمامنا ، أنه شاهد ارجالاً كثيفة من الجراد وذلك كي نجدّ في أثره بسياراتنا ، والواقـع كان الجراد يغطي تلك الاراضي المترامية بكثرة لا مزيد عليها .

ولما بلغنا الأرض التي غطاها الجراد ، ألفينـــا ارجاله دقيقة لا يزيد طول الجرادة منها على نصف بوصة ، مما يوحي للناظر بأن بيوضه قد فقـّست في اراضي الصحراء العربية ، وكانت تلك الأرجـال من الكثرة بحيث بدت على الارض بمثـابة وشاح اسود اللون ، بعد ان أبادت الاخضر واليابس في طريق زحفها

في هذه الاثناء كان جيبونز يدور حول تلك الارض التي حط عليها الجراد ليعرف اين ينتهي حدوده ، وما اذا كانت هنـــاك ارجال اخرى في الجوار . لكنه ويا للأسف لم يعثر على أي اثر لغير تلك الارجال التي كانت تغطي مساحة واسعة من الارض ، فصمم على إبادتها بعد ان نقفـل راجعين من رحلتنا الى الجنوب ، لا سيا وان هذه الأرجال كانت أضعف من ان تنتقـل بسهولة الى موقع آخر .

وبما اننا توقفنا الآن فقد قرّ رأينا على ان نرتاح قليلاً ونتناول طعام الغداء ، وألقينا بانظارنا الى ما حولنا لنختـــار المكان الذي سنمكث فيه . وقد وقع اختيارنا على مكان غير بعيد عن مكان الجراد . ومما تجدر الاشارة اليه اننا

لم نر اي أثر لخيمة او لانسان هناك . ولكن ما ان اشعلنا النار لتسخين الطعام حتى لاح لنا شبح بدوي واقف على قمة تلة صغيرة مجاورة ، ثم رأيناه يتجه نحونا . ولا يخفى على أي رحالة يجوب الصحارى بأن البدوي مجبول بفطرته على معرفة ان وراء الدخان المتصاعد في الصحراء من يهيء وجبة طعام او قهوة فيندفع نحوها، معللا النفس بمشاركة من أشعل النار - الطعام او الترشف بقليل من القهوة .

فلما وصل ضيفنا ودعوناه لمشاركتنا الغداء أخبرنا بأنه كان يقوم بحراسة جماله التي ترعى في الاراضي الواقعة خلف التل . وكم كانت دهشتنا بالغة عندما تابعنا سيرنا باتجاه المكان الذي ترعى فيه جمال ضيفنا البدوي إذ رأينا الاراضي الخضراء التي جادتها مياه السماء. كما وجدنا المنطقة آهلة بالسكان، والخيام قائمة هنا وهناك تغطي تلك البطاح، وحولها أعداد كثيفة من قطعان الماشية والجمال.

وهنا اشتدت علينا وطأة الهاجرة ، وبدأت الشمس تلهبنا بشواظها، في حين كانت السيارات تنفحنا باندفاعها المستمر بهبوب من النسيم البارد الذي كان يلطف الجو بعض الشيء . وكان اخشى ما نخشاه أن نضطر للوقوف في العراء لئلا تسخن ابواب سياراتنا وجوانبها لدرجة يصعب علينا بعد ذلك ان نلمسها . وهكذا كنا في شوق دائب وتلهف مستمر الى متابعة سيرنا ، ولبثنا منطلقين بالسيارات طوال النهار دون توقف حتى وصلنا الى حدود المنطقة المحايدة ودخلناها .

وعند الغروب كنا قد بلغنا آبار عرق التي تعتبر نقطة الحدود الفاصلة ما بين الكويت والعربية السعودية . وهنا عثرنا على مكان مناسب يبعد قليلاً عن موقع الآبار لنصب خيامنا والمبيت فيها تلك الليلة . والحقيقة ، لقد آثر رجال منظمة مكافحة الجراد ان يناموا في العراء ، ونصبوا خيمة واحدة لأبيت ووالدتي فيها .

والواقع ، الجدير بالتسجيل ، انه لم تكد تنقضي فترة وجيزة على وجودنا في هذا المكان الذي بدا لنا رائعاً للوهلة الاولى ، حتى انعكس احساسنا

فتوجسّنا شراً ، إذ كان العشب اليابس الذى يغطي الارض مسنّن الاطراف حاد الرؤوس كأنها اطراف الأسنّة بحيث علقت بثيابنا وفراشنا وأمسكت بها بصلابة وإصرار . يضاف الى ذلك ان سفح التل كان مغطى بنبات جميل معروف بنبات السعدان ، ولكن بذوره كانت حادة مسلنة مفعمة بالشوك المدبب تعلق بأي شيء يطأهـا او يلامسها ، مما جعل الجلوس امراً غاية في الصعوبة والخطر ، لا سيما وأن الشوك كان ينفذ من خلال نسيج السجادة ليخز أجسادنا . وأخيراً كاد يطير صوابنا إذ ادركنا ان المنطقة المجاورة هي بؤرة موبوءة بأخطر العقارب .

ومع ذلك ، ورغم كل هذه المضايقات والمتاعب ، آثرنا ان نلبث حيث كنا ، لان ذلك المكان على ما فيه من المكاره افضل بكثير من ان نمضي في الليل بحثاً عن مكان انسب . وهكذا رحنا نعد مصائد الجرذان ونصبناهـا في أماكن قريبة من الخيمة . أملاً في ان نحصل على نماذج من القوارض المحلية . ثم رجعنا الى الخيمة لتناول طعام العشاء ، لنقفل بعدهـا عائدين لمعاينة المصائد .

وفي هذه الاثناء بسط الليل رواقه على الصحراء ، ثم بزغ القمر ليمزق خيوط الظلمة ويضفي على الصحراء لوناً ساحراً يفيض من نوره وجـنين لألائه ، وقد ساد المكان سكون شامل عميق ، وكانت أصواتنـا تتردد اصداؤها محدثة اهتزازات وتموجات كلما نادى احدنا الآخر في خضمّ هذا الليل الساكن . وفي طريقنا الى المكان الذي وضعنـا فيه المصائد كانت اقدامنا ترتطم ببعض الحشرات والزواحف ، ولكننا لم نعثر على شيء في المصائد ، فعدنا الى خيمتنا فارغي الوفاض ، ونمنـا ملء جفوننا بعد يوم قضيناه بالتعب والارهاق .

●

وكان اليوم التالي – وهو يوم الجمعة العظيمة – ذا سماء صافية الأديم ، وقد اخذنا نستعد فيه للقيام بحملة استطلاعية شرقاً في سيـارتي جيب ،

بعد ان تركنا سيارة الشحن ، وخلّفنا وراءنا العرب من اعضاء فرقتنا في الخيمة . وكان هدفنا الوصول الى عين العبد التي هي عين ماء حار معدني مشوب بالكبريت قائمة في المنطقة المحايدة .

والجدير بالذكر ان هذه العين تنبع من مكان صعب المسالك يبعد حوالي ستة عشر ميلاً عن الشاطىء وتصب في البحر . وقد أُثر عن بعض البدو الاعتقاد بأن هذه العين ملجأ للجن وملاذ للشياطين ، ولذلك يحاذر هؤلاء السذّج الطيبون ألا يقتربوا منها ، مع العلم انهم يعرفون موقعها تمام المعرفة ، وان اتفق لأحدهم وقصدها فانما يفعل ذلك كي يطلب الشفاء لجمله المصاب بداء الجرب بغسله إياه بمياهها الكبريتية الساخنة .

اما مكان العــين بالضبط فيقع في حدود ذلك الحزام الواسع من من البطاح المشبعة بالملوحة ، ولكن ليست هناك اية طريق سالكة اليها فضلاً عن ان من المستحيل على السيارة ان تشق سبيلاً لها في تلك الارض الصبخــة ، بيد اننا كنا على مثل اليقين بان سيارات الجيب قادرة على نقلنا بسلام عبر تلك البقــاع . والواقع انني عشت لحظات سعيدة عندما تخطت سيارة الجيب بنا تلك المسافة بسلام ، وهي تسير فوق ارض كثيرة التضاريس غاية في الوعورة .

كنا نسير في أرض غير واضحة المعالم ، وليست بيّنة الحدود ، يتقدمنا فيسي يشق لنا الطريق ، مستعيناً ببوصلة وخارطة يهتدي بها الى الطريق . وما لبثنا ان اكتشفنا بأن علينا ان نتخطى مساحة من الارض تكسوها اعشاب كثيفة تعرف بالثمام ، وقد تراكمت حولها الرمال مشكلة أخـاديد بعمق ثلاثة اقدام على طول الطريق امامنا . فوقفنا نجيل التفكير فيما عسانا ان نفعل ، واخيراً قررنا ان نباشر محاولتنا ، وانطلق جيبونز الى الامــام بسيارته بكل ما فيه من جهد وبها من طاقة ، وكم كانت – لعمري – تلك الاعشاب كثيفة معرقلة للسير يصعب المرور فوقها ، فكانت عجلات السيارة تمر فوقها ، يترنح بنا هيكلها فوق الاخاديد ذات اليمين وذات الشمال كما لو

كنا في زورق يشق بنـــا عباب بحر ثائرالامواج ، ومع ذلك اجتزنا تلك البقعة الخطرة بسلام .

وبعد ان تخطينا منطقة أعشاب الثام الفينا انفسنا في الصبخة من تلك الاراضي المالحة . وحينئذ غيرنا وجهة سيرنا متجهين جنوباً على أمل الوقوف على خط مسير جدول مياه العين الكبريتية انطلاقاً من نقطة المنبع فمرافقة له في سبيله حتى يصب في البحر . وقد حدث ما كنا نتوقعه من صعوبة السير فوق تلك الارض الصبخة ، ومع ذلك ظلت السيارة متابعة تقدمها بكل ما فيها من طاقة مستفيدين من استواء الارض تحت العجلات ، لكن لم نكد نقطع مسافة يسيرة حتى جوبهنا مرة اخرى بمنطقة مليئة بالاعشاب يرعى فيها قطيع من الجمال . وهنا اخرج فيسي رأسه من السيارة ليتحدث مع الراعي الذي عرض علينا ان نتوقف لديه قليلا ليقدم لنا شيئاً من حليب نوقه نروي به ظمأنا ، فقبلنا دعوته مسرورين ، والواقع انه حالمـا ترشفنا من ذلك الحليب شعرنا بالانتعاش يدب في أوصالنا بعد تلك الرحلة الطويلة المرهقة ، اذ كان الطقس شديد الحرارة بالغ القيظ .

وبعد ان شكرنا الراعي تابعنا سيرنا لنقطع اكثر من خمسة أميـال وصلنا بعدها الى ارض وعرة تغطيها الاعشاب حيث وجـدنا أنفسنا في مكان تجري من جانبيه المياه المنسابة من نبع « العبد » الذي كان بعرض عشرين قدماً تقريباً . وكانت مياهه صافية رقراقة تنساب فوق تربة هي اقرب إلى الزرقة منها الى السواد ، بينما كان لون تراب الضفتين أميل الى السمرة ومشبعاً بالملوحة . كما اننا شاهدنا مئات الاسماك الصغـيرة تتجمع على شكل أسراب هنا وهناك وهي تسبح قريباً من ضفـاف الجدول ، ورأينا العديد من جحور الجرذ في ارض الضفة . وهنـــا حاول فيسي — وذلك جرياً على عادته — ان يبحث عن بعض الجرذان في تلك الجحور علّه يعثر على بعضها ليحتفظ به كنماذج ، ولكن ذهبت محاولاته ادراج الرياح . أخيراً أمسك ببندقيته واطلق منها الرصاص على بعض الاسمـاك

سعياً وراء هدفه بتجميع النماذج . وهنا ترشفنا قليلاً من ميـــاه الجدول، فألفيناها غير صالحة للشرب البتة ، اذ كانت مشبعة بالملوحة والكبريت .

ولا خـلاف في ان وجود نهرٍ جارٍ في قلب الصحراء ، لأمر يبعث على الدهشة ويخالط مرآه في النفس الارتياح والانتعاش ، ولذا وقفنا طويلا ننعم النظر في مياهه المنسابة بصمت وغبطة ، ومن ثم صعــدنا ثانية الى السيارة فانطلقت بنا بسرعة على طول الطريق المحاذية لمجرى النهر يقيناً منا بأن ذلك يسهل علينا الوصول الى مصدر النبع ، وعلى جانبي الطريق أخذنا نلاحظ ان التربة كانت تتحول رويداً رويداً من الزرقـة لتميــل الى السواد كلما توغلنا في الصحراء ، وكانت رائحة الكبريت تزكم انوفنا بشدة حتى شعرنا بالضيق .

وما زلنا نتابع تقدمنا في تلك الطريق حتى بلغنا رأس النبع ، وكم كان المنظر باعثاً على الروعة ، اذ رأينا ان النبـع كان يصب في بركة مستديرة بقطر اربعين قدماً تقريباً ، وزاد في جمال المشهد تموجات المياه المنعكسة على سطح البركة وتصادمها ، اما النبـع فكان ذا مصدرين اثنين ، ومما يزيد في تلك الروعة أن المياه المتدفقة من باطن الأرض كانت تغــدو غاية في الصفاء والنقاء حالما تستقر في البركة لتنساب بعدئذ من احد منافذها في الصحراء ، ويبلغ المشهد ذروة روعته اذ يقع الطرف على تلك الفقاقيــع التي سرعان ما تنعقد لتتلاشى في ذلك الزخم من تدفق المياه ..

وللحـال ادركنا السبب الذي حـدا بالبدو لتسمية ذلك النبــع بـ « نبع العبد » اذ كان بالفعل شديد السواد عند مصدره ، كما ادركنا ونحن في وقفتنا تلك بعض الاسباب التي دفعت بالعرب الى ربط هذا المكان بشتى الألغاز ومختلف الاساطير ، ولبثنا في تلك الوقفة التي تهز المشاعر هزاً عنيفاً نراقب تدفق المياه من النبع ، ونتفرج على الفقـــاقيع الطافية على السطح ، وقد تناهى الى مسامعنـــا هدير زمجرة خفيفة ، لكنها زمجرة غريبــة هي أشبـه شيء بهدير محرك طائرة قادمة من بعيد ، او هكذا

خيّل الينا ونحن نسمع هدير تدفق المياه الشبيه بالزمجرة ، حتى اننا لم نمسك انفسنا – لاختلاط الامر علينا – من ان نرفع رؤوسنا الى السماء بحثاً في اجوازها عن الطائرة المتوهمّة ، ولبثنا في غمرة توهمنا هذا نجيل الطرف ذات اليمين واليسار والأمام والخلف علنا نقع على سيارة قادمة نحونا ، ولكن هيهات هيهات ، فلم نعثر على أي اثر لطائرة او سيارة .

والواقع ان الصحراء التي كثيراً ما خدعت الابصار بخلّب سرابها ، خدعت أسماعنا بذلك الهدير المتفجر من اعماق الارض تحت أقدامنا ، فحسبناه صوتاً هادراً آتياً عن بعد . وهنا تبادر الى اذهاننا بعض الاساطير التي سمعناها فيما مضى من افواه البدو ، ومنها أن الجن يسكنون تحت سطح النبع ، وبالطبع فان انباءً من هذا القبيل لما يصعب على العقل تصديقه ، وهل من حاجة للقول إن المياه هي مصدر ذلك الصوت وهي في طريقها من باطن الارض الى سطحها حاملة معها رائحة الكبريت التي كانت تفوح نافذة من أعماق النبع لتزحم الاجواء برائحتها !

وعلى كل حال فقد لبثنا واقفين بعض الوقت نمتّع انظارنا برأى المياه المتدفقة وفقاقيعها ، ونصغي الى تلك الاصوات الغريبة ، دون ان نعلم شيئاً عن النبع علم اليقين . وفي هذه الاثناء حاول فيسي وجيبونز ان يسبرا غور النبع ، فأخرج أحدهما خيطاً طويلا من جيبه ثم ربط الى طرفه قطعة من الحديد وأسقطها في المياه ، ولكن لم يكتب لمحاولتها النجاح ، لان قطعة الحديد رسبت في مياه ضحلة ، وربما كان مردّ ذلك لعدم صعود المياه من جوف الارض في خط مستقيم .

واخيراً عدنا ادراجنا الى الخيام كي نتناول طعام الغداء ، لكننا لم نكد نتقدم قليلا حتى وقع بصرنا على أفعى عرفنا فيها – من لونها – واحدة من اشد الافاعي الصحراوية سُماً وخطراً ، تزحف الى جوار المخيم ، وبعد قليل وقفنا مشدوهين على مشهد عقرب يغوص في الرمال بحثاً عن الجرذان لافتراسها .

وإن انسَ فلن انسى ذلك السحر الذي يبسطه الفجر في الصبـــاح ، إن فجر الصحراء مشهد مفعم بالجمال والافتتـــان ، تبقى آثاره في ذهن الانسان ما بقي حياً ، فمع اول خيط تنشره الشمس على رمال الصحراء النديـة ، تسمع تغريد الطيور في تحليقها ، متنقلة من مكان الى مكان مخضبة الاجنحة بشعاع من الشمس ، وبملامح من ظلال الصحراء وضيائها .

وفي صباح ذلك اليوم الجميل بينما كنت أقف على باب خيمتي اراقب شروق الشمس وأنا أصغي الى زقزقـة العصافير ، وأتنشق عبير النسيم البليل ، اذا بي ارى قافلة من الجمـــال تسير على التل المجـاور لتلّنا وهي في طريقها الى آبار عرق ... وبعد لحظاتٍ كان الصدى يردد حداء الراعي جماله وهو يوجهها ناحية تلك البئر بقوله :

« ... وو ... هو ... وا ... ها ! »

قد يذكر القارىء اننا نصبنا بعض المصائد للايقاع بالجرذان ، او بالأحرى لتفادي خطرها ونحن نيام . ولما تناولنا طعام الافطار ذهبنـــا للكشف على المصائد فألفيناها مجدودة قد أطبقت على جرذ انسانـا منظره ذكرى هزيمتنا في الليلة السابقة عندما حاولنا ان نشن غارة عنيفة على جحور الجرذان، وبدون ان اصف لكم منظر هذا الجرذ الصحراوي فقـد اقترحت على زملائي أن نسلخ جلده ونبعث به الى المتحف البريطاني في لندن للاحتفـــاظ به في جناح معروضات التـــاريخ الطبيعي ، وقبل الجميع اقتراحي ، وأسندوا اليّ تلك المهمة ، وهكذا سلخت الجرذ وانا جالسة في صندوق سيـارة فيسي فيما نحن منطلقون في طريق العودة .

واتجهنا الآن جنوباً تسير بنا السيارة بمحاذاة طريق ثانية عبرنا منهـــا الى منطقة تقع خلف النبع . وهنا صادفنا احدى الزواحف الضخمة فجربنا ان نضايقها وقد حاولت ان تحيد عن طريقنا . والواقع انها كادت تدخل في جحر قريب لولا ان فاجأها جيبونز برصاصة من بندقيته فأصاب منهـا مقتـلًا . والمعروف ان البدو يسمون مثل هذه الزاحفة « الورّال » وهي

تعيش في شمال شرقي الجزيرة العربيـة . ومما يدهش هو ان « الورّال » هذه كانت بطول قدمين على وجه التقريب ، ذات لون رملي ، يخـالط السواد لون جلد ظهرها ، ولون ذيلها اسود مشوب بالحمرة، وأعجب من ذلك ان الورّال معروفة في المناطق الصحراوية ومشهورة بعدائها للحيات والافاعي السامة ، وتفوّقها عليها ، وقدرتها على ابتلاعها ، ولذا يعتبرهـا البدو من الحيوانات التي لا تصلح للاكل ، لانها تتغذى على الافاعي والحيـات ، في حين انهم يستطيبون لحم الضب الموجود بكثرة في ضواحي الكويت .

وكنا قد صممنا ان نتوجه إلى ابراج الخلجة الـتي لا تبعد عن حدود السعودية إلا بضعة اميـال ، ولكن تصميمنا كان ينحصر في زيارة بركان خامد هناك كما عرفنا من البدو . وقد قص علينـا القوم عن هذا البركان حكايات شتى ، فقال بعضهم انه شاهد بركاناً هائلاً منذ ثمـاني عشرة سنة خلت ، دون ان يعطي عنه أية ايضاحات مفصّلة ... وقال آخرون ان ما يُعتقد بأنه بركان ليس الا بقايا نجم سماوي شوهد يسقـط في ذاك المكان منذ مدة طويلة . وزعم آخرون ان الجن تسكن هناك . وهلجراً ... ولا ولا عجب في التفسير الاخير ، لأن البدو يعتبرون ان كل ما هو غير عادي أو مألوف لديهم فمصدره قوة خارقة غير منظورة .

ولست أنكر اننـا كنا جميعنـا نتلهف شوقاً لرؤيـة تلـك المنطقـة ومشاهدة البركان عن كثب . وكان يزيد في حماستنـا تلك القصص المثيرة التي طالما سمعنا البدو يحدثوننا بها، ومع ذلك كان علينا أن نمضي في الطريق ونبحث عن مكان البركان ، معتمدين على خبرتنا وسابق تجاربنـا في التنقل في ارجاء الصحراء ، لأنه ليس بين ظهرانينا احد من البدو ممن حدثونا عن البركان المذكور ، وان وجد ، فهيهات ان يستطيـع تحديد موقعه بشكل دقيق . ولكن قد سبق لنا ان سمعنا ان بعض علماء الجيولوجيا التابعين لشركة ارامكو قاموا بدراسة علمية عن هذا البركان في القرب بئر للنفط من تلك الآبار التي حفرتها الشركة قريباً من الحدود ،

فتوصلوا الى نتيجة مؤداها ان البركان حقيقة واقعة ، ولكنه بركان خامد.

ومع الصباح وصلنا الى مكان البئر التابعة لشركة ارامكو . وهنا كففنا عن السير كي نتناول بعض الشاي او القهوة عند الحارس العربي الذي يقوم بحراسة البئر ، وكان هذا الانسان يعيش هنا بمفرده في كوخ مصنوع من جذوع النخيل والطين الابيض ، ولم يكن معه اي موظف اميركي ، بالنظراً لكون البئر غير منتجة للزيت ، ومما تجدر الاشارة اليه أننا وجدنا هذه المنطقة قد فقدت الكثير من محاسن الصحراء بسبب الطرقات الكثيرة التي شقتها شركة أرامكو هناك .

ومن المسلّم به أنه كان علينا ان نبحث عن مكان البركان بمشقة بالغة ، إذ لم تكن لدينا أية خريطة واضحة للمنطقة ، يزيد في مشقة البحث وعورة المنطقة وكثرة الاعشاب النابتة فيها ، فضلاً عن المنعطفات الكثيرة والتشعّبات المضلّلة ، فكنا نقضي بعض الوقت ونحن واقفون فوق التل او الأكمة يقيناً منا بأن الارض المرتفعة قد تساعدنا في الاهتداء اليه بهذه الطريقة .

وكم كانت دهشتنا بالغة عندما تبين لنا فجأة أن البركان كان تحت عجلات السيارة من وقفتنا تلك ، ولا عجب إذا ما ضللنا سواء السبيل لأن البركان كان خامداً ، بيد أن منظره كان يبعث على الروعة والخشوع في النفس بعمقه وجوانبه العمودية ، ونظرة واحدة اليه تكشف ما تجمع في جوفه العريض من مقادير وفيرة من المياه ، بينما كانت الأعشاب والنباتات الخضراء تظلّله وتكسو ظاهره ممتدة ببساطها الى الارض المجاورة له ، فكانت بتموجاتها وكثافتها وألوانها المختلفة أشبه شيء بتلك المروج التي عهدنا رؤيتها في بريطانيا .

وبعد ان تفحّصنا جميع معالم البركان شعرنا بالتعب والارهاق ، لا سيما واننا هبطنا الى قاع البركان وصعدنا منه ، وفكرنا أن ننصب خيمة نستظل تحتها من حرارة الشمس اللاهبة ، لأن الحرارة قد بلغت ٩٧ درجة

فيها عسانا نفعل بعد الظهيرة ، فصمّمنا على أن نقوم بجولة قصيرة في المنطقة المجاورة علنا نصادف شيئاً جديداً جديراً بالمشاهدة والدرس ، ولكن عبثاً رحنا نسعى ونبحث ، اذ لم يكن هناك ما يستحق المشاهدة البتّة. اخيراً عدنا الى الخيام وكانت الشمس قد شارفت على المغيب ، فوطّدنا العزم على ان تكون هذه الليلة آخر ليلة نقضيها في الصحراء .

فهرنهايت في الظل . وكان الجوع قد بلغ منا مبلغه ، فأكلنا ورحنا نفكر

●

نهض فيسي في صباح اليوم التـــالي وأخذ يستعد للرحيل الى قلب الصحراء ، في حين أخذنا نحن نستعد للعودة الى الكويت ، لأن واجبنا كان يدعونا الى الاسراع في العودة. وهكذا ودعنا صديقنا ودعونا له بالسلامة، فانطلق هو بسيارته تتبعه سيارة اخرى وسيارة اللاسلـكي ، يدفعه الشوق والحنين للتوغل في قلب الصحراء، في حين انطلقنا نحن عائدين الى مدينة الكويت لنكون هناك في الموعد المحدد كي يتسنى لنا القيـــام بالاستعدادات اللازمة للاحتفال بعيد الفصح .

والجدير بالذكر أنه كان يترتب على فيسي ان يعبر من الحزام الصحراوي المعروف بحزام الدهناء الى منطقة القصيم كي ينضم هناك الى فرقة منظمـــة مكافحة الجراد داخل الصحراء ، ولا مشاحة في ان توغله في الصحراء كان محفوفاً بالمخاطر ، لامتـــداد تلك البطاح الرملية الى ما لا نهاية له من الاراضي ، وانعـــدام الطرق السالكة في اماكن شتى من بقـــاع شبه الجزيرة العربية . هذا ولا يُنكر ان المملكة العربية السعودية قـــد قطعت شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والتطور والحضارة ، وها هم بعض الرجال امثال فيسي قد جاءوا مزوّدين بالجرأة والمعرفة والاقدام لتوسيع دائرة المعرفة والبحث والتنقيب والعمل في تلك الاراضي البكر .

اما نحن فكانت تتراءى أمامنا في طريق عودتنا الى مدينة الكويت صور الذكريات الحلوة الممتعة التي تركتها في مخيّلتنا ليالي الصحراء الحلوة الهادئة ،

ومعالم الأراضي الصحراوية ، والطيور والوحوش ، وما أشبه ذلك من المغامرات والمخاطرات التي قمنا بها برفقة رجال يتمتعون بجميع مزايا الرجولة والشجاعة والكياسة .

أجل، لقد عدنا الى مدينة الكويت بعد ان تركنا خلفنا منشآت الزيت وآباره، وخزّاناته ومحطّات ضخه ، وجميع المعالم الأخرى التي خطّتها يد المدنية على سطح تلك الاراضي المقفرة .

فهرس

شهيرات النساء في العالم الإسلامي

السيرة أطرف الوان الادب، لانها تجلو الاحداث من خلال الابطال، وتبرز التاريخ في اطار من القصة ، وتنهض بالمثل بطاقة الواقع ، وتوشي الحقيقة بمسحة من الخيال .

وكم من سيرة فرد حركت شعباً، وانطلقت بأمة ، وانعطفت بمجرى الأحداث ، فكانت مركز الثقل في تاريخ الامم ونهضات الشعوب.

وتاريخنا العربي زاهٍ بسير ابطاله، مباه بأعمال رجاله، الذين كم كسفوا من نجوم وخسفوا من كواكب .

الا ان التوفر على سير شهيرات نسائنا يكاد يكون يتيماً حتى انقطعت له الأديبة الكبيرة قدرية حسين .

وكان ميلاد هذا السفر واسطة العقد في سيرة البطولة ، عرضاً لخصال شهيرات نسائنا ، وخلال بطلاتنا ، وكل منهن في الأدب والفن والحكمة والسياسة بيت القصيد بقول الشاعر :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وماالتأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

ان سفر « شهيرات النساء في العالم الاسلامي » كتاب كل أم وبنت ومربية ، وكل راغب لابنته واخته السيرة الفضلى والقدوة المثلى ، في السير على نهج الصالحات الفاضلات .

كتاب « شهيرات النســاء » اكتناه صميمي لاسرار حياة مشاهير الرجال،ووقوف واقعي في كواليس الأحداث الهامة من مسرح التاريخ.

الفنون الأدبية وأعلامها

في النهضة العربية الحديثة

تأليف

انيس المقدسي

آخر ما انتجه الاستاذ البحاثة في رحيب ميدان دراساته ، مكرساً اياه للفنون الادبية من سائر وجوهها : قصةً وسيرة ، خطابة ونقداً ومقالة ، مع وقفة طويلة على سيرة اعلامها ومجالات نشاطهم وتقييم آثارهم بكل ما عرف عن الاستاذ العلامة من روح موضوعية ، وأداء علمي .

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

صدر في منشوراتها

آراء غربية في مسائل شرقية	لعمر فاخوري
المختار من أدب الرافعي	
فن الأدب	ليوسف عبد المسيح ثروة
حرب فلسطين ونتائجه	لمنير ابو فاضل
تجربة عربي في الحزب الشيوعي	لقدري قلعجي
لومومبا	لقدري قلعجي
انا عائد من اليمن	لأحمد السقاف
ثورة الحرية ، رواية وطنية تاريخية	لهملتون باسو
قميص من نار ، رواية وطنية تاريخية	لخالدة أديب
أضواء على تاريخ الكويت	لقدري قلعجي
الكويت في موكب الحضارة	لقدري قلعجي
بغداد والثوار ، شعر	لفوزي عطوي
المعتمد بن عباد (حياته وشعره)	لنديم مرعشلي
حفنة من تراب الوطن (قصة حياة شوبان)	لقدري قلعجي
لينين (حياته وآراؤه)	لقدري قلعجي
كان لي قلب ، شعر	لراضي صدوق
١٣ قصة ، محاولات جديدة في أدب القصة	لعاصم الجندي
الشيوعي المليونير	لنجاتي صدقي
الثائر ، رواية وطنية تاريخية	لرفائيل ساباتيني
أدباء السجون	لعبد العزيز الحلفي


Bibliotheca Alexandrina
0409163